الأرض والتطور البشري

تأليف

لوسيان فيفر

ترجمة

د.محمد السيدغلاب

مراجعة

د.إبراهيم أحمد زرقاني

الكتاب: الأرض والتطور البشري

الكاتب: لوسيان فيفر

ترجمة : د.محمد السيدغلاب

مراجعة : د.إبراهيم أحمد زرقاني

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

فيفر ، لوسيان

الأرض والتطور البشري / لوسيان فيفر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٤ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٧٦٨ – ٤٤٦ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٤٦١ / ٢٠١٨

الأرض والتطور البشري





مقدمة الترجمة العربية

هذا الكتاب هو المجلد الرابع للموسوعة التاريخية الفرنسية الكبرى، تطور الإنسانية L'Evolution de I 'Humanité التي بدأت في الصدور تحت إشراف الأستاذ هنري برHenri Berr منذ قبيل الحرب العالمية الأولى، والتي لم تكتمل مجلداتها التي تزيد على المائة بعد،ولم يسبق هذا المجلد إلا مجلدات ثلاثة، بحثت عن تطور الأرض الجيولوجي، وعن الإنسان في عصر ما قبل التاريخ، وعن دراسة اللغة وأهميتها التاريخية، وكان من الطبيعي أن يوضع مجلد عن علاقة الأرض أو البيئة بالتطور البشري، أو كما ترجم إلى اللغة الإنجليزية مقدمة جغرافية للتاريخ.

وقد ظهر هذا الكتاب في أولى طبعاته عام ١٩٢٢ ثم ظهرت منه طبعة ثانية عام ١٩٢٤، وأعيد طبعه للمرة الثالثة عام ١٩٤٩، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية في مجموعة تاريخ المدنية History of civilization التي أصدرها الأستاذ أوجدن C.K Ogden بجامعة كامبريدج عام ١٩٢٥، وظهرت له بعد ذلك الطبعتان الثانية ١٩٣٢ والثالثة ١٩٥٠ بهذه اللغة.

وليس هذا الكتاب مقدمة جغرافية للتاريخ بالمعنى الحرفي للعبارة، إذ لم يضع المؤلف نصب عينيه أنه يقدم كتاباً لقراء التاريخ، ولكنه شغل بمشكلة أهم في نظره، وفي نظر علماء الجغرافيا في ذلك الحين، ولا

تزال هذه المشكلة محل بحث وموضوع مناقشة حتى الوقت الحاضر، هذه المشكلة هي ماهية العوامل الجغرافية وموضوع أثر البيئة في الإنسان، وهنا يقف الأستاذ لوسيان فيفر موقف المتشكك في "أثر البيئة" – وفي "الإنسان" نفسه، إذ ليس هناك بيئة لها أثر على إنسان مجرد، بل ليس هناك مثل هذا المخلوق المجرد، فالإنسان يعيش عضواً في مجتمع ينتمي إلى طائفة من طوائف أو طبقة من طبقات هذا المجتمع، ولدينا في الواقع مجتمعات إنسانية وليس إنساناً مجرداً، ولكل من هذه المجتمعات نظامها الإجتماعي والاقتصادي، ولكل منها تقاليدها ومثلها، وآمالها وأمانيها، وكل هذا يكون الجانب الإنساني في البيئة الذي يؤثر بدوره في وسيلة استغلال المجتمع لما تقدمه البيئة من إمكانيات، أو بعبارة أخرى في أسلوب حياتها.

ليست المسألة إذن هي مسألة أثر البيئة في الإنسان أو أثر الإنسان في البيئة، ولكنها مسألة "علاقات" علاقة المجتمع الإنساني بالبيئة، وعلاقة البيئة بالمجتمع الإنساني، وعلاقة المجتمع الإنساني بالمجتمعات الأخرى.

دراسة العلاقات المكانية إذن هي موضوع علم الجغرافية إذن فقد تخلص لوسيان فيفر من تراث قديم انحدر من أيام هيبوقراط، وظهر في كتابات أرسطو، ثم ظهر في كتابات بودان ومونتسكيه وغيرهما من كتاب المقالات، ثم تلقفته المدرسة الجغرافية الألمانية التي سعى مؤسسوها (رتر وهيبولدت وراتزال) إلى وضعها على أسس مادية ثابتة، لكي

يجعلوها "علمية"، وقد ساعد على ذلك ظهور نظرية التطور لدارون، التي تقول أن الكائن الحي يتلاءم مع بيئته، فلابد أن يتلاءم الإنسان أيضاً مع البيئة، وبمعنى آخر لابد وأن البيئة تكيف النشاط البشري.

وتعبر الآنسة إيلين سمبل عن وجهة النظر هذه بقولها "أننا لن نستطيع أن ندرس الإنسان دراسة علمية وهو منفصل عن الأرض التي يفلحها أو التي يدب عليها، أو البحر الذي تمخر عبابة سفنه، كما أننا لا نستطيع أن ندرس الدب القطبي منفصلاً عن البيئة القطبية أو الصبار الصحراوي بعيداً عن الصحراء وجدبها".

بل أنها لتفتتح كتابها المشهور عن المؤثرات الجغرافية بقولها "الإنسان نتاج الأرض، تراب من ترابها، وهذا لا يعني فقط أنه ابن الأرض، تراب من ترابها، بل أن الأرض هي التي ربته وأطعمته، وواجهته بالمشاكل، ووجهت أنظاره وجابهته بالصعاب، وفي الوقت نفسه همست له بحلولها إنها تخللت عظامه ولحمه، وروحه وعقله ...".

هذه هي المدرسة البيئية أو الحتمية Environmentalists of determinism التي دأب الأستاذ لوسيان فيفر متأثراً بأستاذة فيدال دي لابلاش في مناقشتها بصبر وإصرار، لكي يفند أخطاءها، ولكي يبين أن ليس هناك ضرورات بل إمكانيات، ليس الإنسان عبداً للطبيعة مخلوقاً سلبياً يتقبل المؤثرات الخارجية، وليست قوانين الطبيعة الأزلية بقيد حديدي، كتب على الإنسان ألا يتحرر منها، ولكنها مجرد إمكانيات Possibilities، تنطوي على عدد لا حصر لها من القوى الكامنة،

والإنسان هو الحكم في اختيار ما يلائمه من هذه الإمكانيات تتفتح للإنسان بطرق مختلفة، طبقاً لما أوتى من علم وذكاء ومهارة، وطبقاً لما تواجهه به ظروف الزمان من حاجيات وأن الجغرافية البشرية لا تدرس إلا الإمكانيات، وعليها أن تترك الباب مفتوحاً أمام حرية اختيار الإنسان طبقاً لحاجاته.

فالإنسان إذن –أو المجتمعات الإنسانية بعبارة أصح–فينظر هذه المدرسة الإمكانية عامل جغرافي، ولا أقل من هذا أنه يساهم في كل مكان بنصيب كبير في تعديل سطح الأرض وتغييره، ومهمة الجغرافي أن يدرس مظاهر المكان المتغيرة من زمن إلى آخر، نتيجة للجهود البشرية المتوالية، وأن يظهر ما يقوم به الإنسان في قوة وعزم نحو تهيئة البيئة لمطالبة والملائمة مع مقتضياتها إن الإنسان ليس مجرد مخلوق سلبي خاضع لمؤثرات البيئة، ولكنه قوة إيجابية فعالة في تهيئة البيئة لمطالبه أيضاً، أنه لا يوجد قطر من الأقطار لم تمتد إليه يد الإنسان بالتعديل والتغيير ولا تحمل آثار نشاطه.

وأن البيئة بإمكانياتها المعروفة ليست قدراً مكتوباً على الإنسان، بل أنه ليكتشف كل يوم جديد ويوسع كل يوم من إمكانيات استغلال البيئة، ونحن لنتسآل الآن، أين الراعي التقليدي في وسط آسيا، وأين اختفت خيام رعاة الحيل في التركستان الآن، ومن كان يظن أن البدوي سيهجر قطعانه ليعمل في آبار البترول في حقول الظهران والدام، أو يتكدس في مصانع الصلب في ماجنيتو جورسك وكوسنتر.

ليس هناك تحكم من جانب واحد، فلا البيئة تستأثر بالتأثير على الإنسان ولا الإنسان بمنفرد في التأثير فيها، بل هناك تبادل تأثير بين قطبين متماثلين، هما البيئة والإنسان، وأن هذا التبادل يتم خلال الزمن، فالحدود التي تضعها الطبيعة على إمكانيات المكان، ومجال اختياره، تختلف من مكان إلى مكان على سطح الأرض، ومن فترة تاريخية إلى أخرى، ومن قبيل الأوهام أن نظن أن الإنسان قد استطاع أن يتحرر منربقة الطبيعة واستبدادها تماماً، والمدرسة الإمكانية لا تنكر أثر الظروف الطبيعية أو البيئة في الإنسان، ولكنها في نفس الوقت ترفض أن تكون العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة حتمية نهائية، تحكمها قوانين صارمة، بل أنها تؤكد حرية اختيار الإنسان من إمكانيات عديدة "من الممكن" أن يختار منها ما يشاء، وتؤكد استجابة الإنسان لظروف البيئة وليس خضوعه لها.

وقد بين الأستاذ لوسيان فيفر في كتابه حدود الإمكانيات، وذلك بوصف كامل للبيئات الطبيعية الكبرى على أساس مناخي نباتي، كما وصف الأقاليم الطبيعية الثانوية التي تعتبر كالإطارات تحيط بالمجتمعات البشرية المختلفة، مثل بيئات الجبال والسهول، والبيئات البحرية، والصحراوية، وتدرج من هذا إلى أساليب الحياة التقليدية الرئيسية، مثل حياة الصيد والجمع والالتقاط وحياة الرعي وحياة الزراعة، وهو في هذا كله يؤكد شيئاً واحداً، حرية اختيار الإنسان طبقاً لعاداته وتقاليده وحسب مقدراته العقلية وخبراته، وفقاً لحاجاته المتغيرة المتجددة باستمرار، فالطباع والعادات والتقاليد التاريخية ودرجة التقدم الحضاري والمهارات

والقدرات العقلية والآلية كلها هي التي توجه اختياره داخل إمكانيات لبيئة.

البيئة إذن كما وصفها لوسيان فيفر –إطار مناخي نباتي كبير، في داخله أقاليم طبيعية ثانوية، وهي أيضاً واسعة فضفاضة، يجول فيها إنسان يعيش فرداً في مجتمع له تقاليده وطباعه، ويعيش في مستوى معين من الحضارة وعلى قدر معين من المقدرة العقلية والآلية له حاجاته يحاول أن يشبعها مستعيناً بهذه المقدرات ومتأثراً بتلك التقاليد، وهو على قدر كبير من الحرية في اختيار ما تقدمه البيئة من إمكانيات، ولا يحد من هذه الحرية إلا درجة عمه وذكائه ومقدرته، وحدود إمكانيات البيئة نفسها.

وهو في هذا الاختيار متطور متغير، تتطور مقدراته، فتتطور اكتشافاته لإمكانيات البيئة لا جمود ولا قدريه، بل تطور وحرية اختيار.

ولقد كتبت لهذه الفلسفة الجديدة للجغرافيا أن تكون هي المسيطرة الآن في كتابات الجغرافيين، لا في فرنسا فحسب، بل في بريطانيا وأمريكا أيضاً، بل لقد اضطر من لا يزال متشبثاً بأهداب الحتمية من تطوير حتميتهم، مما جعلها أقرب ما يكون للإمكانية ولا يمثل الحتمية في الوقت الحاضر سوى جريفث تيلور Griffith Taylor في أمريكا بينما أخذ روكسي وفلير في إنجلترا، وبومان وكارل ساور في أمريكا إلى جانب دي لابلاش وديمانجون وبرن في فرنسا بالنظرية الاختيارية، والواقع أن الجغرافيين الآن قد انتهوا من هذه المسألة إلى سبيل وسط، إنهم يسلمون بالحرية الإنسان في اختيار إمكانيات البيئة،

ويسلمون أيضاً بأن هذه الإمكانيات محددة بظروف البيئة الجغرافية، فكأنما البيئة تنطوي على إمكانيات عديدةفي حدود معينة، لا تفهم منها إلا حدود المناخ والنبات، والسؤال الذي يسأله لنفسه باستمرار، خصوصاً بعد تقدمه العلمي والتكنولوجي، هل اختيار هذا الأمر أو ذاك ضرورياً وحيوياً، هل هو اقتصادي بحيث يستطيع المضي فيه أم يقنع بما هو بديهي من إمكانيات البيئة وما لا يحمله فوق ما يطيق؟

وسيجد القاريء في هذه الترجمة أن المؤلف اتبع أسلوباً جدلياً، لأنه كما قلنا كان داعية نظرية معينة، كانت جديدة في هذا الوقت، فكان عليه أولاً أن يزيل أوهام النظرية الحتمية، ثم يمهد لنظريته ويقدمها وهو حتى في تقديم نظريته لا يفعل ذلك إلا بالرجوع باستمرار لنظريتها الحتمية، وربما لم يكن من الميسور لشخص آخر سوى لوسيان فيفر أن يخرج مثل هذا الكتاب، فهو مؤرخ بحكم تكوينه الأكاديمي، اهتم بالجغرافية وقرأها ونقدها، وهو مسلح بإلمام واسع بالعلوم الاجتماعية وبنظريات أميل دوركايم عن المورفولوجيا الاجتماعية، وبكل ما وصلت إليه علوم الاثنوغرافيا والانثروبولوجيا من كشوف.

لقد كان كاتباً إنسانياً بأوسع معاني الكلمة، امتزجت فيه الدراسات التاريخية والجغرافية بالعلوم الإنسانية الأخرى من أدب وفلسفة واجتماع واجتمعت لكي تدرس مشكلة العلاقات كما سماها علاقة الإنسان بالبيئة وعلاقة البيئة بالإنسان، وعلاقة المجتمعات الإنسانية بعضها ببعض،

ولعله كان يدرك أن الجغرافية هي العلم الذي يدرس الظاهرات المختلفة (طبيعية وبشرية) مجتمعة في المكان.

مثل هذه الدراسة ذات قيمة كبرى لا للجغرافي فحسب، بل للمؤرخ ولعالم الاجتماع أيضاً، ولا نغالي إذا قلنا لكل المهتمين بالدراسات الإنسانية فهي مثل رائع لتكامل المعرفة "الإنسانية" كما ينبغي أن تكون.

وقد يقال أن أمثلة هذا الكتاب قديمة، ولكنها لا تقلل من أهميته بأي حال، فجميع أمثلته مأخوذة من بيئات متعددة، من فترات مختلفة من التاريخ، وهي كما يقول المؤلف ليست نهائية، وما على القاريء إلا أن ينسج على منوالها من الأزمنة الحديثة –وعلى الرغم من هذا فلا تزال أمثلة حية قوية كما كانت منذ ربع قرن، وليس أدل على ذلك من أن طبعته الأخيرة عام ١٩٤٩ في فرنسا و١٩٥٠ في انجلترا جاءت خلواً من أي إشارة إلى قدم بعض الأمثلة.

وليس لهذا أي أثر في قيمة الكتاب، فهذا ليس كتاب مادة –رغم غناه الوافر بمادة غزيرة من فروع جغرافية واجتماعية وتاريخية مختلفة– ولكنه كتاب طريقة، دخل المكتبة الجغرافية لكي يحتل مكاناً مرموقاً بين الكتب المنهجية فهو ينقد منهجاً ليبني منهجاً آخر، ولابد لكل من يتصدى للبحث الجغرافي من أن يقرأه ويتفهمه وينقده بدوره، فهو من أجل هذا كله كتب في لغته الأصلية، وترجم إلى الانجليزية ومن أجل هذا أيضاً نقلناه إلى اللغة العربية.

ولقد كنا نرجع باستمرار للترجمة الانجليزية للاستجلاء ما غمض من عبارة، ولاسيما التعابير العلمية الفنية في علم الجغرافيا، وقد سرنا أن المجلس الأعلى للآداب والفنون قد أشار علينا بذلك أيضاً.

وإننا لنرجو الله أن يجد هذا الكتاب ما هو جدير به في أوساط زملائنا المشتغلين بالجغرافيا بالجامعات والمعاهد المختلفة.

والله ولي التوفيق

المترجم

الإسكندرية في ١٩٥٧/٦/١٥.

الجزءِ الأول

تقديم

أثر البيئة في الإنسان واستغلال الإنسان للأرض

يظهر الإنسان لنا على مسرح التطور نتيجة لذلك الدافع للحياة الذي يكون الحياة ذاتها، أنه ذلك العامل المنطقي مبدع الإله الناطق بالكلام، الذي وهب قوة إبداعية تزداد على مر الزمن قوة ومضاء ويدفعها إلى الأمام اختراعاته الخارقة.

ما هو هذا الدور الذي قام به كل من العاملين الأساسيين –البيئة والعنصر؟ لاشك أن كلا منهما له أثر محدود تحت شروط ظروف خاصة ولكنهما عاملان شاملان، ونحن نتساءل إلى أي حد أثر كل منهما في تقدم الفن والفكر؟ وإلى أي حد نستطيع أن نعتمد على فلسفات التاريخ وموسوعاته التي تجعل البيئة أو العنصر أو كليهما وسيلتي التطور البشري؟[١].

إن الإجابة على هذه الأسئلة يمكن أن نجدها خلال كتابات الأستاذ فيفر والأستاذ بتارد[٢] في هذه السلسلة من الكتب التي نقدمها وها نحن اليوم نقدم كتاب أولهما وقد استطاع فيه كما فعل زميله أن يحدد المشكلة في أضيق حدودها الممكنة.

[١] La Synthese en Histoire, p.77 ff

[٢] قد قبل الأستاذ بيتارد M. Eug Pittard مشكوراً أن يقوم بمعالجة هذا الموضوع.

ليست مشكلة أثر البيئة في الإنسان داخلة في نطاق بحث الجغرافي الصرف، فالجغرافي الصرف لا يهتم كثيراً بالتاريخ، بل أنه ليقتصر على الجغرافيا ولذلك فإن معالجة مثل هذه المشكلة المعقدة تحتاج إلى جغرافي تاريخي، أو مؤرخ جغرافي ضليع في نفس الوقت بعلم الاجتماع، ولاشك أن هذا الكتاب سيثبت أن المؤرخ الذي يمتاز بسعة الأفق في مادته، وعمق الفهم لها والذي يميط اللثام عن السلوك البشري ويسلط الأضواء على العوامل الخارجية والعوامل الداخلية التي تؤثر في ذلك السلوك، والذي لا يهمل أي عامل له أثره في ذلك السلوك بالرغم من تخصصه في مادته، مثل هذا المؤرخ النادر المثال هو وحده الذي تؤهله ملكاته للقيام بمثل هذا العمل الدقيق الهام، ألا وهو دراسة العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية[٣].

إن ميزة لوسيان فيفر الكبرى –كما سنرى– أنه يخضع للنقد العنيف جميع الأركان الغامضة و"القوانين" القابلة للجدل والعبارات الطنانة الجوفاء التي يكتبها غيره من الكتاب دون سند من حقيقة أو تفكير عميق، فكان بروحه العلمية حرباً على العلم الزائف الذي يعمل بنظريات مبسطة تبسيطاً مخلاً يعود على الحقيقة بأوخم العواقب، فلابد من التخصيص قبل التعميم، "فمشكلة البيئة" تتكون من عدد كبير من المشاكل الصغرى التي يلقي عليها لوسيان فيفر مزيداً من الضوء يجعلها

---

(٣) قد شغل الأستاذ لوسيان فيفر نفسه منذ سنين بموضوع الجغرافيا البشرية.

انظر بصفة خاصة الأجزاء الآتية **Revue de synthese historique 9ص 92، 16 ص 45، 217، 17 ص 358، 18 ص 242، 269، 19 ص 43، 99، 35 ص 97، وفي هذا أجاب على كثير من النقد.**

واضحة للفكر، ولا ريب أن كتابه غني بالقوانين الإيجابية وبالفروض التي يضعها على أنها فروض، ولكنه كان يرمي أولاً وقبل كل شيء إلى إظهار المدى الذي أثرت فيه الأرض "موضوع الجغرافي" على سير التاريخ، وهو في هذا يعتمد على ما كتبه زملاؤه في هذه السلسلة وعلى فحص مقترحاته وآرائه ووضعها موضع الاختبار.

ومن ثم فإن كتابه يتفق مع الغرض الأساسي لهذه الأسئلة، حيث أنها لا تهدف فقط إلى عرض نتائج أبحاث المؤرخين كما هي بل أنها تهدف إلى إلقاء الأسئلة وإلهام الباحثين بالآراء التي تهديهم في أبحاثهم، وعرض مثال لعمل متكامل –نتيجة للتحليل الذي يضع نصب عينيه الفكرة المتكاملة– فالعمل المتكامل هو الذي تم طبقاً لخطة منظمة وليس مجرد جمع نظريات لم يتم إثباتها.

لقد وضع لوسيان فيفر حدوداً معينة لموضوعه فضلاً عن الدقة العلمية التي توخاها، فهو لا ينكر أثر البيئة المباشر على تكوين الإنسان خَلقاً وخُلقاً ولكنه لا يتعصب للفكرة ويترك الموضوع مسألة عامة.

فلا ريب أن أثر البيئة قوي جداً على الإنسان وهو في طوره البدائي "إذ لا يمكن أن ننكر –كما يقول ادموند بيرييه– أن الجفاف والرطوبة والرياح للقوية أو الضعيفة والضوء والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تعدل من صفات الكائن الحي تعديلاً دائماً أو مؤقتاً، سواء كان هذا الكائن حيواناً أو نباتاً، كما أن الطعام الذي يستهلكه الكائن الحي، طبيعته وكميته نقصاناً أو زيادة يؤثر أثراً أكبر في نموه، ولا يمنع عجزنا

عن بيان مقدار تأثر كل عضو من أعضاء الكائن الحي بالاستعمال أو الإهمال من أن نؤكد أن العضلات تقوى بالاستعمال وتضعف بالإهمال"(٤)، كما أن بعض الصفات –ولا نستطيع أن ندخل هنا في تفاصيل قوانين الوراثة– المكتسبة وتنتقل بالوراثة.

وتبدو أهمية تأثير البيئة الخارجية أكثر وضوحاً إذا أخذنا في الإعتبار ما يترتب عليها من مشكلة المادة والتلاؤم معها في البيئة الداخلية، نتيجة للمؤثرات التي تستقبلها من الخارج، وقد أكد ادموند بيرييه الذي أرجع في دراسته للحياة التغيرات الناشئة في الكائن الحي إلى أسبابها الخارجية، أكد هذا الكاتب أهمية الأسباب الداخلية القوية في تعديل صفات الكائن الحي.

إن العناصر التي تكون الكائن الحي مستقل بعضها عن الآخر ولكنها في نفس الوقت مترابطة أشد الترابط فكل خلية تشترك في تكوين الجسم مع بقية الخلايا وتكسبه ما لا تحتاج إليه هي وحدها من نشاط زائد فهو إذن بيئة داخلية تتحد العناصر سواء كان ذلك استجابة لعناصر البيئة الخارجية أو لأنها دائمة التفاعل بعضها في البعض الآخر.

أي أن البيئة الخارجية تستطيع أن تؤثر في الكائن الحي دون استجابة عناصر هذا الكائن لها ودون أن تشترك في هذا التغيير، فالكائن الحي جسم عضوي شديد التفاعل بعضه في البعض الآخر، ولا نستطيع أن ندخل هنا في تفاصيل الكائن العضوي مع البيئة ولكننا سنعود إليها

---

(٤) Perrier. T.1 de l'evolution de l'humanite, 99pf. 231.

عندمانرى من عناصر البيئة الداخلية أن تاريخ الحياة ليس إلا تلاؤماً حياً لعوامل البيئة المتغيرة.

ولا نعدو الصواب إذا قلنا أن البيئة تفسر السلالة، فالسلالة –نظرياً للبيئة ولكنها– كما قيل من قبل–نتاج سابق للتاريخ[٥]ولا يستطيع الأستاذ لوسيان فيفر المختص بالتاريخ– والتاريخ الحديث بصفة أخص أن يعالج هذه المشكلة، ولكننا نرضي أنفسنا ونكتفي بالقول هنا أن البيئة تركت بلا شك أثرها القوي في تكوين الإنسان خلقاً ونفساً وأن قوة هذا الأثر ومدى تأثيره لا تزال تحتاج إلى بحث، أما فيما عدا ذلك فنحن نرجع القاريء إلى كتاب بيتارد.

وهناك مشكلة أخرى تظهر للباحث إلى أي نقطة في الفترة التاريخية نفسها تستمر البيئة في إظهار قوتها وإيضاح أثرها؟ فإذا كان للمناخ هذا الأثر المباشر الواضح في عالم الحيوان[٦] والنبات فهل يستتبع ذلك أن تميل كل بيئة طبيعية للتأثير –ولا نقول أنها تؤثر– في الإنسان الذي يقطنها؟ ما هي العلاقة بين طول القامة مثلاً أو صبغة الجلد أو التكوين التشريحي أي الصفات التي تتميز بها سلالة على سلالة وبين ظروف البيئة الطبيعية من مناخ وتربة وتوافر الطعام أو قلته، وما هي العلاقة بين طاقة الإنسان الذهنية وميوله العقلية وبين تلك الظروف كذلك؟ هذه هي أسئلة دقيقة تشترك مع علم الانتروبولوجيا

---

[٥] نفس المرجع ص٣٨٨.

[٦] E.Raband, (L' Adaption et L'evolution) iii, Rev Philosophique, jan – Fev 1922, p.94.

والتشريح من ناحية ومع علم الاثنولوجيا من ناحية أخرى، وقد تهم الجغرافي بعض الشيء ولكنها ليست داخل مجال بحثه(٧)، وعليه أن يكون شديد الحذر ولا يسرع بقبول نظريات التلاؤم مع البيئة الأولية، فهي نظريات لا يزال العلماء يتدارسونها ويبحثونه ويعيدون النظر فيها.

لقد أسيء استعمال فكرة "تأثير" عوامل البيئة الطبيعية في محاولة تفسير صفات الشعوب وميولها الذهنية، فقد كان من السهل على كل باحث أن يرجع ما غمض عليه تفسيره إلى أثر تلك العوامل ولا غرابة في الواقع في أن مظاهر البيئة الطبيعية تؤثر في خيال الشاعر وأن يستوحي الفنان البيئة الطبيعية التي يعيش فيها آيات فنه وربما لم يكن من المستطاع بناء البارتينون الأعلى أرض أتيكا وتحت سمائها ولكن وضع قاعدة عامة عن العلاقة بين البيئة والفن ستفتح للناقد الأدبي أو المؤرخ الأدبي مجالاً واسعاً للبحث(٨).

إلا أن الإنسان يحمل معه صفاته الذهنية التي اكتسبها من بيئته الأصلية وينقلها معه مهاجراً من وطنه مع قبيلته أو بمفرده، كما أن الناس يختلف بعضهم عن الآخر اختلافاً لا نهائياً من حيث طبيعته النفسية، ومن ثم كانت البيئة الواحدة موطناً لعناصر شتى من السكان نبت فيها فنانون يختلف بعضهم عن البعض الآخر اختلافاً كبيراً في الذوق والمزاج والتعبير الفني، وهذا ما يجعلنا نكف عن مثل هذه الدعاوي العريضة – على أثر البيئة في الفن أو النشاط الذهني.

---

(٧) **La synthese de Histoire, p.78.**

(٨) انظر أدناه الباب الأول، الفصل الثاني، ٣.

فالاحتمالات كثيرة ويجب أن تخلي مكانها للبحث العلمي المنظم وهذا مجاله التاريخ ولا يمكن أن يفرض نفسه على الجغرافيا البشرية.

ما هو إذن الاتجاه الصحيح في الجغرافيا البشرية لمن يريد أن يقوم بعمل محدد؟ أن مجال الجغرافيا البشرية الصحيح –كما يبين فيفر– هو دراسة العلاقة بين الإنسان والحياة أي بين البيئة الطبيعية وبين نشاط سكانها.

لقد تحدثت في التكامل التاريخي عن أثر البيئة الطبيعية من وجهة نظر واقعية تاريخية، فهناك أحداث طبيعية تثير استجابات بشرية[٩] مثل هذه الحوادث الطبيعية التي وقعت على الأرض كان لها أهمية كبرى في تقرير مصائر الأمور ولاسيما في فترة ما قبل التاريخ، كما كان لها آثار بعيدة المدى على تاريخ الإنسان ولكن مثل هذه الأحداث الطبيعية كالزلازل ولفيضانات ومدى الحرارة ليست ذات دور حاسم الآن، بالرغم من أنه لا يمكن إغفالها، وهذه أمور تختلف عن ظواهر البيئة الطبيعية ومواردها الطبيعية وهذه أيضاً تحتاج إلى إيضاح تأثيرها على التطور البشري إيضاحاً دقيقاً[١٠].

إن الأرض تؤثر في الإنسان عن طريق الحياة النباتية أكثر من أي شيء آخر، فهذا الغطاء الحي وإمكانيات التربة المتنوعة هي التي تؤثر

---

[٩] انظر في هذه النقطة De Margau p.19
Cornejo, Sociologie generale, v.l, p.286.

[١٠] يجب أن يلاحظ أن أسلوب الحياة يدخل في تشكيل الخلق العام، وهنا تؤثر البيئة تأثيراً غير مباشر في القواعد الخلفية العامة، وبهذه الوسيلة تؤثر البيئة تأثيراً غير مباشر على الإنسان، ويضاف تأثير جديد إلى تأثيرها المباشر.

في الإنسان وليس تلك النظريات الجوفاء التي يتمسك بها بعض الجغرافيين والتي يظنون أنها تقدر مصائر الدول وتقيم التاريخ وتقعده، وهذا الغطاء الحي هو الذي يتمسك به لوسيان فيفر، فهو يبين لنا أن التاريخ الذي ينمو مع الزمن يقوم بتقديم كل يوم مشاكل جديدة للجغرافيا فالبيئة في تغير الإنسان في تطور نحو آفاق جديدة لاستغلالها، فحياة الإنسان كلها وليست حياته السياسية وحدها بل كل نظمه وخصوصاً الاقتصادية ذات علاقة كبرى بالبيئة[١١].

دراسة "العلاقات" بأوسع معاني الكلمة هي مجال الجغرافيا البشرية، العلاقات بمعنى العلاقات المتبادلة وهي في رأي بعض الجغرافيين علاقات ثابتة وعلاقات متغيرة، وعنوا بالأولى أثر البيئة على الإنسان كما عنوا بالثانية أثر الإنسان في البيئة، بل يجب أن تعتبر الجغرافيا البشرية دراسة تلك العلاقات في مجموعها كلا لا يتجزأ، وعلاقات متبادلة، وهذا الاتجاه يتفق مع الاتجاه العام للعلوم الطبيعية إذ لا يمكن أن تدرك طبيعة هذا الكون إلا على ضوء دراسة بعض ظواهره في ضوء غيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى وعلاقة بعضها بالنسبة للبعض الآخر وهذا هو لب الحقيقة، وقد وجه نقد شديد لمحاولة التجريد ودراسة المجرد مثل الزمان والمكان.

الكائنات البشرية عناصر من العناصر التي تشترك في تكوين البيئة ولا يمكن فصل نشاطها عنها والإنسان عنصر معدل لهذه البيئة يجعلها

---

(١١) أدناه، الباب الأول، الفصل الثاني، ٣.

إنسانية، فمهما اختلف نشاط الإنسان فإنه لا يستطيع فكاكاً من أثر البيئة الطبيعية[١٢]، ولكنه ليس مجرد مستقبل لهذه الآثار بشكل سلبي، وقد وعد بعض الكتاب بكتابة جغرافيا للتاريخ، ومن الغريب في نظرية الحتم الجغرافي أن نفس الظروف لا تؤدي باستمرار إلى نفس النتائج، فكأن المؤلفين لهذا الكتاب يجاهدون في نقض نظريتهم، ويبدو أنه ما لم تكن هناك ظروف جغرافية معينة تؤدي إلى نتائج معينة باستمرار وباضطراد فلابد وأن تختفي الجغرافيا التاريخية، فليس ثمة سوى تاريخ وهذا هو الشعور العام بين الكتاب[١٣]، وقد كان فيفر على علم تام بكل هذا وحده[١٤]، وهذه ميزته عند شروعه في في تأليف الكتاب هذا فهو يقول "أن يعض الجغرافيا البشرية ليست إلا تاريخاً دبت فيه الحياة من حيث مصادره متجدداً من حيث طريقته متطوراً –لحسن الحظ– في موضوعه"[١٥].

وقد وجد لحسن الحظ صيغة دقيقة لسؤال قابل فيها بين حتمية لاتزال وإمكانيةفيدال دي لابلاش "[١٦]إذ ليس هناك مؤثرات ثابتة مضطردة لأربعة أو خمسة قوانين جغرافية أزلية تتحكم في مصائر البشر

---

[١٢] انظر أدناه الباب الثالث، الفصل الرابع-١

[١٣] ما سبق

[١٤]ص٣١٥

[١٥] Revrue de metaphysique et de morle, Aut-Dec, 421, supp. P.12 La geographie et l'Histoirre, parl, Brunhes & C.Vallaux.

[١٦] من الفضل أن نقول الضرورة necessaritism ولابد من التمييز بين الحتم والضرورة، فالحتم هو السببية الطبيعية ومن بين الأسباب التي تحتم ظهور الظاهرة في الطبيعة ما هو ضروري Contingentes ومن بين هذه الأسباب الضرورية، فالمشكلة إذن هي ما إن كان هناك ضروريات جغرافية، أي ما إذا كانت القوى الطبيعية تستطيع أن تكون أسباباً ضرورية لإحداث استجابات بشرية معينة، وما إن كان البشر مجرد عوامل سلبية لهذه الضروريات.

التاريخية"[١٧]، إنما المشكلة الجغرافية في وضعها الصحيح هي استغلال إمكانيات[١٨]، "ليس هناك ضروريات بل هناك إمكانيات في كل مكان[١٩]، أن الظروف الطبيعية مادة التطور البشري أكثر منها علة هذا التطور"، فالعلة الأساسية ليست في الطبيعة بما تقدمه من موارد أو تقيمه من عقبات فحسب بل هي تكمن أكثر من ذلك في الإنسان نفسه وفي الطبيعة".

هناك مناطق معينة موزعة توزيعاً منظماً على جانبي خط الاستواء وهي إطارات مناخية نباتية كبرى غير متساوية في الثروة أو الإمكانيات، وغير متساوية في درجة ملائمتها لسلالات البشر المختلفة ولكن ليست هناك استحالة مطلقة حتى بالنسبة لأقل السلالات البشرية ملائمة لها "كي تقيم في هذه المناطق المختلفة"، فإن الإنسان قادر بإرادته القوية المثابرة على أن يقلب كل الاحتمالات رأساً على عقب، وقوى الفكرة الحتمية أن هذه الإطارات تكون "مجموعة من القوى تؤثر مباشرة على الإنسان بقوة طاغية قاهرة نهائية "وهذه القوى" تتحكم في جميع أوجه النشاط من أبسطها حتى أكثرها تعقيداً[٢٠]، أن الذي يحدث في جميع هذه الإطارات هو أن بعض هذه الإمكانيات ينشط الواحدة بعد الأخرى، وبعضها يظل خاملاً مستتراً لكي ينشط فجأة تبعاً لذكاء ومقدرة الإنسان الذي يسكنها "إلا أن هذه الإمكانيات لنشطة لا تكون أي نوع من أنواع

---

(١٧) انظر هامش ص٢٤ أعلاه.
(١٨) انظر الباب الثالث –الفصل الرابع، ٣.
(١٩)انظر الباب الثالث –الفصل الرابع، ٣.
(٢٠) انظر أدناه، الباب الثاني، الفصل الثالث.

النظام المترابط، وهي لا تكون كلاً لا يتجزأ مع أي منطقة من المناطق، وإنها وأن أدركت وفهمت فأنه لا يدركها كل الناس دفعة واحدة بنفس القوة وفي نفس الوقت[٢١]، بل أن الإقليم الواحد ليقدم إمكانيات كثيرة التعدد لمجرد اختلاف قيم عناصرها ولا رابط لذلك كله سوى النشاط البشري.

وليس هناك شك في تشابه الجماعات البشرية أو تقاربها على الأقل –في أسلوب حياتها التي هي نتيجة لاستغلال إمكانيات البيئة المتشابهة ولكن ليس ثمة قانون ثابت ينظمها ولذلك فعلينا ألا نخلط مرة أخرى بين الضرورة والإمكان.

فالإنسان يحتاج لقاعدة يبدأ منها نشاطه ومجهوده في استخدام المصادر الطبيعية وفي تعديل البيئة، هذه القاعدة هي الجبال والسهول والهضاب والوديان وسواحل البحر والجزر والواحات.

وقد بين لوسيان فيفر بما قدمه من أدلة وبراهين كاملة ومنطق دقيق بأننا نخطيء إذا ظننا أن هذه الوحدات الطبيعية ذات صفات ومميزات خاصة مطلقة[٢٢]، "فليس هناك بالضرورة فكرة فريدة تنفرد بها الهضبة أو السهل أو الجبل يؤثر كل منها في عمل الإنسان بمؤثرات معينة".

---

[٢١] انظر أدناه، الباب الثاني، الفصل الثالث.

[٢٢] الهامش السابق.

هناك وحدات جغرافية غاية ما نستطيع إزاءها هو تقسيمها وتصنيف إمكانياتها للمختلفة، لتحديد مدى ملائمة الأنماط البشرية[٢٣]، وإذا أخذنا في الاعتبار أصغر الوحدات الجغرافية وأبسطها وأكثرها طبيعية، مثل الوديان والجزر والواحات، فأنا نكون بإزاء عوامل تؤثر في الإنسان وتتأثر به، أي إزاء عوامل الإمكانيات العديدة المتشابكة، وإذا أردنا أن نبحث عن ضرورة، كل قانون خاص بالجزر فرض على الإنسان وعلى المجتمعات الإنسانية، فإننا لن نجد إلا التنوع والاختلاف[٢٤]،فليست الجزيرة وإن كانت واحدة، وحدة كاملة، كما أن العزلة مثل العوامل الطبيعية الأخرى، مسألة نسبية وليست سوى وجهة نظر، وليست الملاحة مرتبطة بطبيعة الساحل، ولا ترتبط أكمل الوحدات المورفولوجية بأي آثار فعلية.

ويميل بعض الكتاب إلى الربط بين أساليب الحياة وبين بيئات معينة على أنها متوقفة عليها ومن ذلك ركنوا إلى تبسيط أساليب الحياة الاقتصادية وتصنيفهاإلى قناصين وصيادين سمك وزراع متنقلين[٢٥] وزراع مقيمين وبهذه الوسيلة أفقروا نسيج الحياة المتعدد الألوان، إذ أن اساليب الحياة في غاية التنوع والتعقيد في الجماعات البشرية وإذا أسهمت ظروف ثابتة –مثل الغابات ومسطحات المياه والصحاري والوديان قبل زراعتها– في تكوينها الأصلي فإنها فيما بعد تكون صفات مكتسبة جديدة تتدخل بين الإنسان والبيئة وتنتهي إلى تعديل البيئة أكثر

---

(٢٣) الباب الثاني، الفصل الثاني، ٣.

(٢٤)تاريخ فرنسا، خامس، ص٢٢٠، انظر Blanchard, La Flandre ص520.

(٢٥) الباب الرابع، الفصل الأول ـ٤.

مما يظن كثير من الكتاب[٢٦]، بل أن هذه الظروف الطبيعية الثابتة ليست بالسطوة والقوة والثبات في تأثيرها على الجماعات البشرية البدائية كما يقال غالباً، بل أن البشرية في أولى مراحل تطورها استطاعت أن تتحرر إلى حد ما من ربقة الظروف الطبيعية[٢٧].

وهكذا نستطيع أن نخلص إلى حد كبير الحياة الاقتصادية من البيئة الطبيعية التي طالما ارتبطت معها في أذهان بعض الكتاب، وهناك أسباب أقوى تجعلنا نعتقد أن النمو السياسي والديموغرافي وتكوين الدول بحدودها وطرقها ومدنها وعواصمها –تعتمد أقل فأقل على الظروف الطبيعية، وهذا ولاشك نتيجة للاحتمالات الجغرافية ولكنها جميعاً –كمعبرة عن حياة المجتمعات– في تطور مستمر ولا يمكن تفسير تطور الجغرافيا السياسية إلا على ضوء ما يعتمل في نفوس البشر، حقاً هناك حقائق جغرافية كالمدن والدول التي ترتبط بتوزيع الطرق – وهناك مستقبل المدن ونمو العواصم وهذه جميعاً تكون أجزاء لا تنفصل عن التاريخ، أي عن الصدف والإرادة البشرية، وأن الإرادة البشرية التي يقويها العلم والصناعة باستمرار لنرجح كفتها على الطبيعة وقد قال ميشيليه عن الفلاندرز "أنها خلقت رغم الطبيعة "أنها نتيجة عمل الإنسان"[٢٨].

---

[٢٦] الباب لثالث، الفصل الأول -١.

[٢٧] الباب الثالث، الفصل الأول -٣.

[٢٨] الباب الثالث –الفصل الثالث -١.

ولا يعالج لوسيان فيفر مباشرة مشكلة قوة أو ضعف الظروف الطبيعية ولم يحاول أن يبحث ما أن كانت قبضة الطبيعة على الإنسان آخذه في الضعف الآن، فهل هذه مشكلة لا قيمة لها كما يقول؟ على أي حال فهي مشكلة معقدة ويتعلق جزء منها بالجغرافيا البشرية، وحلها يرتبط إلى حد كبير بدراسة السلالات البشرية، على أنه يجيب على هذا السؤال بطريق غير مباشر عندما يقول "أن الإنسان بعد أبعاد وصايته الجغرافية عليه يظهر مرة أخرى متمدينا اليوم كعامل منظم للقوى الطبيعية[٢٩]، أننا أمام عمل الإنسان وتقدير الإنسان وحركات الإنسان، أمام حركة بدء النمو البشري المستمرة، أمام الإنسان –وليس الأرض أو المناخ– الذي يحتل بؤرة الاهتمام باستمرار"[٣٠].

الإنسان هو الذي يلعب الدور الأول في مسرحية العلاقات الدائمة والوثيقة بينه وبين الطبيعة أنه يستمر في استخدام الطبيعة لأغراضه وهو في استخدامه لها، بل لأجل هذا الاستخدام، يتدخل فيها لعله يجعلها تخدم أغراضه أما الذي يؤثر فيه فقوة داخلية، قوة نعرفها جميعاً، أنها مصالحه.

أن لوسيان فيفر في كتابه العلمي الدقيق لا يؤمن أيضاً بالآلية والنهائية أن أحداً لا يستطيع أن يقبل كتفسير لتطور الحياة أنها عدلت من الخارج بواسطة عوامل آلية أو أنها تأثرت "بمؤثرات" بيئة سبق أن

---

(٢٩) الباب الأول –الفصل الثاني، والباب الثاني- الفصل الأول.
(٣٠) ما سبق.

اكتملت عناصرها، أما عن نهائيتها فعلينا أن نتذكر أين تقع أنها في ذهن الكائن الواعي (الإنسان).

وقبل كل شيء فهناك أمر هام يسبق الآلية أو النهائية، ويمكن في قرارة كل حياة واعية ذلك هو المنطق.

وربما اتفق ل. فيفر معي في تأكيد فكرة الصدفة في التاريخ، ولكن لابد من التمييز بين الصدفة المحصنة والفوضى التاريخية، والصدفة لا تهم المؤرخ من حيث علاقتها بالمنطق إلا تبعاً لاتفاقها أو تعارضها لمصالح البشر.

الرغبة في الوجود وفي تمام الوجود هي العجلة التي يدور عليها دولاب تطور الحياة والتطور البشري وهي المصلحة التي يشير إليها لوسيان فيفر والتي يراها في إرادة الإنسان المتحضر الواعية والتي يصيغها الإنسان بصيغة منطقة[٣١]، فالكائن الحي لا يحفظ فقط بما هو نافع له ولكنه يسعى جاهداً بما يكتسبه من خبرة وتجارب بإرادته المحصنة نحو تعديل ما سوف يكون ذا نفع له، فالحيوانات –كما يقول بيرييه– كانت عوامل نشيطة في عملية تطورها[٣٢] وقد بولغ في أثر التنافس والصراع في سبيل البقاء ولكن هذا التنافس نفسه وسيلة من وسائل التعبير عن إرادة الحياة، بل أن الحيوان لينشط نشاطاً كبيراً إذا وضعت البيئة أمامه عقبات كي يتغلب عليها ويصارع من أجل بقائه، وقد استطاع هذا الكائن

[٣١] الباب الرابع، الفصل الأول عن النهائية Finalism انظر أدناه الباب الثاني- الفصل الأول 50، الثاني–1.

[٣٢] انظر La Synthese en Histoire p.155.

العضوي أن يتغلب على عقبات البيئة وصعابها وأصبح "صانع الكائنات العضوية المتطورة وبذلك جدد نفسه نتيجة لمجهوداته المستمرة"[٣٣]، وعلينا ألا ننسى أن الحيوان حتى قبل أن يتلاءم مع البيئة قد تعلم الاستفادة من صفاته الجديدة المكتسبة أو بعبارة أخرى بمجرد اكتساب عادات جديدة تؤثر في جهازه العصبي، وبهذا يستطيع أن يستخلص من كيانه العضوي أكبر فائدة ممكنة، فهنا قد بدأ الحيوان في هذه الحالة في التلاؤم مع البيئة دون إرادته ولكنه انتهى باستخدام تلك الإرادة في عملية الملائمة[٣٤]، هناك سببية جديدة تتدخل في الموضوع هذه العلة هي البيئة الداخلية (أي الكائن الحي نفسه) التي تتفاعل أعضاؤها بعضها بالبعض الآخر من الناحية البيولوجية والنفسية وهكذا نستطيع أن نحرر بالإنسانية مرة بعد أخرى من ربقة الحتمية والعلة الميكانيكية التي تتمثل في البيئة الخارجية.

هذا الكتاب إذن يتفق تماماً مع ما سبقه، الذي كتبه أدموند بيرييه والذي يوضح تقدم الحياة وانتصارها واستقلال الطابع البشري عنها، وينسجم أيضاً مع كتاب جاك مورجان وج. فندريس الذي يوضح نتائج اكتشافات الإنسان التي حررته من ربقة الحيوانات، اكتشافات اللغة والصناعة.

ولا ريب أن لوسيان فيفر يهتم اهتماماً خاصاً بمشاكل أرقى وهي مشاكل الجغرافيا البشرية تلك المشاكل التي تثيرها المجتمعات

---

[٣٣] Perrier, p.144, 192.

[٣٤] نفس المرجع ص190 .

المتحضرة، ولكنه يحدد تحديداً دقيقاً مجال الجغرافي التاريخي الصحيح أو الجغرافي البشري الذي يغامر فيما قبل التاريخ، وهذا المجال هو "العلاقة بين المجتمعات البشرية القديمة في فترات مختلفة في مختلف الأقاليم في العالم وبين ظروف البيئة الجغرافية بقدر ما يسع الباحث[٣٥]، وهذا الكتاب غني بالآراء والمقترحات عن مدى تأثير ظروف البيئة الجغرافية المتغيرة في النشاط البشري، وعن إمكانيات البيئات المختلفة وعلاقتها بالنشاط البشري[٣٦]، فهو يذكرنا أن الهجرات البشرية الكبرى ليست نتيجة تغير السطح أو المناخ فحسب وسوف نشير مرة أخرى إلى[٣٧] الهجرات البشرية وهي مثل الاستقرار البشري في الأوطان المختلفة تميل بالإنسان إلى تلك البيئات الجديدة التي وجد نفسه منساقاً إليها، مثل روبنصون كروزو في جزيرته منتظراً ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يستغل كل بقعة من الوطن الأكبر – الأرض.

وهكذا يتحول كتابنا –وهو كتاب علمي محض– بطريقة موضوعية صرفة إلى ملحمة من الملاحم "ملحمة الزمن" البطل فيها هو الإنسان الذي يتحول تدريجياً إلى سيد للطبيعة، وسيظل يؤكد تلك السيادة حتى يستطيع أن يستغل موارده التي خلقها أحسن استغلال، ومتى تتكون لديه فكرة أرقى للمدنية.

---

[٣٥] نفس المرجع السابق ص١٣٢.

[٣٦] Dechelette maunel d’acheologie prehistorique, Brunhes & vallaux, ap. ut, p.28ذكره.

[٣٧] الجزء الخامس من L’ Evolution de L’ Humanite.

أن الإنسانية تحرر من ربقة البيئة الطبيعية عن طريق النشاط الداخلي أو المنطق، الفكرة التي يكونها الناس لأنفسهم عن بيئاتهم والفكرة التي تدفعهم إلى تعديلها تلعب دوراً كبيراً لا يمكن أن نبالغ في أهميته، وهي أيضاً تتحرر من ربقة البيئة الطبيعية عن طريق عامل البيئة الطبيعية.

وهنا نلمس مسألة لم نتعرض لها قاصدين حتى الآن، لقد تحدثنا عن علاقات البيئة الطبيعية "بالإنسان والإنسانية" أما لوسيان فيفر فيرى أن ليس للجغرافية شأن بالإنسان بل بالمجتمعات أو الجماعات البشرية.

فبعد أن وصف الصراع القديم بين الجغرافيين والاجتماعيين في مناقشة منهجية وبعد أن دافع عن الروح الجغرافية وخلص بها من إدعاءات علم الاجتماع ونقده احتفظ بأحسن ما لدي الاجتماعي وأكد أهمية العامل الاجتماعي في دراسة الحياة بوجه عام ودراسة البشرية بوجه خاص.

ونستطيع أن نؤكد له أن الجغرافية تبحث في نظم الطبيعة وفي مجموعات في الغطاء النباتي وفي أسرات الحيوان وفي المجتمعات الإنسانية، "فالإنسان" تجريد نظري غامض "والإنسانية" تعبير فضفاض والدولة ليست إلا مظهراً واحداً من مظاهر المجتمع، ولا تظهر لنا علاقات الأرض بالإنسان إلا بطريقة جماعية، من جانب الإحياء من ناحية ومن جانب تفاعل جماعات بشرية على البيئة من ناحية أخرى، وهذا صحيح من وجهة نظر الجغرافيا البشرية، أما من وجهة نظر التكامل

التاريخي فهناك تحفظات يجب أن توضع وتعريفات يجب أن تلاحظ، فليس معنى اهتمام الجغرافي بالمجموعات فحسب أن المجتمع –كما يرى الاجتماعيون– هو مفتاح التاريخ، وعلينا قبل كل شيء أن نعرف المجتمع ونحدد ما نعني بالعامل الاجتماعي.

ينفي فيفر (لوسيان) مع ادوارد ماير نظرية نشوء الدولة من الأسرة بطريقة مجرد إضافة أسرة إلى أسرة النظرية التي تقول أن الرجل مضاف إلى المرأة مضافاً إلى الأنجال تساوي أسرة، وأن أسرة مضافاً إليها الأسرات تساوي قبيلة مضافاً إليها قبيلة أو قبائل تساوي شعباً، وأن مجموعة من الناس أتحدت تكون أمة كبيرة، وأن هذه النتيجة النهائية تجمعت عن مجرد التكاثر والتناسل[٣٨]، أن هذا في رأي لوسيان فيفر كمن يقيم البناء مبتدئاً من السقف، فالواقع أن التكوين الشرعي للأسرة ليس إلا نتيجة وجود مجموعة أكبر من الناس في ظل نظام اجتماعي وسياسي معين.

وما هو "المجتمع البدائي" وما كنه المجموعات البشرية التي كانت تسكن في الدور البدائي للبشرية؟ أن فيفر يرنو إلى أبواب المدنية عندما يقول "لقد انتشرت مجموعات كبيرة من البشر وغطت مساحات واسعة من الأرضحاملة إليها حضارة واحدة[٣٩]، أنه يوافق إدوارد ماير ويطلق على هذه المجموعات اسم الدول ويوافق جوليان وميشيليه مرة وأخرى ويدعوها أمما، ونرى أنه إذا كان هذان التعبيران صالحين للاستعمال في

[٣٨] الباب الثالث – الفصل الرابع – ١.

[٣٩] الهامش السابق، والباب الثاني – الفصل الثالث.

الجغرافية البشرية دون تحديد دقيق، فإنهما يجب أن ينتظرا ما سيكتب في الجنس وفي كتاب من القبيلة إلى الإمبراطورية في هذه السلسلة.

يجب أن نفرق بين الدولة كدولة متمدينة وبينها كدولة اجتماعية، فالوحدة في المدنية ليس معناها الوحدة السياسية، بل لا يعني أيضاً نظاماً اجتماعياً محدداً تحديداً تاماً، إن ما قبل التاريخ يظهر لنا الاجتماعات متشابهة بين الناس أكثر منهم مجتمعات من الناس، ويلعب هنا العنصر أو السلالة أو التقليد –تقليد العادات والخلاق– والمنطق دوراً رئيسياً فالاختراعات البدائية رغم أنها ظهرت في أماكن مختلفة انتقلت وانتشرت بسرعة بين الناس، واختلفت درجة سرعة انتشارها باختلاف شدة الحاجة إليها، وإذا لم تنطبق معالم الإنسانية تطابقاً تاماً فإنها على الأقل تشابهت تشابهاً كبيراً، حيث أن الناس كانوا أقل مقدرة على الإفادة من إمكانيات بيئاتهم المختلفة كما أن البيئات نفسها كانت متشابهة[٤٠].

إن النمو الاجتماعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً باستغلال الأرض، وتاريخ هذا الاستغلال ليس في واقع المر تاريخ الأمم أصلاً، بل تاريخ مجتمعات كبرى، تاريخ مجموعات من البشر (ولا اعتراض على هذا لتعبير الذي يكثر فيفر من استعماله) تجانست بالتشابه الوراثي أو التشابه التقليدي وتشابه حاجاتها الأصلية وعلاقاتها بالبيئة الطبيعية، فهذه الجماعات التي تنتشر فيها روح اجتماعية تتبلور فيها نواة مجتمع جديد، والمجتمعات تتكون إذا توفر فيها نظام معين يعمل على إبقائها وهكذا

---

[٤٠] ما سبق الإشارة إليه.

يتسع مجال هذه المجتمعات وتزداد نمواً[٤١]، وقد لاحظنا أنها تنمو نتيجة الصراع من أجل البقاء من ناحية ونتيجة الاتحاد من ناحية أخرى ويظهر اهتمام المجتمعات بنفسها وحبها لذاتها في ازدياد قوتها وازديادها في العدد، وهي تعبر عن نشاطها في استغلال الأرض بميلها للتوسع.

هذه الملاحظات تحفظ للفرد قيمته وتؤكد أهمية الإنسان –كعامل له أثره ودوره– في العلاقة بين الفرد والمجتمع، وأهميته في استغلال البيئة الطبيعية، كما تساعد على تعيين دور كل من الفرد والمجتمع من هذا النشاط بدقة.

وبين فيفر بدقة كبيرة أن المجتمع يتدخل بما يفرضه من تقاليد ومعتقدات وأساليب حياة بين الإنسان والبيئة، وهذه جميعاً تحول بين استغلال الإنسانلإمكانيات البيئة استغلالاً حراً، ويضرب مثلاً لذلك أساليب المجتمعات في اختيار الطعام "فجميع القبائل البدائية ذات عادات خاصة في اختيار الطعام[٤٢]، وهناك أنواع محرمة من الطعام، وقيود خاصة بشأنه[٤٣] وربما لم تنشأ هذه القيود مرة واحدة، وربما لم تكن أيضاً شديدة الوطأة في باديء الأمر.

---

[٤١] لقد كان من الضروري في الأزمنة القديمة أن تكون الجماعات البشرية من القوة بحق تستطيع أن تدافع عن كيانها ضد أي اعتداء خارجي، ولكي تستطيع أن تحمي ذمارها وأوطانها وممتلكاتها وقطعانها، وأن تحيى حيث المرعى الخصيب والماء الوفير في كل الفصول **Gsell, Histoire ancienne de L'Afrique du, Nord, Vol. I p.241.**

[٤٢] مع شيء من التحفظ، وسيظهر فيما بعد أن هذا ينطبق على هذه الشعوب البدائية.

[٤٣] الباب الثاني – الفصل الثاني – ٣.

فقد كانت القبائل البدائية متجانسة تجانساً كبيراً ولكن نظراً للفروق الفردية بين الجنسين من ناحية وبين أفراد القبيلة الواحدة طبقاً لاختلاف العمر من ناحية أخرى بدأت تلك القيود في الظهور، ثم اتخذت طابعاً اجتماعياً شمل القبيلة كلها ودخل في صلب نظامها وهكذا بدأت حياة القبيلة تتخذ شكلاً خاصاً وبدأ المجتمع ينتظم في نظام معين، وهكذا كان الإنسان أو منطقه العامل الأول في تكوين المجتمعات"(٤٤).

ولا يمكن أن يضحي لوسيان فيفر بالروح التاريخية في هذا البحث وهو الذي دافع عن "الروح الجغرافية" أمام الاجتماعيين فهو يدرك الحقيقة إدراكاً كاملاً يجعله لا يبخس الفرد حقه من التقدير، وهو يعلم تماماً "مجهود ومثابرة" هذه الكائنات التي وجدت "وقد وهبها الله العقل وقوة التفكير" أنه يقدر مجهود الإنسان مفرداً أو مجتمعات على هذه الأرض(٤٥)، فهويعلم تماماً أن "النشاط التلقائي" و"الذكاء الخالق" وقوة الإرادة التي يبديها الإنسان ويجاهد بها قوى البيئة الغامضة حتى تتلاءم مع حاجاته ومطالبه "هي التي انتهت في النهاية بظهور الدول، وهي تنتمي إلى الأفراد".

المجتمع لا يفكر ولكن الأفراد هم الذين يفكرون(٤٦)، ويبين فيفر الفرق بين البيئة الاجتماعية للمجتمعات وبين الأفراد أنفسهم الذي يكونونها وكتابه صادق في جميع هذه النقط ويحتوي على حقائق

---

(٤٤) انظر مقدمة كتاب دي مورجان وفندريس.
(٤٥) الباب الأول – الفصل الثاني ١ قارن الفصل الفصل٦، الباب الثالث الفصل الثاني٦.
(٤٦) ص٣٣٧.

مفيدة[٤٧] ولا نحتاج أن نقيم معركة حول الألفاظ ولكننا بحاجة إلى إبراز أهمية الجماعات في الجغرافيا البشريةفيما يختص بالطعام والكساء ووسائل الحياة "فهذا العامل ليس طبيعياً وليس شخصياً ولكنه اجتماعي وجماعي، ليس الرجل ونعود نكرر ليس الفرد بل المجتمع والجماعة المنظمة"[٤٨].

ها قد رأينا عالماً ذاخراً بالأفكار تتجاذب في هذا الكتاب، الذي يتسم بالموضوعية وبالطابع الشخصي، وهو كتاب مشوق مثير للاهتمام ولاسيما بما أبداه فيفر من الحماس لأساتذته الذين كانوا مصدر معرفة ومصدر وحي لآرائه، أمثال فيدال وراوه وميشيليه الذي يقول عنه أنه كان متمتعاً بحاسة عجيبة نحو الحقيقة "يفهم كل شيء ويقدس كل شيء"[٤٩]، فهذا كتاب جمع بين توقد الذكاء عند ميشليه وحماسته نحو المعرفة وشوقه إلى الحقيقة وفهمه الدقيق لدقائق الحياة المعقدة وبين جمعه للحقائق الثابتة وإخضاعه لها للعقل الناقد وبحثه عن التفاصيل التي قد يغفلها ميشيليه.

أنه أخيراً كتاب فريد في حد ذاته في الوقت الذي كتب فيه، فلقد كلفنا لوسيان فيفر منذ عشر سنوات بوضع هذا الكتاب فاشفق على نفسه من هذه الأمانة ولكنه قبل مسروراً القيام بعبئها، ولم يعفه عن ذلك قيام الحرب العالمية الأولى التي لعب فيها دوره كاملاً، وانشغاله بتنظيم

---

[٤٧] انظر بصفة خاصة ص٣٣٧.
[٤٨] ص١٦٥.
[٤٩] المقدمة.

جامعة ستراسبورج وأخيراً بعد مجهود شاق طويل أصاب هدفه، فنحن ندين له كما يدين معنا جمهور المشتغلين بالعلم بعرفان الجميل.

هنري بر

ملحوظة للمؤلف (**مقدمة طبعة ١٩٢٢**)

لعلهمن المقيد أن نخبر القاريء أن خطة هذا الكتاب جميعاً قد وضعت عام ١٩١٣/١٩١٢ أي أكثر من عشر سنوات وكان يجب أن يظهر هذا الكتاب سنة ١٩١٥ وعند قيام الحرب كنا قد انتهينا من وضع المقدمة والباب الأول.

ثم استأنفنا العمل فيه في خريف عام ١٩١٩ أي بعد خمسة أعوام كاملة فاضطررنا إلى تعديل الخطة كلها حتى نستفيد من تقدم العلم والبحث الحديث ولعلنا قد استطعنا أن نبرر موقفنا.

وأود أن أتقدم بالشكر للأستاذ باتاليون الذي أمد المؤلف بمقترحاته المفيدة وملاحظاته على البابين الثاني والثالث وعلى الفصل الثاني من الباب الرابع.

ملحوظة للمؤلف – طبعة ١٩٢٤.

نود أن نشير إلى الأثر الذي تركه هذا الكتاب في مختلف الدوائر العلمية والأدبية ومن أهم من علق عليه الأستاذ مارك بلوش في المجلة التاريخية وهنري هاوزر في المجلة النقدية، ولا يزال ديمانجون (في

الحولية الجغرافية) وكاميل فالو (في مجلة الجغرافيا ومجلة Mercuede France) ولبتا كونو (في مجلة التاريخ الحديث ومجلة علم النفس) وميليه (في المجلة اللغوية بباريس) وس. رايناخ (في المجلة الأثرية) وبرمان (في مجلة نيوشاتل الجغرافية) وبرجاميني (في المجلة للجغرافيا البلجيكية) وغيرهم يكتبون الفصول الطوال والقصار عن هذا الكتاب.

وقد لقى الكتاب كثيراً من الاقتراحات ومن أهمها مشكلة الجغرافيا البشرية في Synthese Historique الجزء ٣٥، وإن ما يؤديه الكاتب لهذه الجهود جميعاً –في نقده وعرضه– هو أن يستنير الكاتب بهذه الاقتراحات ويصلح من أخطائه التي بدت في تلك الاعتراضات.

مشكلة المؤثرات الجغرافية

مقدمة:

هناك مشكلتان ، لا نقول مشكلتين كبيرتين لأن هذا معناه أن يكون لدينا مجموعة معينة من الحقائق الثابتة ومقدمات يقينية نفتقدها في الوقت الحاضر، ولكنهما مجموعتان كبيرتان من المسائل المتداخلة الغير محددة والتي تواجه كل من له اهتمام بالتاريخ، وسنحاول أن نشرح المشكلة الثانية ولكن كيف نبدأ؟ كيف نستطيع أن نجمل المشكلة الجغرافية في مجلد واحد، وهما ذات أصول وفروع متشبعة؟ إذن لابد لنا من إيضاحها بكل جلاء، فما هي بأمر سطحي غامض.

أننا سنحاول في هذا الحيز المحدود بحث مسألة العلاقة بين الأرض والجماعات البشرية والعلاقة بين تلك الجماعات البشرية والأرض، وسنزيد من صعوبة المسألة بإدخال عنصر الزمان، وبأن نسأل أنفسنا ما هي أحوال الجغرافية التي أثرت في سير التاريخ؟ ما هي الأحوال التي تؤثر بها رقعة "المعمورة"[٥٠]، وكما عرفها همبولدت وراتزل –مقدماً من جهاتها المختلفة ودولها المتباينة، وإن اقتصر الآن على الوصول إلى نتائج إيجابية ووضع قوانين حتمية، أليس معنى هذا أنها

---

[٥٠] المعمورة: هو الجزء المكون من الكرة الأرضية فقط، مجال النشاط البشري بطبيعة الحال وليس بخاف أن هذا الجزء المعمور بالبشر– أو بعبارة أصح محملة لواء المدنية والحضارة اتسعت رقعته وتغيرت مراكز ثقله خلال العصور التاريخية– هذا التعبير والذي يشار إليه بكلمة Oecumene التي استعملها رانزل في كتبه (المعرب).

محاولة جريئة خيالية لا تتفق والمنطق؟ أليس الأجدر بنا أن نوضح الآن منذ البداءة أننا لا نقدم سوى محاولة طرق السبيل القديم، سبيل الباحث الناقد للمشكلة فحسب.

١) مقدمة تاريخية "تاريخ المشكلة وتراثها الأدبي":

إن موضوع هذا البحث ليس بجديد فقد سبقنا فيه الكتاب والمفكرون من قبل من زمن بعيد، فالمشكلة الجغرافية وأثرها في التاريخ قديمة جداً، ولا نحتاج إلى أن نذكر القاريء بكتابات هيبوقراط "عن الأجواء والمياه والأقطار[٥١]، "وعن المفارقات التي وضحها هذا الكاتب المعاصر لسقراط بين سكان الأقاليم الجبلية المعرضة للأمطار والرياح العاتية –السكان الطوال القامة الذين فيهم دماثة ولكنهم في نفس الوقت شجعان– وبين سكان الأقاليم السهلة المكشوفة الجافة المعرضة لأنواع قاسية من المناخ– وهؤلاء عنصر نحيل رشيق القوام مائل للشقرة عن السمرة، وفيهم طبيعة السيادة والأمارة؟ هيبوقراط هذا هو الرائد الأول لسلسلة كبيرة من المفكرين في هذا الموضوع فهناك مجموعة الكتاب القدماء[٥٢] مثل أفلاطون في الكتاب الخامس[٥٣] من القوانين وأرسطو في كتابيه الرابع والسابع من السياسة – وجالينوس الطبيب الذي اقتفى أثر هيبوقراط في تفكيره وبولبياس وبطليموس مؤلف Astrologicis de Judiciie وغيرهم من الكتاب اللاتين ومفكريهم وفلاسفتهم وعلمائهم

---

(٥١) Littre, paris, 1840, Vol. II, 90

(٥٢) Heiberg, xxxv

(٥٣) BK. II, Chap. 1

وشعرائهم مثل Lucretius لوكريتيوس في الكتاب السادس من De Natura Rerum ثم تأتي مجموعة الكتاب المحدثين الذين اعتنقوا أولاً آراء القدماء ثم شرحوها وأضافوا إليها نتائجهم الحتمية الغير ثابتة على تجاربهم الجديدة فهناك مثلا بودان Bodin في جمهوريته، الذي يحاول أن يشرح في الفصل الأول من كتابه الخامس –الذي سنعود إليه فيما بعد[٥٤]– ويبين البيئات الكبيرة التي تعيش فيها الجماعات البشرية – شرقية وغربية، سهول وجبال ووديان– أرض جرداء أو أرض خصبة– أماكن معرضة للرياح أو محمية منها، إلا أن هذه المؤثرات الجغرافية لم تكن صارمة أو استبدادية في توجيهها للبشر كمؤثرات جغرافية أساسية، فبودان كان واضح الذهن من ناحية عدم نضج الفكرة الحتمية أو القدرية الجغرافية[٥٥]، إذ لم يكن على استعداد لتقدير القوة البشرية أو الإرادة الإلهية ولكنه كان يمتلك ناحية الجدل المنطقي في توضيح رأيه فقد علم أنه يوجد في نفس الإقليم وبين نفس السكان من له تجارب مختلفة، ومن له آفاق متباينة عن آفاق مواطنيه، وأن نفس الشعب قد يمر في أحوال مختلفة من الرقي والانحطاط وفي عصور متباينة بين الازدهار والاضمحلال دون أن تتغير الأحوال الطبيعية، كما أنه بين بالتجارب كيف أن "اختلاف الطعام والعرف السائد والتقاليد لها القوة على تغيير الطبيعة البشرية"[٥٦]، ثم يلاحظ في جلاء تام (وهذا بعد أن بين أثر المكان والمناخ) "أننا نرى أيضاً كيف أن التربية تستطيع أن تغير القانون الطبيعي

---

[٥٤] Bodin, II, Ch. 1

[٥٥] Chauvire XXXVII, p. 349 seq

[٥٦] Bodin XXXVI, V,I, p.485.

للبشر بينما نحن نرفض رأي بولبيوس وجالينوس القائل أن طبيعة الإقليم تؤثر بالضرورة في عادات سكانه"(٥٧)، وهذا يبين حكمة هذا الرائد وحسن تدبيرها الذي كان وقاء له ضد التمادي في نشوة الحتمية التي سكر بها أتباعه.

بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان –ونحن لا نذكر إلا الهام من الكتاب– نجد أن الأب ديبو Abbe Dubos مؤلف خواطر ناقدة للشعر والتصوير (١٧١٩) Reflexions critiques Sur la poesie et la peinture أن بودان الذي أسس جمهورية على غرار جمهورية أفلاطون قد أدرك بصفة خاصة أثر البيئة الطبيعية في حياة البشر تاسيتسية، أما الأب ديبو من جانبه فقد عالج مشكلة أكثر تحديداً وهي "هل البيئة دائماً تغلب الوراثة(٥٨)، وهو يشرح ذلك عندما يدرس أثر الجو في الجسم البشري كما يتضح من أخلاق الشعوب، وكما يتضح أيضاً باستعراض أنواع المناخ الأكثر مناسبة للعلوم والفنون، ولاشك أن برونتيير Bronetiere كان على صواب في دراسته لتطور النقد عندما لفت نظر جمهور المثقفين مرة ثانية لكتابة هذا الرائد(٥٩)، وأهميتها لمدرسة نقاد تاريخ الآداب والفنون العملية ولكن ديبو كان صدى لآراء بودان كان حلقة في سلسلة طويلة.

---

(٥٧) Bodin XXXVI, V,I, p. 464

(٥٨) Braunschvig, XXXIX, Chap. III, passim.

(٥٩) Brunetiere, LI p. 144.

أما كتاب مونتسكيه فهو من قبيل آخر، وسنحاول أن نفحصه بإمعان فيما بعد[٦٠] وإذا كان كتاب الأب ديبو قد قصر اهتمامه على المناخ فحسب فأن مونتسكييه مثل بودان اهتم أيضاً بالسكان، وإذا كان قد أفرد أربعة كتب من روح القوانين Esprit des lois (وهي الكتب ١٤–١٧) لدراسة القوانين بصفة عامة "ثم العبودية المدنية والخدمة اليدوية وخدمة الدولة" وعلاقتها بالمناخ فإنه يرينا أيضاً في الكتاب الثامن عشر "كيف أن طبيعة الإقليم تؤثر في هذه القوانين" هذا من ناحية – ومن ناحية أخرى فإنه لم يحاول أن يفسر مشكلة أدبية– كما حاول بودان حل مشكلة قانونية وسياسية ذات نطاق أوسع ولكنها أقل طموحاً في نتائجها وأخيراً (وهذا أمر يحتاج لتعليق) فإن الروح العلمية هي التي أملت على مونتسكييه– الذي أسس جائزة لعلم التشريح في أكاديمية بوردو العلمية ١٧١٦ والذي كتب في مشاكل الطيران وشغل نفسه فيما بين ١٧١٧–١٧٢٣ على الترتيب بالطب والطبيعة والتاريخ الطبيعي[٦١]– أن يعالج مشكلة البيئة الطبيعية الكبرى في مجموعها ككل وأن يحلها على ضوء حتمية صارمة، ولكن يالها من طريقة بحث مليئة بالسراب.

كثير من معاصرينا يبحث جاهداً في شيء من السذاجة عن عبارات وردت في بعض المؤلفات الأدبية القديمة أو الحديثة تثبت بعض آثار حتمية ويبحث عن بعض أحوال جغرافية تؤثر على البشر والمجتمع

[٦٠] part II, chap. I.

[٦١] Dedieu, Montesquieu, paris, 1913, in-8- p6-9.

الإنساني، ولاشك أن المجال الذي تقاسمه كل من بودان وديبو كان مجزياً، فهناك بعض الأمثلة:

كورني في سينا (الفصل الثاني – المشهد الثاني):

"فلتسمح لي يا مولاي أن أقول أن جميع الممالك جميعها تختلف في تلائمها مع الأجواء المختلفة".

وهناك مالبرانش Malebrache في "البحث عن الحقيقة" Recherche de la verite الذي يقول في الفصل المعنون "أن الهواء الذي نستنشقه بسبب تغييراً ما في عقولنا، وعندنا بواليو Boileau فيا الفن الشعري (Art poetique (cante III, v. 114.

غالباً ما ينتج المناخ أمزجة مختلفة:

وأكثر من هذا ما نجده في كتابات لا بروييرر La Bruyere وبونور Bonhours[٦٢]وكتابات فونتينيل وخطابات للأكاديمية لفينيلون Fenelon[٦٣]كل هذه الشذرات[٦٤] جمعت من كتابات الكتاب كما لو كانت دليلاً قاطعاً على قضية مفروغ منها، أو كما لو كانت القول الفصل على لسان موهوب، وإن هي في رأينا إلا وميض برق في ظلمة ليل بهيم، إلا أن عدد هذه الشذرات وندرتها جدير بها أن تقودنا إلى نتائج غير تلك التي يراد لنا أن نعتنقها، وإذا أردنا أن نتعقب مصادر هذه الملاحظات الشاردة في مؤلفات الكتاب، فإذا نجدها في تلك التقاويم والموسوعات التي تضم بين ضفتيها كثيراً من حكم الأولين، ولنبدأ بأول هذه التقاويم Calendrier des Bergers الذي ورد فيه، هناك بعض الدعاة الذين يقولون "أن الإنسان نفسه عبارة عن عالم صغير وذلك بسبب ما يحمله من تشابه مع العالم الكبير" وليس في هذا القول تحديد أو ابتكار، غير أنه خالي من أي روح عليه، وهكذا أيضاً آراء الكتاب الأدباء عن المناخ التي تنتمي إلى نفس المصدر المعتمد على الإلهام، وليس على المنطق، أنها تعود بناء إلى عصور الكهانة الأولى التي كانت تربط مصائر البشر بحركات الأفلاك[٦٥]، ومسالك الكواكب وإلى أجيال كانت تربط بين أجزاء الجسم وتلك الأفلاك، وإلى تلك الأجيال التي

---

[٦٢] Caracteres, Ch. II “Du Coeure”, Rebelliau, p. 120.

[٦٣] المحاورة الرابعة في Entreheis d’ Artiste at d’ Eugene

[٦٤] Oeys de’la Haye 1726, vol. II p. 126.

[٦٥] Cumout (Fr.) ni the Revue Archéologique, 1916, L’ Homme astrologique des très Riches Hures.

كانت تربط بين أمزجة البشر وبين أمزجة الكواكب السيارة كالمريخ وعطارد وزحل فلا عجب إذن إذا لم تتردد في الربط بين نوع من أنواع المناخ وطبع من طباع البشر في قطر من الأقطار بل أنها تقرر الدور الذي يجب أن يلعبه قطر من الأقطار في التاريخ من نوع مناخه أو بعبارة واحدة "الدور الذي كتب على الإقليم أني قوم به".

ولم تكن المسألة تحتاج حتى لوضح فرض، كما توحي بذلك نظرة خاطئة على عناوين فصول كتاب بودان وكيف السبيل للتوفق بين آرائه وبين تصورنا للأحوال الجغرافية التي لم يعرفها بودان حينذاك، عندما كانت فكرة الجغرافيا نفسها في ضمير الغيب، وعندما كانت الفكرة العقلية القديمة لا تزال راسبة في الأذهان.

وقد فصل بودان المنطقة الحارة عن الباردة عن المعتدلة، ثم قسم الجماعات البشرية على هذه المناطق الثلاث، ولاحظ أثر العوامل الطبيعية، ولاسيما المناخية على الجماعات البشرية،و لكنه عندما وصل إلى هذا الحد أسرع قائلاً "ومن يدخل في الاعتبار طبائع الكواكب سيجد –على ما أرى أن مواقعها تنفق وتلك المواقع في الأقاليم المناخية، فأبعدها شقة زحل يرتبط بالمنطقة الجنوبية وعطارد بالوسطى والمريخ بالشمالية، وهكذا يبدأ من الكواكب ثم يستنتج آثارها في مزاج البشر وطباعهم ثم يؤسس ملائمة هذا النظام الكوني لجسم الإنسان أو "الإنسان صورة الكون بأجمعه"[٦٦] ربما قلنا أن هذه أضغاث أحلام أو

---

[٦٦] Bodin, XXXVI, pp. 880-1

ترهات ترجع إلى العصر الذي كان يعيش فيه ولكننا نستطيع أن نلتقط من أرائه الخاصة وملاحظاته العلمية أو على الأقل المعقولة[٦٧]، ولكن هل هذا ممكن؟ وهل هناك تلك الشقة الكبيرة بين آرائه وملاحظاته ومعتقدات عصره الذي كان يعيش فيه؟ وهل لم تكن "أحلام" بودان الفلكية مسئولة مباشرة عن بعض آراؤه عن أثر المناخ بالنسبة إلى حقيقة تنتمي إلى نوع الحقائق الغامضة الغريبة التي تنتمي إلى الفلك القديم أو بعبارة أوضح أثراً سرباً من آثار الكواكب والأفلاك؟.

ملاحظتنا هذه ليست سطحية فالناس الذين ينسبون إلى أشعار كورمني و بويليو صبغة علمية يرتكبون خطأ فما هي إلا بقايا آراء قديمة ترجع إلى خزعبلات القرون الوسطى، ولكن المهم أن كاتباً مثل بودان أو مونتسكييه بالرغم من قوتها الذهنية الخارقة وبالرغم من أن الثاني نشأ بين قرنين من البحث العلمي الذي كان جديراً به أن يدفعه عن المستوى الأول، إن كاتباً مثل هذين كان متأثراً بالآراء القديمة، ولاسيما بودان، أما مونتسيكييه الذي أدهشهبل وأغضبه هذا الاتهام فإنه قبل آراء سلفه قبولاً سلبياً، وربما نجح في وضعها في قالب يقبله العقل الحديث ولكنه فشل في تحليل فكرة "الأثر" فقد سلكته عجلة الزمن في ركبها ولم يجد منها فراراً.

والدليل على ذلك كتابة بوفون Buffon، فبينما كان مونتسكييه هاوياً في البحث العلمي، وإلى حد ما مؤمناً بالعلم فأن بوفون كان رجلاً

---

[٦٧] Chanvire, XXXVII, 349

عملياً، أي عالم عملي، ولنحاول شرح الفرق بينهما، فقد كان مونتسكييه كثير الاعتماد على الأب ديبو، كما أنه كان يحاول أن يحرر نفسه من المبالغة وعدم الدقة، "أني لا أثق بالتفسير، لعدم الدقة التي يعتمد عليها هذا العلم، واضطرار المرء إلى الحدس والتخمين، ولكن الحقائق التي أوردها ثابتة" وهذا مظهر من مظاهر الحكمة تخفي تحتها تقاليد قديمة تحت ستار من البحث العلمي، أما بوفون فلم يرد ذكره في كتابات مونتسكييه الذي يحاول أن يحييه وما هو بحاجة إلى الأحياء فما هو بميت إنما هو دائماً حي على الدوام.

أن رأي بوفون هو الرأي الحديث، فما هناك "آثار" بشرية للجغرافية، آثار غامضة كما كان يعتنقها الأثريون، فالإنسان عند بوفون لم يعد نوعاً من الصلصال تشكله البيئة في القالب الذي تشاء أنه فاعل أنه أحد قوى الطبيعة ذاتها، منذ ما يقرب من ثلاثين قرناً تكاتفت قوى الإنسان مع قوى الطبيعة وشملت معظم أرجاء الكرة الأرضية فإلى قوته العقلية يرجع الفضل في استئناس الحيوان وجعله طوع بنائه، وبمجهوده جففت مساحات شاسعة من المستنقعات، وهذبت مجاري الأنهار وأزيلت الغابات، واستصلحت البراري ... إن وجه الأرض يحمل آثار قوة الإنسان التي وأن كانت أضعف من قوة الطبيعة إلا أنها أبقى منها أثراً وأبعد مدى أو على الأقل ساعدتها على القيام بمهمتها على الوجه الأكمل، ونحن لا نشك لحظة في اعتماد الإنسان على قوى الطبيعة، والواقع أنه –بسبب ذكائه وسعة حيلته– أكثر الأحياء اعتماداً على قوى الطبيعة، أليس هو الكائن الوحيد الذي تمكنه طبيعته التي بلغت حداً

كبيراً من القوة ومن الاتساع والمرونة بحيث تتكاثر وتتلاءم مع أنواع المناخ المختلفة ... أن معظم الحيوانات محدودة المجال بأنواع معينة من المناخ، بل وبأقطار بعينها فضلاً عن أنها لا تستطيع التكاثر كيفما شاءت، فالحيوانات من وجوه عديدة من نتاج هذه الأرض، أما الإنسان فقد صنعته السماء"[٦٨]، وإذا تركنا السماء جانباً (وسوف لا يعارض بفون في هذا) فإن الفكرة الحديثة فكرة الإنسان كعامل من عوامل الطبيعة قد بدأها فيدال دي لابلاش في سلسلة مقالاته عن أساليب الحياة[٦٩] Genres de vie على غرار آراء بوفون وليس آراء مونتسكييه –على غرار بوفون الذي حاول أن يبين كيف يستطيع الإنسان أن يؤثر في المناخ (ولو أنها كانت محاولة فاشلة) ألا أننا نعجب لأنه حرر الإنسان من رتقة البيئة، أنه ثائر عليها ومبتدع لرأي مخالف لرأي البيئتين تماماً، فالأرض مهيئة معدلة مستأنسة بجهود الإنسان.

ومن المهم جداً أن نعرف كيف بحث الباحثون في هذه المسألة، إذ ربما عثرنا على بعض الأسباب الرئيسية التي وقفت حجر عثرة في سبيل تقدمهم العلمي، إلا أننا لا نريد أن نكتب تاريخاً كاملاً للمشكلة الجغرافية فهذا يحتاج لكتاب مستقل ليس من السهل كتابته؛ لأنه يواجه ثلاثة مشاكل في آن واحد، الأولى علمية إذا أن نشأة الجغرافيا الحديثة كانت في كتابات العلماء الطبيعيين والرحالة همبولدت Humboldt ورتشهوفين Richtofen وراتزل Ratzel ودور هؤلاء في تأسيس علم

---

(٦٨) Branschvig, XXXIX, Chap. III

(٦٩) بوفون (٤٢) ص٨٧.

الجغرافيا الحديثة معروف، والمشكلة الثانية سياسية بأوسع معاني الكلمة وهنا سنقابل الخلاصة من المفكرين والفلاسفة أتباع مونتسكييه والثالثةتاريخية، فقبل أن يوجد الجغرافيين، اضطر المؤرخون بحكم عملهم أن يحلوا بعض المشاكل ذات الصبغة الجغرافية.

فبينما كان أوجستين ثييري Augustin Thierry قد انتهى من تلخيصه لتاريخ فرنسا إلى صراع بين عنصرين متنافسين[٧٠] من الناس، وجماعتين من البشر، لا رابطة تربطهما سوى دين واحد اتحدوا بالقوة وأجبروا على أن يعيشوا معاً في نظام سياسي واحد[٧١]، وبينما كان يشعر بالبربري القابع في نفسه فإننا نجد جول ميشليه Jules Michelet محرراً نفسه من الآراء الميتافيزيقية ومحاولاً أن يضع تاريخ فرنسا على أساس ثابت، أساس التربة التي حملته وغذته، وبينما لم يكن للجغرافيا أساس عند جيزو Guizo وبليري فإننا نجده يبين في قوة وحماس عند مطلع "خريطة فرنسا" Tableau de la France أن التاريخ في واقع الأمر جغرافي، فقد ورد في تلخيصه بآرائه في المقدمة ١١٦٩ ما يلي "دون أساس جغرافي يسير الناس صناع التاريخ –كما يبدو لنا– في الهواء مثل الصور الصينية على غير أساس وما ينبغي أن ننظر إلى الأرض كمجرد مسرح للحوادث، فإن آثارها تبدو في مئات الأشكال مثل الطعام والمناخ ... إلخ، كما يكونالعش يكون الطائر، كما يكون الإقليم يكون الناس".

---

[٧٠] جوليان (٧٤) ص٨.

[٧١] Essai sur l'histoire de tiers Etais, 1853, chap. I, p.14

وبمثل هذه العبارات المطاطة الغنية بالآراء المحكمة في نفس الوقت أوضح ميشليه نفسه كما فعل كاميل جوليان Camille Julian الذي بدأ من آراء سلفة فكتور كوسان Victor Cossin[٧٢] هذا الفيلسوف الذي سمح لنفسه أن يحملها حتمية صريحة شاعرية "نعم أيها السادة، أعطوني خريطة قطر ما، تضاريسه ومناخه وموارده المائية، ورياحه، وجميع عناصر جغرافية الطبيعة أعطوني موارده الطبيعية نباتية وحيوانية فإني قمين بأن أخبركم مقدماً –ما هو إنسان هذا القطر وما هو الدور الذي سيلعبه هذا القطر في التاريخ ليس اتفاقاً، بل حتماً ليس في عصر واحد من التاريخ بل في جميع العصور، وأكثر من ذلك الفكرة التي كتبت عليه أن يقدمها" ولكن مثل هذا القول يذكرنا بالخطباء الذين يبدأوا كلامهم "باعطونا ...." يذكرنا بملاحظة بودان الصائبة أن كل الخطباء الكبراء، والشعراء والمهرجين السياسيين الذين يستهوون أفئدة الناس ينبعثون من إقليم واحد، هو الإقليم المعتدل ولكن بالرغم من كل شيء فإن كوسان احتفظ بالفكرة القائلة أن التاريخ في الحقيقة مأساة فكرة تصويرية تصلح للزينة ولكنها فقيرة لا فن فيها، وسنرى كيف استطاع ميشليه أن يجلي هذه الفكرة ويخرجها قوية رائعة، وللأسف الشديد في ذلك الوقت ١٨٣٣ الذي ألف فيه كتابه "عن مقدمة تاريخ فرنسا" لم تكن الجغرافيا قد ظهرت بعد.

ولقد فهم ميشليه أن الأرض ليست أمراً سهلاً بالنسبة للمجتمعات البشرية ولكن رأيه في تاريخ الشعوب رواية دقيقة الحبكة متداخلة

---

[٧٢]كتاب "تاريخ الفلسفة" انظر Brunerier (٥١) ص٢٠٣.

الحوادث متأثرة بمؤثرات جغرافية متعددة ولقد رأى وتدبر وفكر كما هي عادته الذهنية في غيرها من الأمور، ولربما أسرع فصرح كما فعل راتزل[٧٣] "الأرض هي الأرض لم يتغير مركزها في الكون أو الفراغ، والإنسان بآرائه وأحلامه ملتصق بها على الدوام وهي فكرة Victor Cossin أصلاً –كلا ولم يساير راتزل في تفكيره حين قال "عندما ينسى الإنسان أصله الأرضي فأنه تدفعه بقوة، وتذكره بأن جذور دولته إنما هي ممتددة في التربة، هي التي تقرر مصير الأفراد بقوة قدرية عمياء والناس يسكنون بقعة الأرض التي منحها إياهم القدر، عليها يعيشون وفيها يموتون خاضعين لقدرة قانونها الأزلي" كلا فلم يدفع ميشليه مصير الجماعات البشرية بهذه القدرة العمياء، ولكن هل يحق لنا أن ننتظر أكثر من ذلك منه وحده؟

لقد كان لميشليه الفضل في أنه جعل المؤرخين من بعده يبدأون تاريخهم، سواء كان عن اليونان أو الرومان أو الفرنسيين، أو غير هؤلاء من الأمم أن يبدأوا بوضع ملخص جغرافي للإقليم الذي سيؤرخون لأهله، فقد بدأ ميشليه كتابه عن تاريخ الجمهورية الرومانية سنة ١٨٢٨ وانتهى منه في سنة ١٨٣١ بأن وصف ظهور روما ولاتيوم، ثم وصف إيطاليا في الفصل الثاني كما وصف الابنين بمظاهر سطحها القوية البارزة، وقد أخذ بهذا العلم البديع الدافيء، وقد تبعه فكتور دوري Victore Duruy الذي وضع وصفاً جغرافياً لإيطاليا عند مطلع كتابة الكبير في تاريخ

(٧٣) Hauser, Grande Revue, 25 Oct. 1913, p.649.

الرومان[٧٤]، كما بدأ كتابه بتاريخ اليونان بوصف للبلاد ومناخها[٧٥]، ولم تقتصر هذه الحركة على فرنسا بل انتشرت إلى غيرها من الأمم فقد بدأ أرنست كورتيوس Ernest Curtius كتابة عن تاريخ اليونان وصف جغرافيتها ولكن الأمر لم يتعدى هذهالخطوة فبمجرد اعتراف ضمني بقوى الطبيعة في سير حوادث التاريخ فيها دون شرح أو تفسير لكيفية هذا التداخل، أو كأن هذه المؤثرات الجغرافية لم تتغير قط في أي بقعة من بقاع الأرض خلال التاريخ الطويل، وكانت انجلترا مثلاً التي لم يكن لها أسطول حتى القرن السادس عشر والتي لم تكن بها صناعة حتى القرن الثامن عشر كانت هذه البلاد كأنها منذ نشأتها حتى الآن بلاد الفحم والحديد التي نتغنى بمدحهما باستمرار.

يتساءل ميشليه في مقدمته سنة ١٨٦٩ وهي هل يظل الجنس البشري على حالته أو يتغير متأثراً بتغير العادات؟ وليته، أو ليت تلاميذه استبدلوا كلمة الإقليم بكلمة الجنس، ولعلهم قد غلبتهم طباع المؤرخين الذين يفكرون بأسلوب الشعوب، وليس بأسلوب الجغرافية الذي يهتم بالأرض فهم يخلطون بين القوى الطبيعية والقوى البشرية، ويرون لها أثراً واحداً في التاريخ بل أنهم يعتمدون بتصوير الطبيعة وصفاً براقاً ويوضع الإنسان فيها مخلوقاً سلبياً فاقد الإرادة لا حول ولا قوة مثل ذلك تلك الجملة التي أنهى بها فيكتور دوري Victore Duruy وصفه بإيطاليا "أما عن المستقبل فنحن نعرف من بحثنا لأرض إيطاليا أن سكانها الذين

---

[٧٤] (الطبعة الأولى) Paris, 1862, Chap. 1.

[٧٥] مطلع كتاب History of Greece ترجمة وشيه ليكرتك في خمسة أجزاء 882.

يخضعون لمثيرات طبيعية ومناخية مختلفة باختلاف أقاليمها لا يمكن أن يخضعوا لمدينة واحدة دون الاستعارة من الخارج[٧٦] وفي موضع آخر يقول "أن الجغرافية لا تستطيع أن تفسر غير بعض التاريخ ولكن هذا التفسير حسن وعلى البشر أن يقوم بالباقي" فحسب ما أوتوه من حكمه أو سفه في سلوكهم يحولونما يلزمهم الطبيعة لهم إلى خير أو شر[٧٧] هذه هي الفكرة التي تظهر على استحياء في باديء الأمر ولكنها ما لبثت أن أصبحت صيحة مدوية ولكن ليس مع دوري طالب التاريخ المتحفظ المدقق الذي لم يوهب العبقرية، بل مع تين Tainصاحب التاريخ المتحفظ المدقق الذي كان في ميدان الجغرافيا يقتفي الأثر الذي أحدثه ميشليه بين المؤرخين، والذي لم يكن مجرد ناقل أو طارق سبيل سبقه إليه غيره.

خطة بحث تين أوسع وأشمل ونظرته أعمق وأبعد أثراً وأكبر مدى بدأ بتقسيم وتنويع المؤثرات التي ترجع إلى الجنس والبيئة والزمن وهو في الواقع لم يبين إلا من المواد القديمة التي استعملها غيره ففكرته عن البيئة مثلاً في غاية التعقيد فهي لا تعني البيئة الطبيعية فحسب بل كل ما يحيط بالكائن البشري، المناخ والتربة والمؤسسات الاجتماعية والدين والحكومة أي كل ما يكون البيئة المادية والخلقية والعقلية التي يعيش فيها الإنسان ويعمل "ولقد كان تأثير تين على معاصريه قوياً ثابتاً فلم يقتصر أثره على المؤرخين فحسب مثل ميشليه بل أن أثره انتهى آخر

---

(٧٦) Druy Histoire des Romain ????? 1879, p.XXVII

(٧٧) نفس المرجع ص1.

الأمر بتأسيس مدرسة أدبية من طلبة السياسة والأخلاق فكلهم يعني بآثار البيئة الجغرافية المباشرة، آثار الأرض والطبيعة، والتربة والمناخ على الإنسان بوصفه بشراً مفرداً أو بوصفه عضواً في المجتمع السياسي ومن السهل أن نتصور كيف أن مثل هذه النظريات كانت سريعة الانتشار في منتصف القرن التاسع عشر، ذلك العصر الذيسادت فيه نظرية التطور والآراء التطورية، سواء ما كان منها معتمداً على دارون أو لامارك".

هذان العالمان الأخيران ساهما بقسط وافر في الفكرة في ذلك الوقت المعروفة بفكرة الملائمة التي يحاول فيها الكائن الحي أن يوفق بينه وبين البيئة الطبيعية الموجود فيها والتي يجب عليه أن يحيا فيها، ولاشك أنهما يختلفان في عدة نقط[٧٨]، ولكن ليس هذا موضع بحث هذا الموضوع بل لسنا مؤهلين لبحثه أيضاً على أنه اتفق على أن ملائمة الحيوان للبيئة كانت نتيجة لحياته فيها وسلوكه فيها سلوكاً معيناً، ولا يهمنا بعد ذلك أن كانت تلك الملائمة نتيجة للاختيار الطبيعي كما يرى دارون أو كما يرى لامارك، بل لم يهتم الكتاب في تحقيق تلك النقطة، بل أنهم اكتفوا بإيجاد علاقة بين عمل عالم التاريخ الطبيعي الذي يفسر العلاقة بين الكائن الحي والبيئة الطبيعية وبين عملهم كمؤرخينأو أخلاقيين أو اقتصاديين يميل إلى إيجاد علاقة بين الإنسان والطبيعة، وقد اكتفوا بقليل من عمل علماء تاريخ الطبيعة، وهذا القليل أسبغ على آرائهم شيئاً من الروعة والشهرة مستقاه من شهرة علماء تاريخ الطبيعة وقد مروا مر

[٧٨] قارن (٥٢) ص10 Cuenot.

الكرام على الخلافات الدفينة بين أتباع دارون وأتباع لامارك، واكتفوا بأن قالوا أن العلم قد أكد بما لا يحتاج إلى جدل أن الكائنات الحية تعتمد

اعتماداً كبيراً على بيئاتها، فالحشرات والطيور مثلاً التي تعيش في جزر تلاءم بين نفسها وبين تلك الحالة الجزرية بأن تفقد أجنحتها فقداناً تاماً مثل حشرات وحيوانKergulen Land أو تفقد القدرة على الطيران تماماً مثل خنافس جزيرة ماديرا أو حشرات جزيرة موريتوس وجزيرة نيوزلينده(٧٩)،والنتيجة المنطقية لهذا كله أن للطبيعة أثراً كبيراً على الإنسان من الناحية الجسمية أولاً ثم الناحية العقلية ثانياً ولكن قد تبدو الطفرة بين الحيوان والإنسان ثم بين الجسم والعقل كبيرة ولكن هل يوافق العلم هنا أيضاً؟ وهل لم يبدأ دارون نفسه مدرسة التطور في الأخلاق التي تبناها سبنسر ووضع لها قوانينها —وألم يحاول العلم أن يرينا كيف أنه من الناحية الأخلاقية من الممكن أن تعبر الفجوة بين الحيوان والإنسان عن طريق الغريزة الاجتماعية(٨٠).

إلا أن بعض الكتاب الجزئيين لم يعبأوا بالفروض العلمية كنظريات دارون بل أن بعد فترة ثلاثين عاماً لم يعد الناس يرهبون سلاح العلم ألم يقل Bruntiere في كتابه تطور النقد L' evolution de la criiique ١٨٩٠ "من المألوف ألا نثق في كل طريف مستحدث ... حتى ينبت عارضاه كما يقول مابرانش، والآن وقد مر حوالي ربع قرن أو ثلاثين عاماً على نظريات التطور فإننا نرى أنه لابد من أنها تنطوي على شيء من

---

(٧٩) Champault (18) 1913 ص60.

(٨٠) Comment la rout eree la type sociale.

الوجاهة يبرر نجاها وحيث أنها نجحت في خدمة التاريخ الطبيعي بصفة عامة، بل والتاريخ والفلسفة فلا جناح علينا أن حاولنا أن نجرب كيف يمكن أن نستفيد منها في التاريخ الأدبي وأصول النقد بدورنا".

وهكذا أقبل الناس مطمئنين على الكتابة والتأليف عن الإنسان أو شعب من الشعوب أو مدرسة خلقية أو فلسفية مستخدمين نظرية التطور راضية نفوسهم أتم الرضى على هذا التوفيق[٨١]، بل أن بعضهم أوقف نفسه على دراسة التطور والإنسان، وهاكم مثل أن كان يعوزنا المثال، مؤلف بسيط يجلس في مكتبة ويفكر في تاريخ العالم كله بعض الوقت، ثم يكتشف مبدأ وعلاقة وتفسيراً للتاريخ البشري يرتقبه؟ وهاك كاتب آخر إلى جانبه M de Taurville قاموس الحقائق الاجتماعية Nomenclature des faits sociaux نتصوره وقد صفف على مكتبه بعض القواميس التاريخية الموثوق بها "لتساعده في تدعيم نظرياته بالأمثلة ولتوحي له بنظريات أخرى" وكتاباً أو اثنين من كتب المراجع المعروفة والجغرافيا العالمية Geographie Universelle لايلزيه ركلس Elise Reclus ما أنزل الله بها من سلطان، ثم تبدأ فكرة مثيرة تومض في عقله فكرة جديدة برواية خيالية ثم يبدأ في تدعيمها بالأمثلة التي يستقيها من قواميسه التاريخية، ثم يصبغها صبغة عالمية، ويخرج لنا بمجلدين مكون كل منهما من ٥٠٠ صحيفة عن "كيف خلق الطريق الطراز الاجتماعي"[٨٢] لأدموند ديمولان Ed. Demolin ونحاول أن نتصفح

---

[٨١] ثبت الكتب والمراجع رقم ٢١٧.

[٨٢] قارن على سبيل المثال Wagner (H) in Zeirtschriff der Gese-llesch (82) (36) Penke, 1891.

الكتاب —يكفي الجزء الأول، وتاريخ القدامى Les routesds L' Antiquite الذي حاول المؤلف فيه أن يصف طرق المواصلات على أنها أمبيق المدينة، وهذا مثلاً أصل نشأة الشعب الصيني "ص٢٤٩" لمشكلة هي كيف نستطيعأن نجد طريقاً كفيلة بتدريب شعب على الزراعة والصناعة والتجارة في مضمار ضيق وبشكل مركز، أنه يوجد مثل هذا الطريق: أنه طريق التبت! "نبذة صغيرة ولكن فيها الكفاية للدلالة على قيمة كاتبها، أليس كذلك؟.

لا تبين هذه الكتب المتأخرة إلا مجرد استنتاجات ناقصة أو كتابات أدبية بعضها صدر عن نية طيبة، وبعضها يثير السخرية بعضها لكتاب متزمتين وبعضها لكتاب ناقلين، ولكنها جميعاً تشترك في داء واحد، داء عضال قديم، أنها بين أمرين أولهما البيئة الطبيعية أو الأرض، وإن حاولنا التحليل قلنا التضاريس والمناخ، وأحياناً يكتفي بالمناخ، ثانياً الإنسان، جسماً وعقلاً فرداً وفي مجتمع "طبيعياً" أو "سياسياً" يربط بين هاتين المجموعتين بشكل غامض شبكة من المؤثرات ينسجها الكاتب بإحكام أو بغير إحكام حسب طاقته وقوته الاستنتاجية، مؤثرات —على رأي ليتريه Littre المحايد تذكرنا بآثار النجوم والكواكب قديماً على مقادير أهل البشرية (وها نحن أولاء نعود مرة أخرى إلى علم المنجمين القدماء أم ترانا لم نختلف عنهم كثيراً؟)

لن نحاول أن نتمسك بهذا ندع المؤرخين من رجال الأدب والفلاسفة يصطنعون ما يحبون من تلك السلاسل السببية بين المظاهر

التي يدرسونها وبين ظاهرة أو أكثر من حقائق الجغرافيا التي اختاروها دون تحليل أو تدقيق، ولهم أن يصيغوا عبارات عامة مثل "أثر التربة" أو "هو المناخ" الذي يؤثر على عقليات الشعوب وتاريخ الأمم كيفما صور لهم الخيال ولكن فليسبحوا في بيداء الفكر وحدهم فعملهم يبدو لنا مجدياً إن لم يكن خطراً، فقد توارثوا فكرة البيئة من تقاليد قديمة ولم يحاولوا أن يحددوا وضعهم أنهم يتمسكون بالمؤثرات الجغرافية التي كانت في وقت ما قوية غامضة معاً، متعددة الجوانب معقدة التي تلعب دوراً كبيراً كما يقولون على الإنسان جسمه وعقله ، اجتماعه وسياسته على لون جلده وشكل جسمه قوة بنيانه، نواحي القوة والضعف فر روحه مؤسساته القضائية والدينية والاقتصادية –حتى على بيئات أفكاره وما يبدعه من فن وعبقرية، إنهم يقررون تلك المؤثرات كحقائق ولكنهم لا يقدمون بين يديها الأدلة الكافية.

هل لنا أن نقول إذن أن الجغرافيا التي كان يظن أنها تفسر كل شيء، لا تفسر شيئاً؟ لا، لا يجب أن نقفز إلى تلك النتيجة، وما هو مدى الدور الذي تلعبه الجغرافيا في الوقت الحاضر؟.

٢) الجغرافيا البشرية وناقدوها

يحب أن نبحث عن الجغرافيا حيث ننتظر أن نجدها –عند الجغرافيين فأي أمر يريد أن يتفقه في العلاقات بين الأرض والتاريخ، ويود ذلك عن إخلاص، عليه أن يقصد الجغرافيين هناك سيجد بغيته، إذ

لا وجود الآن للجغرافي القديم الذي كان يقتصر على الوصف وتفريغ الجداول دون الإدلاء بمباديءعامة، فالجغرافيا الطبيعية التي تعتمد على العلوم الطبيعية والحيوية مثل الجيولوجية وعلم المناخ وعلم النبات وعلم الحيوان، قد تحررت من هذه العلوم شيئاً فشيئاً تأكدت من نهج بحثها وحددت موضوع بحثها وأدركت شخصيتها الخاصة وهذا يرجع إلى جهود الرواد من أمثال الاسكندر فون همبولدت مؤلف العالم Kosmos وكارل رتز مؤلف Dis allegemeine vergleichende والذي ترجمه بوريه وديزور Buret et Desor الفرنسيان تحت عنوان الجغرافيا العامة المقارنة Geographie generaie compare أو دراسة الأرض وعلاقتها بالطبيعة وتاريخ الإنسان وفي نفس الوقت كان فرع جديد من فروع الجغرافيا ينمو ويزدهر ببطء على يد فردريك راتزل Frederich Ratzel عالم الحيوان والرحالة الذي أصبح فيما بعد جغرافياً عميقاً متحمساً وهذا الفرع يدين لراتزال باسم الجغرافيا البشرية Anthropogeographie.

في مجلدي كتاب الجغرافية البشرية Anthropogeographie عماد الجغرافيا عند الألمان الذي نشر عام ١٨٨٢-١٨٩١، ضمن مجموعة الكتب الجغرافيا المشهورة التي أصدرها انجلهورن Engelhorn وستوتجارت Stuttgart في هذين المجلدين درس راتزل حياة البشر في مجالات نشاطهم المختلفة وفي مجتمعاتهم المختلفة دراسة منظمة قائمة على المنطق على ضوء علاقة البشر بالبيئة الجغرافية، أما في كتاب الجغرافيا السياسية Politischegeographie الذي ظهر في مجلد واحد فيما بعد فقد وجه اهتمامه إلى حياة المجتمعات

السياسية في الدول على ضوء علاقتها بالبيئة وأساسها الأرضي بدراسة الدول كما هي أوطان واقعة في المكان "هذه الأوطان التي تعتبر أساساً ثابتاً لأماني الشعوب وآمالها وأمزجتها المتغيرة، والتي تحكم مصير الأمم حكماً صارماً أعمى كما قال راتزل ذات مرة في الحالة الاجتماعية Annales Sociologique.

على أي حال فقد كانت هناك مدرسة جغرافية تنشأ وتنمو في فرنسا إلى جانب تلك المدرسة الألمانية، تنشأ حول مؤرخ وليس حول عالم طبيعي، فقد وجه بول فيدال دي لابلاش Paul Vidal de la Blashe[٨٣] اهتمامه إلى الجغرافيا بعد عام ١٨٧٢ وبدأ بدراسة آثار همبولدت ورتز ثم سافر في أنحاء أوروبا وبدأت آراؤه في الجغرافيا الاجتماعية تنضج واختبرها بكتب راتزل التي استطاع أن يظهر وجوه الضعف فيها بثاقب فكرة وأخيراً أصبح الأستاذ بلا منازع لعدد من التلاميذ انتشروا في جامعات فرنسا ومدارس الليسيه، ولم يخرج لنا فيدال دي لابلاش كتباً تقديرية مثل الجغرافيا البشرية والجغرافيا السياسية راتزال، بل سلسله من المقالات[٨٤] تمتاز بأنها عملية وناقدة في أسلوب محكم يشع فيها فجأة ومضات من العبقرية ولفهم، ويالها من حافزه على الفكر وموجهة للرأي! لقد أخرج لنا كتاباً فريداً من نوعه[٨٥] له طابع خاص ولكنه خلو من القضايا التقديرية ومن الصعب تقليده، تلك هي

---

[٨٣] ولد عام ١٨٤٥ ومات عام ١٩١٨.

[٨٤] ثبت الكتب والمراجع من رقم ٢٩-٣٣، ٤٥-٤٧.

Bibliography No. XXLX-XXXLLL & XCV-XCVLL

[٨٥] **Tableau de France (222)**

مجموعة الحوليات الجغرافية الدسمة Annale de Geographie منذ عام ١٨٩١ وفوق ذلك فقد كان لذهن دي لابلاش تأثيراً أوسع بتدريسه في مدرسة المعلمين العليا (١٨٧٧–١٨٩٨) ثم في السوربون، ذهب جبل على البحث الحر وعلى استقصاء الحقيقة في نشاط وانتباه، ذهن إنسان يستطيع أن يثير الحماس دون أن يكتفي بترديد العبارات المتداولة.

يتألف نشاط المدرسة الفرنسية في الجغرافيا التي أسسها فيدال دي لابلاش بمساهمة ملخصة في علم الجغرافيا في شكل سلسلة من الكتب الإقليمية التي تمتاز باشتراكها جميعاً في هدف واحد وأن يتميز كل بطابع شخص بعينه، هذه السلسلة تشمل سهل بيكارد لالبرت ديمانجون والفلاندر لراؤول بلانشارد، وبريتانيا السفلى لكاميل فالو اوبرانس البحر الأبيض المتوسط لماكسميليان سور وفلاحو نورمانديا الشرقية لجول سيمون[٨٦] عدد كبير من الكتب الدقيقة المنظمة الشاملة، ومحاولات عديدة لنقص مميزات جزء أو إقليم جغرافي من أقاليم فرنسا وقد خلت هذه الكتب من النفحة الخطابية الشاعرية التي ظلت عالقة في كتابات الهواة وحلت محلها طبيعة الحذر ومحاولة الإحاطة بالموضوع التي يتصف بها كتاب دربوا على الطريقة النقدية وعلى استخدام المعلومات التي تقدمها العلوم الطبيعية كما أنهم وجدوا ألا مندوحة من الابتعاد عن الاندفاع والتطور في آراء غامضة شاملة عن المناخ والأرض والإنسان، بل هم وقفوا أنفسهم على المثابرة في التحليل

[٨٦] انظر إشارة المراجع في برلين (٦٦) ص٤١-٤٩.

والعمل المتواصل وهكذا أنشئوا أسس علم جديد يبحث في العلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقاته في الحاضر وعلاقاته في الماضي، وذلك نتيجةجهود راتزل ومعارضيه في ألمانيا وتلاميذ فيدال دي لابلاش في فرنسا، وقد كان هذا العلم حديثاً ولكنه مليء بنشاط ينمو بسرعة ويلهب الحماس في نفوس متعلميه، بل أنه كان يثير آمالاً غير ناضجة تدفع حديث العهد به في بعض الأخطاء، ولا نستطيع إلا أن نبتسم عندما نقرأ لأحد المعجبين بهذا العلم الذي أخذ باكتشافه هذا الرفع من المعرفة قوله "الجغرافيا تشمل جميع العلوم وتفتح كل الآفاق وتشمل كل المعرفة الإنسانية".

ثم يعدد تلك العلوم وينتهي بنتيجة لا نملك إلا أن نوردها هنا لطرافتها "أننا نضع جامعة فرنسا فوق قمة هرم، وننقش عليها كلمة الجغرافيا التي تنتهي إليها كل المعرفة الإنسانية"، ولكن هذه في حد ذاتها قوة فليست كل دراسة توحي في نفس الطالب تلك النزعة التي تكاد تصل إلى حد العبادة، بل لابد من تيار جارف يستطيع أن يجعل المجرى يشق طريقه، جارفاً مهدراً مرتفعة أمواجه، لاشك أن علماً يدرس العلاقة بين الإنسان والبيئة قد ولد له طريقة خاصة في بحثه وله مبادئه وله مدارسه وكراسيه في الجامعات ومجلاته الدورية وكتبه المدرسية، ونتائج بحثه التي تجعل له حق الحياة.

فالجغرافيا البشرية لها مكانها المرموق في كل الجامعات هذا العلم الذي يستطيع أن نشير بفخار إلى آثاره في عصرنا الحديث ويدل

بتفصيل إلى انتصاراته وتعدد فتوحه، ونحن الآن في نهاية عصر الاضطراب والقلق، وقد تحررنا من أيدي أصحاب المقالات ووجدنا دليلنا الهادي، فعلينا أن نعتمد على هذا الدليل في حل مشكلة البيئة والتاريخ فعلمه الحديث سيصل بنا قدماً إلى الهدف، ولكن علينا أن نعيد ما قلناه، علينا أن نجد طريقنا الصحيح ونستخدم ملكة النقد فينا، لا مفر من ذلك، وما نظن ينقصنا ملكة النقد.

لن ندخل فجأة في تفاصيل نظرية، فلن نتساءل ما إذا كان هناك في الواقع أي ثلمة في البناء الجغرافي أول هل من الممكن ومن الأوفق إتباع مدرسة راتزل الحتمية أم نتبع مدرسة فيدال دي لابلاش الإمكاني، فهذا موضوع أكبر من أن يعالج في المقدمة، سندرسه في تفصيل فيما بعد، أما الآن فسنكتفي بالمظاهر، فعندما نقرأ أي كتاب في الجغرافيا البشرية نلمح في الحال طابع الطموح، ولسنا فقط الذين نهتم في الجغرافية الإجتماعية بالطموح، فلهذا العلم منافسوه وناقدوه، وهذا أمر طبيعي، فكل العلوم الحديثة التي تشعر بكيانها وشخصيتها والتي تمارس حقها في الحياة الحرة المستقلة لا تسير قط على أرض خالية من العقبات وهذه العلوم ينقصها عادة الحكمة والحذر وضبط النفس بعد أن تنتشي بنشوة انتصاراتها واستكشافاتها الأولى.

هي لا تستطيع أن تضبط نفسها أو تكبح جماحها، ومن هنا تختلف مع العلوم القديمة التي وطدت مركزها، أو مع العلوم الحديثة

التي لا تزال ترقى السلم، ومن هنا كان الاتهام القديم بالطموح وهذا ما حدث للجغرافيا البشرية.

أما صوت العلوم القديمة فكان قوياً غليظاً، فنحن نذكر باستمرار احتجاج الجيولوجيين غير راضيين على استقلال الجغرافية الطبيعية وخروجها على الطوق، وفي الوقت نفسه يعزون أنفسهم بأن لابارنت Lapparent مؤلف دروس الجغرافيا الطبيعية في فرنسا جيولوجي، وأن دافيز Davies في الولايات المتحدة منهم، وهذا اتهام ضعيف لم يجد دي لابلاش مناصاً من الرد عليه عام ١٩١٣ يقول (نظراً لتعقد الظاهرات الطبيعية وتداخلها في الطبيعة، كان لابد من تعدد طرق بحثها بل كان من المستحسن دراستها من زوايا مختلفة وإذا كانت الجغرافيا تستخدم معلومات معينة من علوم أخرى فليس في ذلك ما يضيرها أو يجعلها غير علمية[٨٧]) وواضح صدق هذا القول، وقد كان يستطيع دي لابلاش أن يضيف ملاحظة بيولوجي ماهرهوج قسطنطين الذي قال في معرض الحديث عن العلاقة بين الجغرافيا وعلم الحياة أن المشاكل الجديدة لا تقابل إلا عند حدود العلم، وفي هذا المكان نستطيع أن نقول وأن نجد الحلول التي لم نكن نتوقعها والتي تمتاز بالأهمية[٨٨].

نستطيع أن نهمل اختلافات المنافسين الصغار ومحاولاتهم ضم الجغرافيا الاجتماعية إليهم، فليس في هذا جديد على الجغرافيا، فنحن

---

[٨٧] فيدال، (٣٣) ص٢٨٩-٢٩٠.

[٨٨] Costantine (11) 1898، ص193، قارن أيضاً Douxamie La geographie physique et la geologie, Revue Encyclop, 1897.

نعرف تعقد العلاقات بين العلوم الاجتماعية وصعوبة تحديدها، فهناك علم الشعوب Ethnology وعلم السلالات Anthropology ولا تزال المعركة حامية الوطيس بين هذين العلمين ويكفي أن نشير إلى ذلك العدد العديد من الكتب والمقالات والرسائل التي حررت في التحديد بين هذه العلوم المتشابكة المتداخلة.

ولم يكن بد للجغرافيا الاجتماعية من الاصطدام بعلم الاجتماع.

علم الاجتماع نفسه علم حديث، نشيط سريع النمو له اندفاعه وله طموحه وأكثر من ذلك فكثير من أساتذته يظهر ميلاً خاصاً لتحديد تعريف الألفاظ والمعاني وتحديد مناطق النفوذ ويبدون ميلاً كذلك للترتيب المنطقي الجميل، وينطبق هذا خاصة على النخبة الفريدة التي جمعها دركايم حوله قبل أن تشتت الحرب العالمية الأولى شملهم، فمنذ عام ١٨٩٦ ارتبطت هذه النخبة بالحولية الجماعية L'annee Sociologique التي كانت تمتاز بالروح الناقدة البنائة في نفس الوقت والتي كانت تضم عدداً كبيراً من مختلف الآراء والمقترحات وكانت ذات أثر كبير على جيل بأكمله.

أقوياء الحجة كبيروا الاعتماد على التبويب والتقسيم الذي أصبح أكثر تعقداً بل أكثر دقة يوماً بعد يوم لم يبني تلاميذ مؤسس الحولية في مهاجمته ونقد ما يجدون من أخطاء أو ما يلحظون من اضطراب المنطق عند غيرهم، ولاشك أن المؤرخين يعرفون ذلك جيداً إذ تسجيل المجلة التاريخية Rev. de Synthese Historlque بين عامي ١٩٠٢ –

١٩٠٣ ما قام من جدل بين سماياند وامنتو، وما كان للجغرافيا الاجتماعية وما كانت تستطيع أن تسلم من نقد مثل هذه المدرسة القوية التنظيم والكبيرة الثقة في مستقبلها.

ولم يكن عداء علماء الاجتماع قائماً على التعصب بل على العكس، فقد استرعى علماء راتزل انتباههم منذ البدائة وتبعوا آثاره باهتمام وأكثر من ذلك، فمنذ نشرت الحولية الاجتماعية "بعض المقالات" للأستاذ راتزل بعد نشره كتاب "الجغرافية السياسية عام ١٨٩٧" عن الأرض والمجتمع والدولة.

Volkskunde, Volkerkunde, Ethnologie, Volker-psychologie, Volker Wissenschaft.

ولكننا نلاحظ أن هذا الملخص الذي نشره راتزل كان مجرداً نظرياً إن لم يكن جافاً خالياً من الأمثلة العديدة التي تميز كتابه الأصلي مما جعل قاريء "الحولية" غير الجغرافي يكون فكرة خاطئة عن الجغرافيا البشرية، ولكن دركايم نشر صدفة في نفس العدد تقريراً عن كتاب الجغرافية البشرية وبالرغم من أنه رفض نظرياته الأساسية فقد وجد في عمل الأستاذ الألماني مجهوداً صادقاً مبشراً بالخير والنفع العميم، كما أنه احتفظ بتحفظاته الخاصة كعالم اجتماع وآثار بعض الاعتراضات التي بدأت معركة جدلية بين العلمين، وقد تبعه في هجومه تلاميذه مثل ف. سيمياند، م.ماوس، م.هالباوخس ومن يريد أن يتتبع تلك المعركة عليه أن يرجع إلى مثال مفصل لمرسيل ماوس وبيوشات المتأثر بأمريكا في

الحولية ١٩٠٤-١٩٠٥ عن "الهجرات الفصلية لمجموعات الاسكيمو دراسة في علم البناء لاجتماعي، إذن لم يكن اهتمام علم الاجتماع بالجغرافية البشرية سلبياً بل إيجابياً، تميل إلى معارضاتها أكثر من قبولها، واعتراضات علم الاجتماع تحتاج إلى الاهتمام بها اهتماماً صادقاً عملياً، ليس جدلياً نظرياً مما يغتبط به الفيلسوف ويضايق الأخصائي، فعالم الاجتماع لا يعترض على الهجوم، بل يبني على طريقته الخاصة، وهم يقترحون استبدال علم جديد قائم على أسس ثابتة محددة واضحة المعالم من علم الاجتماع ويسمونه علم البناء الاجتماعي Social Morphologie بدل علم الجغرافيا البشرية الذي وضعه راتزل ولابد من الاختيار بين العلمين، لقد تخلصنا من تلك المقالات السيئة الترتيب التي أخرجتها أذهان عبقرية في تسرع وعجلة، وإذا كان أثر الطبيعة على المجتمعات البشرية مستمدة من أنها لا تتم بنفس الطريقة على الإنسان في كل مكان، وإذا اعتقدنا مع فيدال دي لابلاش "أن نتائج هذا التأثير تجمعت في بطء عملية تدريجية مستمرة بل أنها تستمد قوتها من هذا لتدرج والاستمرار" فأي فائدة ترجى من البحث عن العلاقات السطحية بين الإنسان والبيئة أو عن إيجاد القياسات الخاطئة التي كانت عبء ثقيلاً عليه وقتاً طويلاً من الزمن؟ فهذه كانت خلواً من الطريقة أو الترتيب العلمي.

ولكن هنا نجد دليلاً واحداً بين أيدينا تلاه مباشرة دليلاً آخر، فعلم الجغرافيا البشرية الحديث قدم لنا حقائقه الموثوق بها، وعلم البناء (المورنولوجيا) الاجتماعي قدم مساعدة ذات قيمة، فبأي نستطيع أن

نثق؟ علينا أن نستمع إلى الطرفين ونختبر أوجه النقص التي يقدمها علم الاجتماع عن الجغرافيا البشرية وحتى إذا لم تستطع هذه الاتهامات التي تخرجنا عن الطريقة الجغرافية، وإذا لم تستطع أن تنال من اعتقادنا في جدارة الجغرافيا البشرية وأحقيتها في الوجود كعلم حقيقي مستقل فعلاً تستطيع على الأقل أن تساعدنا على إيضاح المشكلة أو على الأصح وضع عدد من المشاكل المعقدة التي ينبغي علينا أن نحلها.

نقد الطريقة ونقد النتائج، هذا هو الطريق الذي يجب أن نتبعه، ونحن لدينا عدد كبير من المعلومات ولا تحتاج لزيادتها، ونحن نستطيع أن نهمل مسائل التقدير في بعض الموضوعات، ولكننا هنا أمام علوم أخرى منافسة فلابد أن نواجه موضوع الطريقة إذ هي في صميم الموضوعات.

فلنتخذ الجغرافيا والطريقة الجغرافية، ولكن إذا أبقت قيادتها لنا بعد عناء طويل وجاء ذلك بعد مجهود طويل للوصول إلى المباديء الهادية بعناية وحرص.

٣) خطة الكتاب واتجاهاته

الروح الجغرافية

لن نقتصر بحثنا على هذا العرض الأول لأن ذلك يجعل من البحث موضوعاً ناقصاً والواقع أن اهتمامنا في وجه المعارضة التي يعترض بها علماء الاجتماع على علم الجغرافيا وعلى أعمال الجغرافيا ستضيء لنا الطريق لنعرف أهداف بحثنا، ولكن هذه الطريقة الغير مباشرة لا تعفينا من الدخول في الموضوع والتعرف إليه، وإن كان لها من فضل فإن ذلك يعود إلى أنها منعتنا من الالتجاء إلى الصورة العامة أو إلى كتاب ملخص قصير للموضوع في المقدمة.

سنبدأ بالوحدات الجغرافية الكبرى، الأقاليم الجغرافية التي ينقسم إليها العالم، وندرسها إقليماً إقليماً، ونعين مميزاتها الأساسية، ونلاحظ علاقة هذه المميزات بتاريخ الشعوب التي تتابعت في كل إقليم، ويبدو أن هذه طريقة تاريخية جغرافية لمعالجة الموضوع ولكن أي فائدة ترجى من ذلك؟ ألا يتضمن هذا معرفة ودراية بجميع أنحاء العالم وبتواريخ أممه الكبرى؟ إن هذا العمل شاق وخاصة إذا كنا نقوم به منفردين، والدليل على ذلك هو عجز هلمولتز Holmholtz في القيام بهذا المشروع في كتاب تاريخ العالم.

وأي كاتب هذا –سواء كان جغرافياً أو مؤرخاً يزعم أن في طاقته أن يلم إلماماً تاماً بجغرافية الأقاليم المختلفة وتاريخها، وهنا نتساءل أين هي المراجع المفيدة التي يمكن أن يعول عليها؟ هناك مثلاً كتاب مس سمبل عن التاريخ الأمريكي وعلاقته بالظروف الجغرافية[٨٩]، وهذا الكتاب يحاول تفسير تاريخ أمريكا الشمالية على ضوء العوامل الجغرافية، ولكن هل هذا يسلبنا من الروح الناقدة؟ لا أظن –مهما كان إيمان الكاتبة قوياً فأمثال هذه الكاتبة يذهبون كل مذهب جامعين عناصر عديدة ذات صبغة جغرافية تاريخية ويزعمون أنهم يكتبون كتاباً ومثلهم في ذلك مثل علماء التاريخ الطبيعي، الذي يسيرون في أنحاء الطبيعة ويجمعون شذرات من كتابها الكبير، هذه الشذرات تلهيهم عن الفكرة العامة والمنظر العام، كما يقول العالم السويسري هوارس بندكت دي سوسور مكتشف قمة مونت بلات ويضيف إلى ذلك قوله "أنهم يشبهون هواة جمع التحف القديمة الذين ينبشون في ساحة البانثيون أو الكالسيوم بحثاً عن قطع الزجاج الملون[٩٠]"، ولا شك أنهم عقلاء متواضعون لم يحاولوا أن يشيدوا بانثيونا أو كوليسيوما من الزجاج.

أننا سنترك أممن هذه المهمة لكتاب هذه السلسلة من الكتب في دراساتهم الخاصة للبحث عن العوامل الجغرافية التي تتدخل مع غيرها، وإن كان تدخلاً حاسماً في تشكيل ما يسميه "تين" في كلمة واحدة "البيئة" وخير من يفعل ذلك المختصون في فروع التاريخ المختلفة،

---

(٨٩) American History & Its Geographic Conditions, Boston & New-York, 1903.

(٩٠) Voyages des Alpes, Neuchatel, vol. 1, 1780, p.III.

بشرط أن يكونوا على علم بنظرائهم من الجغرافيين، وبالمبادئ التي تقوم على البحوث الخاصة المستفيضة وإلا لكان موضع هذا الكتاب في مؤخرة السلسلة لا في مقدمتها.

أما وقد انتهينا من رفض هذه الخطة فإنه تظهر لنا خطة أخرى، لا ترتبط بتاريخ بلد بعينه أو بجغرافية بلد معينة، ولكنها تعتمد على مقارنة الظروف الجغرافية المختلفة التي تقوم بدور فعال في تاريخ الأمم والشعوب، وتجرد المباديءذات الصبغة الجغرافية، مثل العلاقات المكانية والموقع الجغرافي والمساحة .. إلخ، وشرح أثر هذه المباديء والقوانين العامة وتصويرها بأمثلة مستقاة من مناطق متعددة، ومن التاريخ العام لمختلف الأقاليم وتأليف كتاب يقوم على العموميات التي يمكن تطبيق نتائجها تطبيقاً عالمياً تلك خطة جيدة ولكن دونها صعوبات.

دعنا نقرر باديء ذي بدء أن مثل هذه الخطة قد اتبعت في كتب أخرى موجودة بالفعل، بالرغم من أنها تتفاوت في أهميتها وقيمتها العلمية لأن مثل هذه الخطة حسنة ومفيدة، فلماذا تلخص مرة أخرى الجغرافيا البشرية أو الجغرافيا السياسية راتزال؟ وما هي الفائدة من إعادة كتابة مجلدي كاميل فالو الصغيرين "الأرض والدولة والبحر، أو كتاب مس سامبل الخاص بالمادة المتفاوتة القيمة الذي كتبته في سنة ١٩١١ عن أثر البيئة الجغرافية؟

دعنا ننفذ إلى أصل المسألة أن كل كتابات راتزل وكل قدرته الشخصية وكل معلوماته الواسعة الأفق عن أجزاء العالم وكل ما تقفه من

معلومات تاريخية أو اثنوغرافية كلها لا تجدي فتيلاً في عصر يعتمد على البحث المنهجي الدقيق، وأننا لنعتقد أن وزر هذه الكتابات وأمثالها ينحصر في أنها تخفي صعوبات البحث وثمره علينا ولا تظهرنا على جهلنا العميق، وأنهاتخلق في عقولنا الاستعداد الحسن لتقبل القواعد العامة المصقلة، وأنها تلوح بسراب يوهمنا أن تلك القوانين المجردة مهما كانت قوية ومهما كانت صادقة في تصوير جوانب الحياة المتعددة، إنما تتضمن الحقيقة العلمية، لقد وضعت أمام أعيننا عدداً من القواعد المقررة، أغرقت عقولنا وخدرت قوانا الناقدة وأسلمتها في سبات عميق لقد شيد راتزل بناء شاهقاً من الآراء والمباديء والقواعد الجغرافية البشرية ولكنها جميعاً ليست علمية، مثل هذا البناء لا يدل إلا على قوة ذهن مهندسة[٩١]، ولكن عيبه أن عدداً كبيراً من التلاميذ والمريدين قد استناموا في ظله وظلوا في سبات عميق وقد قال عنهم راو RAUH[٩٢] أنهم أكثر غفلة من أساتذهم لأنهم قصروا في فهم كتاباته ويرتعدون خوفاً أن ساورت أنفسهم الرغبة في إنكار كلمة واحدة كتبها، أنهم يألون دائماً إلى العبارات العامة Formula والقواعد والقوانين، وعلينا أن نتحرر من هذا الاتجاه الذهني الرتيب وعن هذه الروح المحافظة الجامدة.

أننا في الوقاع لا نعرف شيئاً حتى الآن أو لا نعرف إلا القليل عن تأثير البيئة الجغرافية على الجماعات البشرية لسبب غاية في الوجاهة، أن الجغرافية التي تحاول ذلك لم يكد يمض على نشأتها إلا قليل، ولم

[٩١] Brunches & Valloux, LXVIII, p. 324 h.

[٩٢] Rauh, XXV, p. 29.

تؤسس بعد منهج بحثها، وهل هي ذات منهج؟ نعم ولا؟ إذ أن لها أكثر من منهج في الفرع الذي يطلق عليه اسم الجغرافيا "البشرية" لها أكثر من منهج تعب الباحثون بينها حيارى، أن ذنبها الوحيد أنها حديثة العهد، وليست هي وحدها الحديثة العهد إذ يشاركها في ذلك علم الاجتماع وغيره من العلوم، ولكن الجغرافيا تواجه بشجاعة مشاكلها وتحدد ميدان بحثها وتضع لنفسها المنهج بعد المنهج وعلينا أن نشرح جهودها في هذا السبيل ونداقع عنها، المشكلة الأساسية أمامها هي مشكلة "البيئة" وهذه تعتمد أصلاً على طريقة ترتيب المعلومات وطريقة تطبيقها تطبيقا جغرافياً عالمياً مقبولاً.

ولكن إذا كان لا يزال يوجد شيء من التردد أو النزاع بين الجغرافيين حول المنهج فإنه مما لاشك فيه أن هناك أيضاً بين الجغرافيين نوع من التفكير الجغرافي والنزعة العقلية الجغرافية ولدينا الآن طرقاً معينة خاصة يسلكها الجغرافيين نوع من التفكير الجغرافي والنزعة العقلية الجغرافية ولدينا الآن طرقاً معينة خاصة يسلكها الجغرافيون كما يتبين في كتاباتهم وأبحاثهم، في النظر إلى الأمور ومعالجة المسائل وأن لم يكن لدينا طريقاً واحداً ومنهجاً ثابتاً وهذه حقيقة لا ينبغي التقليل من أهميتها ولقد ألقى "فردريك راو" في كتابه "منهج علم النفس الوجداني" الضوء على الروح العلمية عندما قال "أنها تتجلى بأشكال مختلفة لأنها في بحثها عن المسائل المختلفة ثابتة لا تتغير"[٩٣]، وهو يدعونا إلى أن تستبدل "بالمعلومات الجافة المجدية"

---

[٩٣] Rauh, XXV, p. 25.

التي لا يقبل عليها "سوى النهمون إلى مزيد من المعرفة" معرفة أخرى من شأنها أن تفتح أمامنا "مجالات واسعة مثمرة" وأيضاً إيحاءات متجددة باستمرار ويرى أن المنهاج الجاف خطر على "الاكتشاف العلمي" ذلك الاكتشاف الذي ياتي من الاتصال بالحقيقة المعقدة اتصالا وثيقاً، وهو أغنى وأثمن من مجرد البرهان الذي يأتي ببطءبعد ذلك[٩٤]، وعلى أية حال فالروح الجغرافية والاتجاه الذهني الجغرافي فحسب هو الذي سيساعدنا على القيام بالمهمة التي نحن في سبيلها.

يجب أن تحرر من أي ترتيب تاريخي أو جغرافي سابق، أو أي محاولة لاعتناق آراء سابقة ومحاولة إجبار الحقائق والأدلة على تثبيتها، أو وضع مجردات عامة معينة يخضع لها كل تاريخ وكل إقليم، ويجب أن نجتهد بقدر المستطاع في تعرف اتجاه الجغرافيين والمؤرخين نحو مسألة أثر البيئة في الإنسان فهي مسألة دقيقة وذلك بعد القيام بمجهود شاق آخر نحو ترتيب نواحي هذه المسألة ووضعها في مكانها العلمي الصحيح، وليس هذا بالأمر الهين كما أنه ليس إلا جانباً واحداً في المجهود العلمي إذ لابد من تحطيم الآراء القديمة الفاسدة ولابد من تحديد غيرها من الآراء الغامضة، ونسرع الخطى نحو الساعة التي تنهار فيها التعميمات البراقة والنظريات الجذابة والمقارنات اللبقة، وتفسح مكانها للعمل العلمي الصحيح، ونحن لا تنقصنا الروح أو العزيمة بل يجب علينا أن نقصدها بقدر المستطاع لكي توطد أقدامها، فلمثل هذا الغرض يجب أن نوقف جهودنا ويجبأن ننصرف عن محاولة تزييف نتائج

---

[٩٤] Rauh, XXV, p. 23.

وهمية جوفاء، بل هذا الكتاب كتاب نقد؟ إنه إذن لمجهود ضائع، أم هو نظرية وضعية؟ إنه إذن محاولة كبرى ونحن لا يهمنا سوى أنه كتاب يستهدف المعرفة الصحيحة والعلم وليكن ما يكون شأن الآمال التي يحاول تحقيقها.

لا داعي لترديد ما قلناه عن غرض الكتاب ولكن ربما كان من الملائم أن نضيف شيئاً عن المؤلف، إنه مؤرخ بمساعدة مؤرخ آخر الذي سيحاول أن يرسم العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ، وهذا المؤرخ لم يوقف حياته على دراسة تلك المجتمعات البدائية القديمة، والتي توصف "بالبساطة" وباعتمادها المباشر على "الطبيعة" وهذا الوصف ناتج عن وهم معين، وعن نقص في المعلومات الخاصة بها، ولكنه أوقفها على دراسة تاريخ المجتمعات الراقية الحديثة التي يظن الناس أنها قد تحررت من ربقة البيئة الطبيعية، وابتعدت عن مؤثرات البيئة الطبيعية بعداً تاماً، وليس هذا راجعاً إلى عامل الصدفة أو الرغبة في التفكير في زي الجغرافيين، بل نتيجة خطة وضعت بعناية ودقة.

ليست النقطة الدقيقة في الموضوع هي العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ، فمما لاشك فيه أن هناك اتصالاً وثيقاً بينهما ولكن المهم أن أي موضوع جغرافي لابد وأن يكون صورة معينة لشيء ما، صورة مكونة من عدد من الحقائق يبدو أنها تحقق الفكرة الجغرافية التقليدية عن حقائق العالم، والجغرافيا تعتقد أن لها منهجاً وتنظر لنفسها على أنها

علم، وهي كأي علم حديث كما أظهر راو في كتابه السابق[٩٥] ذكره تحاول أن تقتفي أثر علم أرسخ منها قدماً وأقدم عهداً، وهذا العلم هو الجغرافيا الطبيعية الذي تحرر من الدراسات الطبيعية الأخرى، وهي لذلك قد اكتسبت منه بعض الاتجاهات التي لم تستطع بعد أن تحرر منها، مثل الجبرية الصارمة والحتمية التامة، وقد حاول بعض الكتاب في الجغرافيا البشرية التحرر من تلك الجبرية فنجح بعضهم ولم يصب التوفيق بعضهم الآخر، ونكص البعض عن محاولة التحرر إطلاقاً.

أما التاريخ فله شأن آخر، فهو لا يعترف مطلقاً بأنه علم ولم يعترف المؤرخون بأنهم علماء[٩٦] وهذا أمر يهنأون عليه، بل ولم يخل هذا النقص من فائدة.

لا يعوق المؤرخ أي خضوع لقوانين معينة، ولا يتأثر في أحكامه بنظريات موضوعة سابقة ينبغي أن لا يحيد عنها، أو يخضع آراؤه لها، وبعبارة أخرى بينما كان يتعينعلى الجغرافي أن يرى صورة أو تخطيطاً عاماً فإنه لا يعيق المؤرخ عائق من أن يدرس دراسة نقدية حرة، ونحن سنحتفظ في هذه الدراسة بهذه العقلية النقدية.

لن يكون هناك صلابة تقديرية في أحكامنا، وستتسم الخطة بالمرونة ولن تكون النتائج صلبة فاصلة ونحن في إظهار وجهة نظر معينة لا نحاول إعادة خلقها، كما لن نحاول إعادة تكوينها منطقياً، ولكننا سنتناولها بالنقد والتحليل ونقرع الحجة بالحجة، وسنستفيد بجهود علماء الاجتماع وسنخضع أوجه النظر للنقد حتى تظهر لنا الحقيقة ناصعة.

---

(٩٥) فان راو **Rauh** (25) ص13 وما بعدها.

(٩٦) قارن بير **Berr** (21) الجزء الثاني والجزء الثالث.

الباب الأول

القضية وكيف أن تعرض

مشكلة المنهج :

لقد كان إميل دور كايم من بين جميع كتاب المحولية أول من أثر عن طريق نقده على الجغرافية الحديثة وعلى محاولاتها الحديثة، في المعاونة مع العلوم الأخرى على دراسة الإنسان دراسة معقولة. وقد تبعه بعد ذلك– مع اختلاف يسير– عدد من التلاميذ والتابعين في إذكاء نفس الروح الناقدة. وقد كانت نقطة البدء لدى هؤلاء واضحة تماماً.

ف. راتزال هو الممثل للجغرافية البشرية وقد درس هذا العلم في كتابه الشامل "الجغرافية البشرية" والذي يعتبر بحق قطعته الأدبية الفنية الكبرى، جميع الآثار التي تتركها الأرض في الحياة الاجتماعية بصفة عامة ولكن تلك خطة عويصة(٩٧).

أنها فوق طاقة رجل واحد. هذا بديهي ولا شك كما أنها فوق طاقة علم واحد. ولكن هذا يحتاج لتقرير. فالمشاكل التي بين أيدينا لا حصر لها. والأكثر من ذلك فهذه المشاكل غير متجانسة. حيث أنه إذا استطعنا وضع القاعدة وتحديد المشاكل فحلها سيكون موكولاً بالزمن. إن هذه المشاكل تبحث عن عدم التجانس لدرجة أنها تحتاج لتقسيم عملي.

فهل يمكن أن تكون طبيعة التربة وطبيعة المناخ ذات أثر على نظرة البشر الإجمالية للأمور وعلى أساطيرهم وخرافاتهم وعلى فنون

(٩٧) Durkheim, XVII, vol. III, 1898 – 9, P. 356

البشر المختلفة؟ هذا أمر يجب تحقيقه ولكن أليس الأفضل ترك هذه المشكلة لعلم الاجتماع الديني أو على الأقل علم الاجتماع الجمالي Sociologie religieuse ou esthetique؟

ليس هناك استحالة مبدئية في تأثير التربة والمناخ على تشكيل الأمم وتوجيه طرق تفكيرها أو على ميولها السياسية والقانونية والأخلاقية. ولكن أليس من الأفضل ترك هذا الموضوع لعلم الأثنولوجيا "تكوين الخلق" الجماعية L'ethnologie Collective لكي يبحثه من يجمع العوامل والقرائن الخاصة بها ويحل مشاكلها؟

وهناك احتمال كبير في أن التربة والمناخ ذات أثر في توزيع البشر على سطح الكرة الأرضية وفي تسهيل أو تصعيب تجمعهم أو انتشارهم عليها. ولكن علم السكان (الديموغرافيا) هو الذي يبحث ذلك التجمع أو الانتشار.

ونستطيع أن نرى الاعتراض الذي يمكن أن يعترض به. فنحن ندعي أن هناك علم حديث تكون ليجيب على هذا السؤال "ما هي الآثار التي تتركها البيئة الجغرافية بطرق مختلفة على المجتمعات البشرية" وهذه مشكلة كبيرة. ولكن يمكن تقسيمها إلى عدد من المشاكل تنتمي كل إلى علم مختلف. فكيف يستطيع إنسان واحد غير ذي دراية بهذه العلوم المختلفة. كيف يستطيع هذا الإنسان أن يكون بارعاً في هذه العلوم جميعاً بمجرد كونه جغرافي؟ مثل هذه الجغرافية ليست إلا دخيلة على النطاق الاقتصادي والاجتماعي وكل نتائجها داخلة في نطاق علوم

الاجتماع الأخرى وتصب فيها وتنتمي إليها. وما تستطيع إلا أن تحل محلاً ثانوياً بجانبها. وعالم الاجتماع وحده (الاجتماعي- الديموغرافي- والإيثولوجي... إلخ) هو الذي يستطيع أن يدرس هذه المشاكل دراسة منطقية حذرة. وليست دراسة مندفعة طائشة كالتي قام بها الجغرافيون، ولكن هل يقتصر الجغرافيون على ذلك[٩٨]؟

أليسوا يدرسون أثر الجغرافية في الإنسان كما يدرسون أثرها في المجتمعات البشرية؟ وهذا التقسيم ضروري بين الإنسان والمجتمعات البشرية. اللهم إلا إذا شأناً أن نجرد البشر ونستغل صفة الإنسانية فحسب. ولكن عالم الاجتماع يفرق بين الإنسان كفرد وبين المجتمعات البشرية.

وهنا أيضًا نجد معلومات الجغرافي إضافية. إذ أن هناك علم الاجتماع وعلم البناء الاجتماعي Morphologie Sociale الذي يدرس الأساس المادي للمجتمعات لا بقصد وصفها فقط بل شرحها أيضاً. أي دراسة الشكل الذي تتخذه عند توطيد أساسها في الأرض. عدد السكان وكثافتهم وتوزيع هؤلاء السكان ومجموع الأشياء التي تكون مركز الحياة الكلية في المجتمع "كما يقول ماوس Mawss[٩٩] وهكذا تبعت الجغرافية البشرية من مرقدها مرة ثانية أكثر تواضعاً وأكثر تحديداً في هدفها وأقل اندفاعاً في طريقها. وبذلك يستطيع علم البناء الاجتماعي أن يحتل مكانه ولا خطر عليها في أن تضل طريقها في شعاب متفرقة أو

---

(٩٨) Mauss, CCXV, p. 39
(٩٩) Mawss, CCXV, p. 39

تشتت مجهودها في محاولات ضائعة فإن البناء الاجتماعي سيظل تابعاً لآثار علمية محدودة الأفق واضحة الأهداف. وبذلك تصبح وظيفتها محددة وسهلة نسبياً ولن تضحي بشيء للجغرافية الاجتماعية كي تبحثه أو تجعله في نطاق بحثها. هذا ما يؤكده ماوس في الحولية الاجتماعية[١٠٠] يعيد تأكيده شورتز H. Schurtz[١٠١] **في كتابه** Volker Kunde **فهو لا يفهم من الجغرافية البشرية مجرد تأثير الموقع الجغرافي على الإنسان بصفة عامة، بل دراسة فعل الظواهر الأرضية على المجتمعات ولاسيما من ناحية نظر العادة وهنا يسرع م. ماوس لإنقاذ الموقف فيكتب قائلاً "إذا كان شورتز يضمن في تعريفه– الذي حاول أن يكون منطقياً– دراسة بيئة الشعوب وحركاتهم والتصاقهم بالأرض مكونين دولاً "جغرافية سياسية" فحسب– بل دراسة هجرات الشعوب وقيام المدن وتوزيع السكان على سطح الكرة– فإنه يكون قد وصل إلى فكرة البناء الاجتماعي الذي ندافع عنها هنا."**

هذه فقرة واضحة مفيدة بلا شك فهي تلقي ضوءاً على حقيقة المنافسة بين العلمين وشدتها وقد يعترض على هذا بأن تلك المنافسة نظرية فقط، ولكننا لا نستطيع أن نقلل من أهمية وسائل البحث وطرقه وروحه في المسائل الخاصة بالدراسة والبحث.

---

(١٠٠) XVII, vol. Viii, 1903 – 4 p. 167

(١٠١) Leipzig – Vienna, 190

علينا أن نختار بين الجغرافية البشرية وبين دراسة البناء الاجتماعي. ليست المسألة خاصة بعراك بين مدرستين بل نحن أمام مسألة جوهرية. فعلينا أن ننتقل بعد ذلك لفحص تلك المسألة.

الفصل الأول

علم المورثولوجيا الاجتماعية- أم الجغرافية البشرية

يمكن تلخيص اتهام علماء الاجتماع للجغرافية البشرية في كلمة واحدة.. هي الطموح، فهم يقولون للجغرافيين أن علمهم محدد غاية التحديد. ولكنه في نفس الوقت بعيد الطموح. فهم إذا بحثوا جماعة من البشر أو مجتمع إنساني فإنما يهتمون أولاً بالتربة التي تستقر عليها هذه المجموعة أو المجتمع وليس هذا الأساس أو العماد الأرضي الذي تستقر عليه المجتمعات الإنسانية شيء خامل لا قوة له. فإنه يتفاعل مع الناس الذين يعيشون عليه. إنه "يؤثر" فيهم طبيعياً وروحياً أنه "تفسيرهم" كمجموع وكأفراد. هو وحده الذي يؤثر فيهم ويعمل فيهم عمله. وهنا نجد التطرف الذي ينتهي إليه المتخصص ويبينه في وضوح.

يبدأ الجغرافي من التربة وليس من المجتمع ولا ريب أننا لا نستطيع أن نزعم أن التربة هي "علة" المجتمع. وراتزال يكتفي بأن يقول بأنها "الرباط الوحيد الماسك لكل شعب[١٠٢]" ولكنه يولي اهتمامه أولاً وقبل كل شيء نحو هذه التربة. فهو لا يهتم إلا بالعمل الجغرافي الذي يحاول أن يحلله ويبين أثره. وفي هذا ينقده ماوس قائلاً[١٠٣] "بدلاً من

---

[١٠٢] (٨٣) المجلد ١، ص ١ - ٢

[١٠٣] ماوس (١٧) ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ص ٤٢

دراسة المجتمعات الإنسانية والعوامل الخاصة لكل نشاطها فإنه يهتم بالتربة اهتماماً خاصاً ويركز عليها جهوده ويجعلها في مقدمة أبحاثه دائماً" أما علم البناء الاجتماعي فشيء آخر. فهو يدرس كل ما يتصل بالمجتمعات البشرية لا لذاتها ولكن بوصفها بعض العوامل التي أثرت في تكوينها كوسيلة لفهم حياة هذه المجتمعات ومصائرها فهي لا تبدأ بالتربة ولا يرجع إليها الفضل الأول في تشكيل المجتمعات البشرية ولما كان هذا العلم يدرس مجموع الأفراد الذين يكونون المجتمعات الإنسانية المختلفة وطرق حياتها وطبيعة الأمور التي تربط بين أفرادها[١٠٤] فإنه يستطيع أن يتبوأ مكانه ضمن العلوم الاجتماعية التي اهتم بها الأستاذان دوركايم وفوسونيه[١٠٥] Fauconnet ونلاحظ أن العالم الاجتماعي يهتم أولاً "بالمجتمع وليس بالأرض" كما يفعل الجغرافي. إذن فهناك اختلافاً في وجهة نظر الجغرافية البشرية وبين علم البناء الاجتماعي كما يقول ماوس[١٠٦] ونحن نوافق على ذلك بل نذهب إلى أبعد من هذا ونقول أن الفرق أعمق من هذا بحيث لا نستطيع أن نستبدل علم البناء الاجتماعي بعبارة الجغرافية البشرية. وعلينا أن نتقدم خطوة أخرى وندرس الفرق من حيث العمل لا من حيث النظر.

---

(١٠٤) دركايم (١٧) ١٨٩٩ ص ٥٢٠، Halbwachs La classe u ouvriere et les nivaeux du vie, p. 369, n. 1.

(١٠٥) 'Sociologie et sciences sociales', Rev. Philosophique, Mai 1903

(١٠٦) (١٧) المجلد ٩، ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥، ص ٤

١) الاعتراض على علم المورفولوجيا الاجتماعية ..

تجمعات بشرية لا تقوم على أساس جغرافي:

لا توجد جماعة بشرية أو مجتمع إنساني دون أساس أرضي. هذه هي نقطة البدء الجغرافية عادة. ولكن هذا القول مشوب بالشك فهناك فرق بين الجماعة والمجتمع. فهناك جماعات بشرية عديدة. من هذا النوع الذي يفضله علماء الاجتماع. لا تتأثر إلا قليلاً جدًا بالعوامل الجغرافية وقد بين لنا العلماء الأثنلوجيون الألمان والإنجليز والأمريكيون الذين كان ينقصهم التدريب الجغرافي والذين درسوا مجتمعات بدائية في العالم الجديد والمحيط الهادي وجدوا أن المجتمعات غير المتدينة لا يربط ببعضها البعض الآخر رباط جغرافي بالمعنى الدقيق. بل أنهم يرتبطون بالطواطم البعيدة كل البعد عن الأصول الجغرافية. ولنضرب مثلاً شعب الأرنتا الذي يسكن وسط أستراليا والتي وصلت إلينا تفاصيل نظامها الاجتماعي الذي بلغ من تعقيده أن اختلف الكتاب في روايته وتعليله. هذا الشعب الذي درسه سبنسر وجلين Gillen من عمداء علم الاجتماع عام ١٨٩٩ وعام ١٩٠٤ فيما يختص بشمال أستراليا الأصلية.

وهؤلاء البحاثة يمتازون بالدقة في جميع المعلومات وإن كانوا قد أخطأوا كما يقول ج – سيون[١٠٧] في أنهم وصفوا الظواهر

Rev. de geographie annuelle, Vol. I, 1906 – 7, P. 417 (١٠٧)

الاجتماعية والدينية لدى شعب لم يدرسوا أسس حياته المادية. على أي حال فإن دراستهم تلفت نظرنا إلى وجود ثلاث جماعات يتميز بعضها عن البعض الآخر بشكل معقد جداً. فهناك أولاً جماعات يتميز بعضها عن البعض الآخر تمييزاً جغرافياً، لكل وطنها الخاص، وكل تحمل اسم مكان يدل عليها، ولكل قطعة أرض محددة تعيش فيها. ولكن إلى جانب هذا جماعات أمية وصفها دور كايم في كتابه عن التنظيم الروحي للمجتمعات الأسترالية[١٠٨] L'organisation matrimonial des societies australienne

وهذه طوطمية التكوين لا يربطها بالتوزيع الجغرافي أي رباط. وفوق ذلك فإن التقسيم الطوطمي غير الجغرافي أهم لدى الأرنتا من التقسيم الجغرافي. وقد أشار دور كايم باستمرار (وخاصة فيما يختص بكتاب Howitt من قبائل جنوب شرق أستراليا) إلى الغموض الكبير الذي يكتنف التقسيم الجغرافي بقبائل الأرنتا في نظر المراقبين البيض.

مثل هذه الحالة تنتشر في بقية أنحاء أستراليا[١٠٩]. إذ يشمل القبائل الأسترالية عادة نوعان من التقسيم أحدهما جغرافي والآخر يعتمد على النظم الزوجية وكذلك الحال في قبائل سليمان التي درس الألمان قبائلها حيث يسود نظام طوطمي معقد منفصل تماماً عن التقسيم الجغرافي. وفي بعض قبائل الأمازون[١١٠] البدائية التي تعيش في الغابات ولم تخرج عن طور الهمجية قط. ومن الغريب أن تجد النظام الطوطمي

(١٠٨)(١٧) مجلد ٨، ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ ص ١٢١ وما بعدها.
(١٠٩)١٧ مجلد ٩، ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ص ٣٥٨ وما بعدها.
(١١٠) Beuchat (299) ص 253

يتلاشى أمام المبدأ الإقليمي ممثلاً في المجتمعات القروية ولا داعي هنا للإطالة في سرد الأمثلة[١١١].

ونستطيع أن نهمل استغلال هذه الأمثلة في الدلالة على ضآلة الأهمية الجغرافية وإن كانت بعض الملاحظات ذات أهمية في هذا الشأن.

أولاً– أن المجتمعات البشرية تمر باستمرار من الحالة غير الإقليمية إلى الحالة الإقليمية. فالمجتمعات الإقليمية تميل إلى أن تتجمع باستمرار وتستقر في مناطق جغرافية. فقد سبق ذكر التنظيم الطوطمي دون أساس جغرافي ولكن هذا بين شعوب مثل الهنود الببلو Pueblo Iniaus في أريوزونا ونيومكيسكو الذين أسسوا منازلهم وقراهم على نظام طوطمي ويكادون يعيشون في نظام مدني[١١٢] ومثل هذه الحالة تظهر أيضاً في الأرنتا الذين يعيشون بالقرب من خليج كربانتاريا[١١٣]. ففي هذه القبائل يتحد التقسيم الطوطمي والتقسيم الجغرافي. فلكل إقليم طوطمه الخاص ولهذا أصبح الرئيس الإداري للإقليم في نفس الوقت رئيسه الديني. وليس في هذا عجيب، فدوركايم نفسه يلاحظ أن هذه الحالة تظهر عندما يكون الطوطم ممثلاً للوراثة

---

(١١١)قارن (١٧) مجلد ٣، ١٨٩٨ – ١٨٩٩ ص ٣٤٠ – ٣٤٥ مجلد ٩، ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ص ٣٥٦ ... إلخ.

(١١٢)(١٧) مجلد ٧، ١٩٠٢ – ١٩٠٣ ص ٦٤٩

(١١٣)دور كايم (١٧) مجلد ٨، ١٩٠٣ – ١٩٠٤ ص ـ ١٢

الأبوية[١١٤]. وعندما لا يتدخل الزواج في تغيير طوطم أحد الزوجين أو نسلهما.

كما أننا لا نستطيع أن ننظر إلى هذه الجماعات غير الإقليمية على أنها تعيش في "الهواء" مثل الناس الممثلين في الرسوم الصينية كما يقول ميشيليه فمن المستحيل كما يقول دور كايم[١١٥] في معرض حديثه عن قبائل جنوب شرق أستراليا على أي مجموعة ألا ترتبط بأي رباط بالإقليم الذي تعيش فيه. فالتحليل الدقيق يبين أثر العوامل الجغرافية في أقل الجماعات "إقليمية" إذا أدخلنا المناخ ضمن العوامل الجغرافية فهناك مثلاً على الساحل الباسيفيكي لأمريكا الشمالية جماعات ذات تنظيم مزدوج مثل الكواكيوتل Kwakiutls الذين درسهم العالم الأمريكي بواس Boas[١١٦] أحدهما تقسيم دنيوي – تقسيم الشعب إلى قبائل وبطون وعشائر والآخر ديني ويعتمد على التقسيم إلى مجموعات تحت حماية آلهة وأرواح معينة. ولكن التقسيم الدنيوي يسود في الصيف والديني في الشتاء وهنا تنتصر الجغرافية مرة أخرى فالانقلاب الفصلي إذن هو السبب في التحول من تقسيم إلى تقسيم. وعلى أي حال فقد كانت ملاحظة دور كايم جديرة بالعناية.

إن راتزال وقد استأثرت عليه نتائج كتابه في الجغرافية البشرية– بآرائه السابقة في كتابة الجغرافية السياسية إلى الصبغة السياسية منه إلى

---

(١١٤)نفس المرجع.
(١١٥) (١٧) مجلد ٩، ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ص ٣٦٠
(١١٦) (١٧) مجلد ٣، ١٨٩٨ – ١٨٩٩ ص ٣٣٦

البحث العلمي والأقل قيمة من كتابه الأول. يشبه الاستعماريين الألمان حين يقول "إذا كانت أبسط الدول طرازاً لا يمكن تصورها دون أرض تنتمي إليها فكذلك الأمر فيما يتعلق بأبسط الطرز الاجتماعية. تلك نتيجة لا مفر منها[١١٧] الأسرة والقبيلة والمجتمع غير ممكنة بدون أرض. ولا يمكن فهم نموها بغير ربطها بتلك الأرض" ونلاحظ أولاً أن هذه الصور الاجتماعية ليست بدائية. فهناك جماعات بشرية لا تؤثر فيها الأرض إلا أثراً محدوداً جداً. ولكن ما هي طبيعة المشكلة بالضبط هنا؟ "أن أبسط الطرز الدولية لا يمكن تصورها دون أرض تنتمي إليها. وإضافة الكلمتين الأخيرتين لم توضعا عبثاً "الأسرة والقبيلة والمجتمع غير ممكنة بدون أرض ولا يمكن فهم نموها بغير ربطها بتلك الأرض" فهل هناك غير اختلاف يسير بين الجملتين؟ والفرق يرجع إلى أن العبارة الأولى تعود إلى علم الصور الاجتماعية والثانية إلى علم الجغرافية البشرية ومن الغريب أن دور كايم عندما يلاحظ أنه من المستحيل أن تنفصل مجموعة اجتماعية من الأرض التي تحتلها وألا تحمل آثارها إطلاقاً يشير إلى المعنى الثاني– التي يتفقدها في مكان آخر– بينما راتزال يكاد يرى الرأي الأول. ولكن كلا الرأيين غامض وهذا الغموض يجعل التحليل أمراً عسيراً.

على أنه كان هناك أساس لهذا التمييز. فثمة أشكال اجتماعية تعتمد على أساس أرضي فهؤلاء الذين وضعوا أيديهم على قطعة من الأرض احتجزوها لمتعتهم الخاصة واعتبروها منطقتهم الخاصة. هذه

([١١٧])راتزال (٧٦).

الأرض مظهر نشاطهم- انعكاس نفسيتهم على الأرض بل أنها لتكاد تكون شكلهم بأدق معاني الكلمة. بالمعنى الذي يعرفه بوجليه Bougle عند تحليله فكرة الصور الاجتماعية في الحولية الاجتماعية عام ١٩٠٠ وعندما لخص آراء دور كايم الكلمة، "شكل" تستعمل هنا لمعنى دقيق فهي مسألة أشكال مادية يمكن أن تمثل تمثيلاً تصويرياً[١١٨]. ويضيف الاجتماعي إلى ذلك أن تلك الصور تكون المجال الحقيقي لعلم الصور الاجتماعية. وها نحن أولاء أمام أمر محدد ولكن هناك بعض المجتمعات التي لا تملك لها مناطق خاصة أو التي لا يحدها حدود ثابتة، حقاً أن البشر الذين ينتمون إليها يعيشون على الأرض وفي إقليم ما تحت سماء تظلل غيرهم من البشر. فهم إلى حد ما يشاركون غيرهم حياتهم الدنيا ولكنهم يختلفون عنهم كمجموعة ويكونون مجموعة من الصعب تصويرها بشكل جغرافي فهم لا ينتشرون في قطعة أرض خاصة.

ولكن ما قيمة هذا؟ هل للتمييز الذي قدمناه قيمة حقيقية؟ هل هو يؤيد الاجتماعي ويرجح كونه على الجغرافي؟ لسنا نميل إلى ذلك الرأي بسبب ما قدمنا من مجالات الانتقال بين العلمين. فالمجتمعات الأسترالية التي سببت كل هذا الجدل تعتمد في نظامها كما يلاحظ دور كايم[١١٩] على النظام الطوطمي. ثم جاء التقسيم الجغرافي بعد ذلك أو بالأحرى أن النظام الطوطمي كان سابقاً للتقسيم الجغرافي. ونكرر ما قلنا اعتماداً على التحليل الاجتماعي أن هذه مسألة ليست سهلة وتحتاج

---

(١١٨)(١٧)، ١٩٠٠، ص ١١٢ هذا المقال مفيد في تبيان وجهة نظر عالم الاجتماع عن المورفولوجيا الاجتماعية.

(١١٩)(١٧) مجلد ٩، ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ص ٣٦٠

لشرح وتفسير "لم يحدد المجتمع أي عائق مادي ولم يقرر شكله أي مظهر تضاريس للأرض. فكانت القبيلة في الأصل مجموعة عشائر وليس أقاليم. ووحد القبيلة طوطم وما يرمز إليه من مثل "وأخيراً فإن هذه المناقشة تتمخض عن شيء واحد. أن أحد الموضوعات الهامة عند الاجتماعي وهو تلك الجماعات التي لا تمتاز بالمكانية– لا تقدم مجالاً كبيراً للجغرافي. لكن بعد كل ما قيل هل نستطيع أن نقول أنها تقدم للجغرافيين أكثر مما تقدم للاجتماعيين. فهؤلاء الأخيرون يقولون في شيء من اليأس حيث لا توجد صور" تدرس لا نجد مجالاً لنا وهذا ما لا يهتم به الجغرافي. إنه لا تهمه "الصور" الاجتماعية بقدر ما يهمه المكان الذي تعيش فيه الجماعات وما يمتاز به من مناخ وغلات وغيرها من مقومات الحياة التي يمتاز بها المكان الذي يرتاده الناس كأفراد في مجتمعات خاصة، مجتمعات جغرافية. وهنا نرى دون شك بشكل أكثر وضوحاً الفرق بين: الصورة الاجتماعية والجغرافية.

٢) أعراض علم المورفولوجيا (الصور) الاجتماعية

طموح الجغرافية:

هناك أهداف أخرى لعلم الصور الاجتماعية أكثر تحديداً وأحرى بها من نطاق الجغرافية والطموح ويكفي للدلالة عليها مثل واحد نقتبسه من كاتب يعني ما يقول. فلقد كان من آراء فيدال دي

لابلاش[120] أن زراعة الأرز ذات أثر كبير في مجتمعات الشرق الأقصى وذلك بسبب غلتها الوفيرة وما تتطلبه من عناية كبيرة. ففي كامبوديا تستطيع أسرة الفلاح أن تعيش– إذا اقتضى الحال– على غلة فدانين ونصف من الأرض. ولكنها تحتاج لأيدي عاملة عديدة تعمل باستمرار. فماذا يكون النتيجة؟ لقد صور النتيجة فيدال دي لابلاش. وهو متأثر بالوسط الذي يعيش فيه وبالجمهور الذي يحاضره وبموضوع محاضرته– الظروف الجغرافية للوقائع الاجتماعية– في مدرسة الدراسات الاجتماعية العليا "يجب أن أحذر من التعميم الكثير ولكن إذا كانت في المجتمعات الشرقية القصوى التي ترتكز على الصين نظام اجتماعي متين قوامه الأسرة والقرية. فإننا نرى علاقة سببية بين طريقة الزراعة التي ترجع إلى الظروف الجغرافية وبين النظام الاجتماعي الوحيد. الذي نجده هناك[121] ومهما يكن من براعة في هذه الملاحظة ومن أحكام في التحليل فإننا نجد هنا تفكيراً مهلهلاً وطموحاً في نفس الوقت: فثمة حضارات أخرى عديدة تمتاز بأساليب أخرى في الحياة. في بيئات أخرى حيث نظام اجتماعي متين تكون الأسرة والقرية حجر الأساس، وأكثر من ذلك يجب أن نحذر الرأي القديم الذي يرى أن هناك تدرجاً في المجتمعات البشرية من البسيط إلى المركب من أسفل إلى أعلى أي من العشائر، فالقرى فالقبائل فالأمم. فليست الأسرة أول نظام. فلقد استقت نظامها في جميع الحضارات وفي جميع الأقاليم من الخارج. إنها لم تأخذها من الظروف الجغرافية ولكن من قوة الدولة. من النظام السياسي

---

(١٢٠)قارن أيضاً وبكوف (١٢٤) ص ٢٢٨

(١٢١)فيدال (٣١) ص ١٨ (يرجع هذا المقال إلى عام ١٩٠٢).

كمجموع[١٢٢] أما وقد توطد النظام الاجتماعي فربما أضافت إليه زراعة الأرز في الشرق الأقصى حيث تسود قوة ماسكة تزيد في قوته ونفوذه ولكننا لا نستطيع أن نتطرف ونقول مع دور كايم– هذه المرة باحتراس– "أن المؤثرات الجغرافية أبعد من أن تكون تافهة. ولكنها لا تمتاز بصفة الشمول التي توصف بها... فليس هناك مظهر اجتماعي واحد يرجع إلى تلك المؤثرات على ما نعلم "ثم يضيف بعد ذلك كيف يمكن أن يحدث هذا" حيث أن الظروف الجغرافية تختلف من مكان إلى آخر "بينما نجد تطابقاً في الطرز الاجتماعية (إلا بعض الشذوذ في الأفراد) في معظم أنحاء العالم."

ولنضف مثلاً آخر. ولا نخش تعدد الأمثلة. إن المسكن البشري أو المنزل من أبرز الظواهر في "البيئة البشرية" التي يجب أن يدرسها الجغرافي بمنتهى العناية أننا نألف المسكن البشري في حضارتنا الغربية حتى أننا لنشعر بالدهشة إذا تفقدناه. فهناك في فيافي أرومرويكا Armorica تهفو النفس إلى مرأى طاحونة هواء وهي تطل عملاقة من وراء الأفق. وتبعث فيها الشعور بالثقة وإلا من بعض تلك الانفعالات التي مر بها. برسيفال لاندن في طريقه إلى لهاسا عندما رأى شجرة صفصاف في هضاب التبت المرتفعة. ولكن هل نستطيع أن نقول أن هذا المنزل هذا المأوى البشري مهما كان متلائماً في مظهره وترتيبه ومواد بنائه للتربة التي يقوم عليها أو للمناخ المحلي حقيقة جغرافية؟ قد يقول أنه حقيقة بشرية ولكن هذا لا يعني أن يكون حقيقة جغرافية.

---

(١٢٢)انظر الجزء الثاني الفصل الثالث.

هناك بعض الجغرافية في حقل من القمح ولكن حقل القمح ليس حقيقة جغرافية. إن المنزل حقيقة جغرافية للجغرافي على الأقل. هناك بعض الجغرافية في هذا الموضوع وليس معنى هذا أنه كله موضوع بحث للجغرافي. أو ليس له الحق في بحث الفكرة الأساسية للمنزل؟

من السهل أن نورد عدداً كبيراً من الجمل المقتبسة عن الجغرافيين لكي نبين أن بعضهم لا يهتم بشيء خارج موضوع بحثه. ويظهر جهلاً فاضحاً بالعلوم الأخرى. ويكتفي بعدد من الألفاظ والقوانين ما دامت مختصرة وشاملة، فكم منهم من يخرج إلى العالم بعدد قليل من هذه المفاتيح الكبيرة يعالج بها الأبواب التي تصادفه ويستشعر السعادة إذا انصاعت أمامه بعض الأقفال الكبيرة مهما كان قاسياً في معالجتها "أولى ضروريات الإنسان هي الماء" فإذا كان الماء السطحي قليلاً نادراً مثل الحال في بوس Bauce أو شامبانيا البيضاء وأقاليم الأحجار الجيرية بصفة عامة تتركز القوى كثيفة حول النقط التي يغرز فيها المياه. وإلا فأنها تمتد عدة أميال بحذاء مورد ماء. ولكن حيث يغزر الماء ويوزع توزيعاً حسناً كما هي الحال في جزيرة فرنسا الليموزين وبريتاني وويلز.. إلخ فإن المساكن تتفرق[١٢٣].

ثم يضاف إلى ذلك جزئين من خريطة ذات مقياس كبير لتصور تلك القضية. وبهذا نجد بين أيدينا قانوناً عاماً قد يكون قانوناً جغرافياً ثابتاً. لا يعرف تطبيقه أي حد. ولكن من الواضح أن الماء إذا انبثق من

(١٢٣)لسبانيول Lespagnol (179) ص 523

أي حفرة صغيرة تحفر فإن المنازل يمكن أن تتفرق فوق الإقليم وأن هذا التفرق أسهل لها من الحالة المناقضة[١٢٤]. ربما فهذه مسألة احتمالات. ومرة أخرى إذا كان أثر الظروف الطبيعية المحلية لا يمكن إنكارها. فهل معنى هذا رفض الظروف الأخرى؟ ألم يحدث مثلاً أن بناء القرية قد فكر فيه وتصوره جماعة من المهاجرين في بلد بعيد وتحت ظروف مناخية مختلفة. ثم حملوه معهم إلى حيث حط بهم الرحال؟ ألم يحدث أن بنى المهاجرون الجدد منازلهم على طراز منازلهم في وطنهم الأصلي[١٢٥]؟ ألم يحدث أن التجربة قد أتت على هذه الطرز بالتغيير دون الأسماء؟ فلننظر إلى منطقة Caux السكان هنا يتفرقون في الغرب ويتركزون في الشرق، بينما تكاد الظروف الطبيعية في كل قسم تنطبق على الآخر تماماً. وليس ما يمنع الشرق من عمل برك وما يمنع الغرب من حفر آبار كالشرق[١٢٦] أم مزرعة الـ Cauchios: وهي الطراز السائد في الإقليم كله، فهي ملائمة تماماً لحاجاته. ولكن أنواع المزارع الأخرى من طراز آخر قد تفي بالغرض أيضاً[١٢٧] تلك هي ملاحظات أحد الجغرافيين التي تدل على أن صاحبها لا يقنع بالمفاتيح الكبيرة التي تحدثنا عنها آنفاً. إلا أنها لا تدل على أن هناك الكثير من الباحثين في الجغرافية الذين لا يكترثون لغير موضوع بحثهم ولا يهتمون بما عند جيرانهم. ففي حالة المساكن هناك ميل طبيعي لإهمال أو إنكار الأثر الثقافي (الذي يرجع إلى اختلاف السلالات) في تشكيل المساكن. وهذا ما قال به متزين

---

(١٢٤) Sion (229) ص 465

(١٢٥)نفس المرجع ص 446

(١٢٦)نفس المرجع 493

(١٢٧)نفس المرجع ص 495

Meitzen دون أن يلقى معارضة[١٢٨] رغم أنه يمكن إثارة كثير من الاعتراضات على نظريته أو إهمال الجانب التاريخي وهو لا يمت دائماً إلى اختلاف السلالات ولكن هذه تحفظات يجب على الجغرافيين مراعاتها. مثل هذا التجاهل اللاشعوري أو اللاإرادي لقوة التقاليد وفعل العوامل الاجتماعية الدائب قد يؤدي بالاجتماعيين إلى إلقاء اللوم على الجغرافيين على الأخطاء التي يقعون فيها بسبب هذا التجاهل. ولكن تلك أخطاء علم حديث متوثب لا يعرف كيف يحدد مجاله أو مجال جيرانه.

والآن فنلخص ما أسلفنا. إننا نفهم الآن أفضل من ذي قبل ماذا يقصد المورفولوجيون الاجتماعيون عندما يصبون جام غضبهم على ذلك العلم الكبير الطموح والذي يسمي نفسه بالجغرافية البشرية[١٢٩] فهم يقصدون بالطموح أمرين– أولاً– أن الجغرافيين يحاولون أن يفسروا بجغرافيتهم أو على الأقل أن يشملوا في دراستهم جميع المجتمعات البشرية من أبسطها حتى أشدها تعقيداً ومن أدناها إلى أرقاها. وإن المرء إذا استمع لهم– أي إلى الجغرافيين– ليخيل إليه أن جميع العلوم الاجتماعية طوع أمرهم. بينما ليس الأمر كذلك. فالمجتمعات لكي توزع توزيعاً مكانياً يجب أن تحرر من قبضتهم. وثانياً– أنهم يحاولون تفسير تلك المجتمعات الأخيرة التي لا تدخل ضمن نطاق بحثهم بالجغرافيا–

---

(١٢٨)المراجع (١٦٣) راجع أيضًا Brunhes (66) ص 760 - 770

(١٢٩)سيمياند Simiand (17) المجلد 11، 1906، 1907 723 (كلمة السطح كما يعني بها الكتاب الفرنسيون تعني مظهر البيئة الطبيعية العام. فهي نتاج السطح والنبات الذي يغطي السطح) "المعرب".

والجغرافيا وحدها. وهم هنا يرتكبون خطأ كبيراً وهو إهمال شأن علم الاجتماع بنظرياته وطرق بحثه الحريصة لأن هدفه موضوعي ومحدد أمامه.

لقد اعتذرنا عن الجغرافيين في النقطة الأولى. فإن الشكاوى ضد الجغرافيين فيها لا تقوم على أساس متين. فهناك مجتمعات بشرية لا تعتمد اعتماداً تاماً على سطح الأرض. ونعني بالسطح هنا أبسط ما يمكن أن تعنيه الكلمة. لأنهم لم يقتطعوا لأنفسهم جانباً معيناً من السطح. ولكن هناك مجتمعات أخرى لعب السطح فيها دوراً رئيسياً في حياتها المادية. كما أن هناك عوامل أخرى بجانب السطح تؤثر في حياة المجتمعات. وهذه العوامل يخضع لها المجتمعات التي لا تستقل بتوزيع مكاني خاص أو تقتطع لها إقليماً خاصاً. ولكن هل تتحرر هذه المجتمعات من ربقة السطح حقيقة؟ إذا لم يكن كذلك فإن المورفولوجية الاجتماعية لا تفيدنا هنا. لأنها تقصر اهتماماً على شكل المجتمعات بالذات. فهل علينا أن نختار؟ ليس من السهل أن نقول ذلك لأنه لا تكافؤ بين أغراض الدراسة يمكن أن نختار منها؟

أما عن النقطة الثانية فإننا عندما نستعرض حقائقها أمامنا تحت ضوء واحد هو بيان دور العامل الجغرافي في ظهورها أو أهمية هذا الدور فنحن بالضرورة نغالي في إظهار أهمية هذا العامل الذي كان له شأن لا شك فيه ولكننا نهمل أمر العوامل الأخرى لأننا لم نبحثها البحث الكافي.

هذا ما كتبه دور كايم في تقديمه راتزال[١٣٠] وهذه الملاحظة جديرة بالعناية ولكن الكاتب غالى شيئاً ما عندما قال أننا نفعل ذلك "بالضرورة" فلربما كانت هذه الكلمة مطابقة للحال تماماً مع راتزال وكلن هناك جغرافيون أبرياء من تلك التهمة "فالأسباب من كل نوع تتقابل وتتلاقى لتساهم في المظهر الأخير الذي تظهر فيه بلادنا ذات التاريخ القديم. ودراسة تلك الأسباب أمر دقيق فأمامنا أسباب ونتائج ولكن ليس أمامنا أي مجموعة من الأسباب يمكن أن تتصف بالضرورة. فقد تكون وقائع تاريخية معينة وجهت الأسباب والمسببات وجهة أخرى. وكان من الممكن أن تتجه وجهة أخرى لو تدخلت وقائع تاريخية غيرها. لا يمكن أن يكون هناك حتم تاريخي. وبالرغم من ذلك فالجغرافيا هي المفتاح الذي لا غنى عنه". هذا رأي دي لابلاش. وفي موضع آخر يقول "لتفسير هذه الوقائع المعقدة التي خضعت لظروف الزمان والمكان المتغيرة المتعقدة. يجب أن يساهم التحليل الجغرافي إلى جانب المؤثرات الأخلاقية والتاريخية بنصيب أما استقلال إحدى الطرق بتفسير هذه الظروف فإنه لا يمكن أن يرضي عقلاً أوقف نفسه على البحث عن الحقيقة ولم يسخر نفسه لطريقة من طرق البحث" فأين من هذا اتهامات دور كايم "بالضرورة" أو ذلك الاقتصار على طريقة واحدة التي يتحدث عنها ماوس Mauss في موضع آخر. هذه مقتطفات من آراء أحد الجغرافيين تنفي بشدة ذلك الاتهام مع كلمات فيدال دي لابلاش.

([١٣٠])"١٧" مجلد ٣، ١٨٩٨ – ١٨٩٩ ص ٥٥٧ "٩" فيدال، "٧١" هوكل

٣) غلطة راتزل- لماذا لم يشمل بحثه

الجغرافيا البشرية كلها

سنناقش الآن غلطة مشتركة بين أصحاب طرق البحث الذين لم يتخصصوا في العلوم التي تصدوا للبحث فيها. غلطة لم ينج من الوقوع فيها أشدهم حرصاً وحذراً. هؤلاء يضطرون إلى تهيئة أنفسهم بالوقائع– عدة البحث– ولكن على أضيق نطاق ممكن. لذلك فلا مفر لهم من الانتصار على رجل واحد أو كتاب واحد. ولكن من الخطر الخطير أن نحكم على ناشيء لا يزال في دور التكوين بكتاب واحد. ينقد وتبين معايبه ثم تعمم أوجه النقد على العلم بأكمله. وهذا ما فعله علماء الاجتماع إلى حد كبير.

بدأوا بكتاب أحسنوا اختياره دون شك وهو كتاب الجغرافية البشرية راتزل. وعندما يقول ماوس بعد دور كايم أن راتزل هو مؤسس علم الجغرافية البشرية فإنه يغالي وإن لم يخطيء. فراتزل أحد مؤسسي هذا العلم فقط إلا أنه لا يحق لراتزل أو لتلاميذه أن يحتكروا هذا الميدان من البحث العلمي. حقاً أن المدرسة الفرنسية تعترف بهذا العالم المؤسس. إذ أن الحولية الجغرافية Annales de Geographie عندما ابتدأت سنة ١٨٩١ أفردت أولى أعدادها لملخص واف لأهم آراء ومباديء الجغرافي الألماني بمقاله بعنوان "عناصر الجغرافية البشرية" بقلم "ل. رافنو l. Raveneau" وعندما ظهر كتاب الجغرافيا السياسية

بعد ذلك نوه به بأهميته فيدال دي لابلاش نفسه واعتمد عليه عندما كتب كتابه في الجغرافيا السياسية. وأعقب ذلك هو كل M. G. Huckle بتلخيص أهم ما جاء في كتاب جغرافية التداول حسب فردريك راتزال[١٣١] في مجلة الحولية الجغرافية إلا أنه ليس معنى هذا أن كل ما كتبه الجغرافيون الفرنسيون يعتمد كل الاعتماد على ما كتبه راتزل وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة قط. فكتب النظريات وكتب عرض الطريقة والأغراض ووسائل البحث في الجغرافية. قليلة في اللغة الفرنسية ولا نستطيع إلا أن نشير إلى مقالات فيدال دي لابلاش الملهمة التي تفيض حيوية والدقيقة في نفس الوقت ثم كتاب "Brunhes برنز" الذي لا يضاهي غير أنه مفكك العرى وإن كان كثير المراجع وأخير كتابي كاميل فالو Camille Vallaux وهو البحر والسطح والدولة (١٩٠٨-١٩١١) ثم ما كتبه في أنسكلو بيديا دوان Doin العلمية. والتي يظهر فيها أثر راتزال واضحاً. وإن لم يكن دون تحفظ أو نقد أو تحرز. هذا هو كل ما هناك، وهو قليل، ولكنه كاف للجغرافيين الفرنسيين فالجغرافية البشرية لا تزال من الحداثة والجدة في رأيهم ولا يزال الدرب أمامها طويلاً بحيث تتطلب عملاً كبيراً ودراسة أوفى قبل أن يحاولوا تعريفها وتعيين مجالها. ومن الخطر أن نتسرع ونقصر بحثها على نطاق ضيق وإلا أضاعت على نفسها أحسن ما يمكن أن تقدمه هذا رأي ويمكن أن تضيف إلى ذلك أن هناك جغرافيون بشريون في إنجلترا وأمريكا وإيطاليا

(١٣١)أهم الآراء في هذه الكتب موجودة فيما كتبه فالو وبرن "٦٨"

وغير ذلك من الأقطار. لا يمكن أن نحشرهم في طريقة راتزل. فلربما كانت الراتزلية في فرنسا حديث لا يغني عن حقيقة.

وثمة أمر آخر فبينما كان دور كايم يعلن أن كتاب الأستاذ الألماني كان مجهوداً مضنياً متعدد الجوانب لدراسة المؤثرات التي يمكن للتربة أن تمارسها على الحياة بصفة عامة فإن فيدال دي لابلاش الذي يبدو أنه كان منسياً وأنه أعاد تكوين وحده العلم الجغرافي على أساس من الطبيعة والحياة[١٣٢] وهذان رأيان مختلفان فهل يمكن أن يكون أحدهما مخطئاً؟

الواقع أن راتزل شغل نفسه بأمرين في وقت واحد حتمية المؤثرات الجغرافية وأثرها على مصاير البشر وتوجيه التاريخ البشري وأبرز أهمية الإنسان كعامل جغرافي قوي. أو بعبارة أخرى تأسيس الجغرافية البشرية وخلقها في الواقع. إن آثار أستاذ ليبزج ليست من السهولة بحيث يمكن صوغها في عبارة واحدة. وقد فطن إلى ذلك دور كايم ولاحظه. فقد قال في كتابه النقدي الذي أشرنا إليه مراراً واقتبسنا منه تكراراً[١٣٣] قال "هناك ثلاثة أنواع من الأسئلة في الجغرافية البشرية أولاً– أن راتزل شغل نفسه بكيفية توزيع السكان ومجتمعهم على سطح الأرض مستعيناً بذلك بتعاليم همبولدت الذي أوحى بنشر الأطلس الطبيعي لمصنفة برجهاوس Berghaus سنة **١٨٣٦**. ثم أجهد نفسه في تفسير ذلك التقسيم والتوزيع الناتج من استمرار الحركات البشرية

(١٣٢)رقم "١١" جزء ١٣، ١٩٠٤ ص ٤١٧

(١٣٣)رقم "١٧" جزء ٣، ١٨٩٨ – ١٨٩٩ ص ٥٥٠ وما بعدها.

المتنوعة الأصول والتي أتبع الواحدة منها الأخرى خلال عصور التاريخ المختلفة. وأخيراً فقط عنى بالمؤثرات المختلفة التي يمكن أن تحدثها البيئة الطبيعية في الأفراد ومنهم على المجتمع بصفة عامة"... "وإن هذه المسألة الأخيرة تختلف عن سابقيها ولا تحتل إلا جزءاً صغيراً من الكتاب إذ لا يوقف عليها إلا الفصلين الأخيرين من الكتاب. وهذه المسائل كما يعترف المؤلف نفسه لا توجد إلا على هامش الموضوع[١٣٤] ونستطيع نحن أن نضيف إلى ذلك أن هذا الجزء الثالث من الجغرافية البشرية الذي تسطير عليه الآراء الشخصية والنزعات الخاصة سواء من الناحية السياسية أو غيرها. أقل الأجزاء شأناً دون شك. ولا شك أن نقد دور كايم كان موجهاً على هذا الجزء فحسب. وأنه أثاره العنوان الثاني للمجلد الأول من الكتاب وهو "مباديء وتطبيق الجغرافية على التاريخ" بل أنه دفعه إلى دمغ هذا العلم الناشيء بالطموح والغرور (Grundzuge der Anwendung der Erdrunde auf die Geschichte)

وربما لم يكن خارج نطاق هذا البحث أن نتساءل كيف عرض راتزل نفسه طائعاً مختاراً لهذا الضرب من النقد فعالم كهذا ضليع في العلوم الطبيعية قد اعتنق أكثر من سواه فكرة الوحدة الكونية[١٣٥] تلك الفكرة كانت كافية لدينا بأن نعتبر برنارد فارينيوس Bernard Varenius سنة ١٦٥٠ المؤسس الحقيقي لعلم الجغرافية[١٣٦] وكان راتزل

---

(١٣٤) دور كايم نفس المصدر السابق.

(١٣٥)فيدال "٢٩" ص ١٢٩ وما بعدها- جالوا Jour. De Savants 1906 ص 148 - 162

(٢) نفس المرجع السابق.

كجغرافي، يعمل دائماً على بناء الجغرافية البشرية على أساس ما يمكن من الجغرافية الطبيعية. فلماذا يخرج عن طريقه وينسى تعاليمه ومبادئه في البحث ويمد يداً لهؤلاء الطموحين الذين يبحثون عبثاً عن فلسفة للجغرافية إلا أن تكون خادماً ذلولاً لغيرها من العلوم. سنطلق على التاريخ كما كان يطلق عليها؟ فإذا كان صحيحاً– وهو صحيح– أن كثيراً من مباديء راتزل قد اعتراها الخسوف[١٣٧] في المجلد الأول من الجغرافية البشرية وأن منطق راتزل كان يتسع لكثير من المتناقضات فهل هذا يرجع إلى نقطة الضعف التي أظهرناها من قبل؟ لا نظن ذلك. إن غلطة راتزل أنه قبل مسلماً كثيراً من المشاكل على وضعها التقليدي. ومعنى هذا أنه لم يفكر جدياً في مراجعتها فقد كان راتزل وتلاميذه وكثير من الجغرافيين الذين يستحقون ما وجه إليهم من نقد كل هؤلاء كانوا ضحايا ظروف وملابسات خارجية لا طاقة لهم بها. أو بعبارة أخرى ضحايا التاريخ.

٤) الجغرافية البشرية وريثة التاريخ

من الغريب دون شك أن تعتبر الجغرافية البشرية إن كانت في دور التكوين الآن ربيبة المؤرخين لأنها في نشأتها كانت نتيجة جهود رجال العلم– رجال التاريخ الطبيعي من ناحية والرحالة والسياسيون من جهة أخرى إلا أنه من الصحيح أيضًا أن المؤرخين في أحد عهود

---

(١٣٧)رافينو "١١١" جزء ا، ١٨٩١ – ١٨٩٢ ص ٣٣٢

الجغرافيا الحرجة عندما لم يكن تحت علم منظم للجغرافيا. خطوا الخطوة الحاسمة كما بينا سابقاً في تشكيل مستقبل الجغرافيا.

ففي عصر ميشيليه بل في عصر دوري Durry لم يكن هناك من رجال الجغرافية إلا علماء ثانويين ورحالة هواة لا يجوبون إلا مكتباتهم العامرة لم يمارسوا إلا ما أسماه بيرسوه Bersot نقلاً عن فيدال دي لا بلاش[١٣٨] تلك الجغرافية الصعبة المستقاة من الكتب.

أما عن الجغرافية السهلة فقد اختزلت في النهاية إلى قوائم بأسماء الأعلام. كانت الجغرافية فرعاً من المعرفة. له فائدته العملية ولكن لا قوام له ولا يدعو إلى الاهتمام. فلم يكن في مؤلفات أساتذتها أو في مذكرات خلفاء دانفيل d'A ما يمكن أن يقدم للمؤرخ على أنه آراء محددة ذات هدف وطريقة أو ذات علاقة بعلم الجغرافيا دون خلط بالوصف.

ولكن من ناحية أخرى فماذا كان التاريخ عندما نادى ميشيليه في مقدمة سنة ١٨٦٩ بضرورة إقامة صرح التاريخ على أساس الطبيعة؟ وماذا كان بعد جهود ميشيليه لتوسيعه وإغنائه وتغيير الآراء التقليدية السائدة فيه؟ لتتبع تاريخ فرنسا كان لابد من إيضاح صورتين جهاد الملوك السياسي لتأسيس حكم المركزية والحكم المطلق في الداخل. وتكتيل الأقاليم شيئاً فشيئاً حول الدومين الملكي وبذلك يملأ الفراغ الفرنسي في ذلك الركن الخاص من أوروبا الذي تحيط به "حدود طبيعية"

([١٣٨]) "١١" ١٩٠٥ ص ١٩٤

فهذا الصراع الطويل كان سياسياً بطبيعة الحال: وبقى التاريخ فوق كل شيء دراسة سياسية. وإذا كان ميشيليه ببصيرته النفاذة فوق الاتهام بأنه حدد فكرة التاريخ وابتسرها وإذا كان قد أراد كما كان يجب أن يقول أن يعيد حياة الماضي بأكملها المسرح والناس والشعب والقادة والحوادث والنظم السياسية والاجتماعية والمعتقدات السائدة وإذا شعر بضرورة إنارة التاريخ السياسي بضوء من التاريخ الداخلي أي بالفلسفة والدين والقانون والأدب فإنه هنا لم يستطع سوى أن يتنبأ أن يأمل إذ أن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لم تخطر له ببال[١٣٩].

التاريخ السياسي والجغرافية السياسية– ولم تكن الأخيرة كما تدل كل قواميس منتصف القرن الماضي إلا "فرعاً من الأول" ومن "الإحصاءات" كما كان يضاف أحياناً فقد تعود المؤرخون أن يطلبوا من الجغرافي أن يوضح لهم شكل الدول. ومساحتها وتغير ذلك الشكل بالانقطاع أو الإضافة. وأن يساعدهم على فهمها فكان من الطبيعي أن يبدأ من الخريطة السياسية للعالم. كما انتهت إليها أجيال متتابعة من التاريخ ومن البشر ولم تكن مهمته أن يشرح بل أن يبرر فقد كان هناك شعور غامض بأن ما انتهى إليه الأمر هو خير ما يمكن أن ينتهي به وأن هناك نوعًا من الضرورة تخضع له الدول في الشكل الذي تتخذه.

فقسم سطح الأرض إلى ممالك وجمهوريات أقسام ثابتة الشكل يحيط بها حدود طبيعية ولنا أن نلاحظ أن الجغرافيون في ذلك

---

(١٣٩)انظر المقدمة ص ١١

العهد لم يكونوا من نوع كفيء لأن يغير من آراء المؤرخين. ولم تكن دراستهم عن الجغرافية المقارنة في بدء هذا القرن قائمة على أساس علمي صحيح.

عندما حاول كارل رنر أن يقارن الأشكال الجغرافية فإنه كان يفكر على طريقة المؤرخين القدماء فقارن القارات[١٤٠] بعضها بالبعض الآخر. ونظر إليها بارتياح على أنها شخصيات أرضية وكما لو أن أوروبا أو آسيا أو أفريقيا أو أمريكا تلك "الوحدات" التي لا يعترف بها المحدثون من جيولوجيون أو علماء نبات أو علماء حيوان كما لو كانت تلك الوحدات لا تتكون في الواقع من مجموعات من أشلاء غير متجانسة أو مجرد تجمعات أجزاء من السطح بعضها إلى البعض الآخر:

مشكلة التقسيم هذه يبدو أنها مسألة شكل لا غير. ولكنها في الحقيقة مسألة على جانب عظيم من الأهمية وهي تدخل في صميم– كما بينا– تصور أي فرد منا للجغرافية. ومن المستحسن أن نقرأ عن هذا الموضوع المقال القيم الذي كتبه فيدال دي لابلاش عن "الأقسام الأساسية للأرض الفرنسية" والذي ظهر كمقال نقدي علمي سنة ١٨٨٨[١٤١] ثم أعيد طبعه كمقدمة لكتاب مقرر على المدارس الثانوية[١٤٢] ولكن هذا المقال لم يكن معروفاً أيام رنز أو حتى ما بعده.

---

(١٤٠)جوليان "٤٥" ص ٤٧

(١٤١) Mehediniti (s), La Geog. Comparee d'apres Ritter et Perschel, xi, 1901, p. 7

(١٤٢) Bulletin Litteraire, vol., 1888- 9 كتاب فرنسا للمدارس الثانوية

وكانت جهود الكتاب عند نهاية القرن الثامن عشر غير ذات جدوى. هؤلاء الكتاب من أمثال جتارد Guettard ومونيه Monet وجيرو سلافي Girau d Solaire الذين أومضوا بفكرة الإقليم الطبيعي حتى أن جالوا M. L. Gallois قد أسس تلك الفكرة تماماً[١٤٣] وعبثاً حاول Montabert de Coquebert و Qualius d'Halloy أن يقسموا سطح الأرض على أساس من طبيعة التربة ونوعها موقعها الجغرافي "وعبثاً أيضاً ما حاوله كل من Elie de Beaumont وDufrenoy du Coumot و Antoine Passy سنة ١٨٤١ في كتابهم الشهير عن "شرح الخريطة الجيولوجية" حيث أنهم قرروا في شجاعة ملحوظة وبصيرة نافذة العلاقة الوثيقة بين الجغرافية الطبيعية وبين الجغرافية بمعناها الضيق كما قالوا[١٤٤] وبرروا الضرورة الملحة التي توجب على الجغرافي أن يتخذ الأقاليم الطبيعية أساساً لبحثه ودراسته. تلك هي صيحة الجيولوجيون في ذلك الوقت. ولعل معظمهم وجد أنه من الأفق له أن يسير في ركاب المؤرخين السياسيين والإداريين. فبعد وصف فرنسا في أقاليمها مزقوها إلى أقسامها الإدارية. وبدل أن يحاولوا إبداع مبدأ معقولاً للتقسيم الجغرافي فإنهم ظلوا تحت أسر الآراء القديمة من رسم حدود سياسية وخطوط تفصل بين وحدة إدارية وأخرى. فهذا هو المحور الجغرافي للإحصاء العام والخاص لفرنسا يكتب "في مقدمته عند مطلع القرن الحالي أننا نفترض" أن فرنسا تنقسم إلى عشرة أجزاء رئيسية أطلقنا عليها اسم "أقاليم" وقد بدت لنا تلك الطريقة أكثر ما تكون فائدة

---

(١٤٣) لوسيان فيفر Rev. Synt. Historique, 1908, p. 269

(١٤٤)انظر جالوا "٣٤" ص ٢١ وما بعدها.

في أنها تستقل عن تقسيم السياسيين والإداريين[١٤٥] هذا حسن ولكنه يضيف بعد ذلك "أن كل من هذه الأقاليم العشرة تنقسم بدورها إلى عدد مماثل من الأقسام الإدارية."

لم هذا التراجع؟ لكن ألم نر أيضاً أتباع بوش Bauche أنفسهم يوزعون أقساماً أخرى على أساس "أحواض نهرية" يفصل بعضها عن بعض خطوط تقسيم المياه" تلك الخطوط التي تسير فوق رموز الجبال على الخرائط والتي تعبر مستنقعات "البريبيت وتقطع خريطة أوروبا من طرف إلى آخر" من رأس فيجاتز إلى رأس طرفة؟

هكذا قصر الجغرافيون والمؤرخون جهودهم على الشكل بمعناه الظاهري بنفس المعنى الذي نعاه أنجر Ingres في نفس القوة على ديلا كروا Delacroix بالرغم من أن الفريقين لم يعرفا شيئاً عن ديلا كروا في ذلك العهد بعد.

لقد ورد ذكر العلاقة بين السطح وبين التاريخ. وكان يعني بالسطح مجرد التضاريس مستقلة عما يعيش عليها من حيوان أو نبات أو أشجار أو بشر. كانت التضاريس الأصلية المسرح الصلب الذي تقتطع منه الدول نصيبها وكان هم الباحثين الوحيد درس تلك الأقسام كما اقتطعها السياسيون.

---

(١٤٥)فيما يتعلق بأحواض الأنهار انظروا جالوا نفس المرجع السابق.

٥) مخلفات الماضي- المشاكل القديمة والأحكام القديمة

ربما بدا أننا خرجنا عن موضوع هذا الكتاب الأصلي بأن شغلنا براتزال وبالمنافسة القوية بين مدرسة المورفولوجيا الاجتماعية والجغرافيا البشرية. ولكن هذا غير صحيح في الواقع.

إن الآراء في التاريخ والجغرافية قد تغيرت في الواقع الآن عما كانت عليه من قبل فليس يعنينا تاريخ الناس السياسي والقانوني والدستوري والحربي والدبلوماسي فحسب بل إنما نعني بتاريخ حياتهم كلها حضارتهم المادية والمعنوية. وتطور علومهم وآدابهم وأديانهم وصناعاتهم وتجارتهم وأقسامهم الاجتماعية وطبقاتهم ولنضرب مثلاً بتاريخ الزراعة وحدها. وكيف لاءم الناس أنفسهم بطبيعة الأرض. في جهادهم الطويل في تهيئتها وقطع ما عليها من غابات أو تصريف مائها. فكم من مشكلة تظهر وتحتاج لحل يعتمد إلى حد ما على الدراسات الجغرافية؟ نمو التاريخ وتطور الجغرافيا؟ فليتأمل الناس تلك المشكلة الثنائية التي أشرنا إليها تشير إلى الطريق الصحيح لفهم العلاقة بين الأرض والتاريخ ولن نقبل بعد الآن أن يدرس لنا التاريخ أو الجغرافية كما درست عامي ١٨٣٠/ ١٨٦٠.

ولكن هذا المنطق الصحيح لم يفهم كما ينبغي بسرعة واستيعاب. فالإنسان كما نعلم عبد التقاليد. وبعد أن وجدت الجغرافية البشرية ونظمت كعلم حديث ثم تعلم المؤرخون كيف يلجأون إلى

الجغرافية لحل ما يعن لهم من مشاكل جغرافية في طبيعتنا. ولكنهم عندئذ وجدوا أنفسهم في أرض غير أرضهم أسرى في مجال غير مجالهم وخاطروا بأنفسهم في غير ما يعلمون وتلك غلطة يمكن أن تغتفر ولكنها كانت غلطة كبيرة.

لا يمكن أن يوجد علم بدون تفكير لدى الطلاب فليس العلم مجرد الإجابة على عدد من الأسئلة باسم علم آخر أو مجرد التعاون مع علم آخر عن طريق روح البحث والمعرفة. فعلى المؤرخين أن يسألوا أنفسهم بطريقتهم الخاصة مهدفين إلى أغراضهم الخاصة. مثلاً فليحاولوا الإجابة على مثل هذا السؤال. ما هو الدور الذي لعبته الظروف الجغرافية في تطور سلالة ما؟ مثل هذه الإجابة قد تنفع المؤرخين وتغنيهم عن أبحاث عديدة كلما طرأت لهم هذه المشكلة من جديد أما الجغرافيون فيجب ألا يقنعوا بالإجابة على مثل هذا السؤال فحسب– ولكن أنى لنا أن ندعي ذلك؟

لقد أشرنا من قبل إليه ذلك الخلط العام بين الأقسام السياسية والأقسام الجغرافية ولكنا نجد أحد الجغرافيين يكتب مؤلفًا عنوانه "الجغرافية الطبيعية والحضارات الأصلية" ثم يشرح هذا العنوان بعنوان آخر عن الأقسام السياسية أو على الأصح الإدارية لمستعمرة فرنسية دون أن يطرأ له قط أن هذه المنطقة الكبيرة تنقسم إلى مناطق طبيعية أحق بالدراسة[١٤٦].

---

[١٤٦] Machat, F. Guinee Francaise, Les Rivrieres du snd et la Fonta- Dialon Paris, 1906

ولقد لفتنا الأنظار إلى غلطة ريتز الكبرى عندما قارن بين خطوط ارتفاعات دون أن يبين لنا أصلها وعندما تحدث عن القارات "كما يتحدث عالم الأجناس عن الزنجي أو عالم النبات عن شجرة النخيل[١٤٧] ولكن ها نحن نجد الآن جغرافيين يعقدون مقارنات بين أقطار تختلف بعضها عن بعض اختلاف إيطاليا عن كوريا- وهنا نجد جغرافيا آخر يهاجم تلك الطريقة[١٤٨] ولربما أخذت بلب من تغره الأشكال مثل هذه المقارنة فقارن بين اتجاه الجبال في كل. وبين امتداد كل من شبه الجزيرتين. ثم بين موقع كل من سبول وروما وذلك كل بمقارنة عامة قائمة على أطلس مدرسي عام. لقد أشرنا من قبل إلى تلك الفكرة العامة فلا زلنا نجد في الكتب الوحدات هي فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وإسبانيا. كما لو كانت تلك الوحدات جغرافية صحيحة متجانسة. كما أننا نجد وحدات سياسية مثل برغانديا ولورين وفرانس كوتييه وبروفانس كما لو كانت وحدات طبيعية محددة منذ الأزل. وكما لو كانت تلك الوحدات الأبدية فوق النقد وفوق الفحص الدقيق.

وهكذا تستمر المعتقدات القديمة وهكذا تعرض المشاكل بوضعه القديم وهنا بالذات تظهر غلطة راتزل إن كان هناك غلطة من جانبه. فإن مؤلف "الجغرافية البشرية" لم يحرر نفسه تماماً من هذه التقاليد العتيقة. واستعمل نفس التعابير الجغرافية القديمة ولم يكن مؤهلاً تماماً لنقدها ونبذها.

---

(١٤٧) نفس المكان من كتاب **Mehedinti** ص ٥

(١٤٨) فالو "١١١٣" ص ٢٦ – ٢٧

هناك في "الجغرافية البشرية" كما يقول دور كايم ثلاثة مسائل هامة تختلف بعضها عن البعض الآخر. ولكن المسألة الثالثة أشد اختلافاً عن سابقيها. وهذا صحيح وربما كانت تلك الملاحظة هي الدافع لصاحبها على الاسترسال في تفكيره الناقد. وفي حالة مشابهة نجد فيدال دي لابلاش يقول في معرض حديثه عن مركز الإنسان في الجغرافية أنها مسألة دراسة عامل قوي هام في الإنسان يعمل على تعديل سطح الأرض– تلك مسألة جغرافية بحتة صرفة[١٤٩] ونضيف إلى ذلك أنها مسألة رآها بافون Buffon من قبل بكل وضوح وشرحها بكل قوة وهي مسألة أخرى مختلفة تماماً "تحدد تمامًا أثر الظروف الجغرافية على مصائر البشر وتاريخهم" والبحث كما يقول راتزل عن مباديء تطبيق الجغرافية على التاريخ أن غلطة أستاذ لبيزج لم تكن في عدم اختياره أحد الموضوعين دون الآخر. بل في جمع القوانين عن كل هذه المسائل بعضها إلى البعض الآخر ووضعها في صعيد واحد على قدم المساواة في كتابه.

نفس المشكلة لا تقتصر على الجغرافيا البشرية بل أنها تظهر أيضاً في الجغرافيا السياسية وليس هنا مجال تكراراً ما وجه من نقد– ووجه بحق– على الأهداف المختلطة المتناقضة التي كان يرمي إليها راتزل في الجزء الأكبر من كتابه. والتي تقول أن الدور الأساسي الذي يلعبه في حياة المنظمات السياسية هي للمكان– المكان بمعناه الصحيح دون نظر إلى المميزات الجغرافية التي تكتنفه وتميزه والتي نعتقد أنه

(١٤٩)فيدال "٣٣" ص ٢٩٨

انفصال له عنها. ونجد شرح هذه الآراء في كتاب الجغرافية السياسية وفي كتاب آخر عنوانه المكان والزمان في الجغرافية والجيولوجيا Raum und Zeit in Geographie und Geologie (Nature-philosophische Betrachtungen, Leipzig, 1907) وإذا كان راتزل صاحب هذه الفكرة فمن العجب أنه هدمها في جزء آخر من كتابه لأنه كان مأخوذاً بفكرة سياسية[١٥٠] ملكت عليه لبه. لأنه بعد أن استعرض الدول المنتشرة على سطح الأرض فحص ميزاتها المختلفة ونواحي حياتها المتعددة في نظرية واحدة. في الرغبة والأمل والطمع في التوسع– أو بعبارة أخرى لا يجد في هذه النظرية هذه الغاية الكبيرة بالأشكال والمساحات والحدود الجغرافية الغامضة وبعبارة أخرى اتباع التاريخ السياسي تاريخ الوحدات السياسية؟

ورد في كتاب أرنولد جيو[١٥١]Arnold Guyot تلك العبارة "لقد حاول الأستاذ جيو تفسير التاريخ بالجغرافيا" وقد عقب فيدال دي لابلاش على هذا بقوة وحماس[١٥٢] قائلاً "لو كان هذا قائماً على أساس صحيح لكان أحسن من تفسير الجغرافيا بالتاريخ" وهذا عين الصواب. إن كلاً من الحقائق الجغرافية والحقائق التاريخية في الوقت الحاضر تنتمي إلى منهج خاص ومن المستحيل بل من السخف محاولة إدماج

---

(١٥٠)قارن بصفة خاصة فالو "٩٣" الفصل الخامس ص ١٤٥ وبرين وفالو "٦٨" فصل ٧ ص ٢٦٩ وما بعدها.

(١٥١)عن حبو قارن راتزل "٨٣" الطبعة الأولى والثانية ص ٣٧

(١٥٢)"١١" ص ١٩٦ رقم ١

بعضها في البعض الآخر. إنهما سلسلتان مختلفتان ولا بد من أن يظلا منفصلتين وإلا فلماذا نميز بينهما؟

إن وظيفة الجغرافي الصحيحة عندما يعالج مشكلة بشرية في بحثه هي أن يفهم ويوضح باستمرار العلاقات المعقدة بين الناس. الممثلين على مسرح التاريخ والصائغين له. وبين البيئة الطبيعية والبيولوجية بالطبيعة العضوية واللاعضوية وهذا ما سنحاول شرحه بالتفصيل. تلك مهمته الأساسية. أما ماعدا ذلك فتعد على نطاق بحث العلوم الأخرى. وهذا ما لم يحسن المؤرخون تصوره في أول القرن الماضي ومنتصفه. من أين لهم هذا؟ لقد كانت الجغرافيا مجرد علم وصفي. قوائم أسماء. حقاً توجهوا إليها بالسؤال ولكنهم أجابوا عن أسئلتهم كما يجيب المؤرخون وما نظم الجغرافيون في ذلك الوقت بمقدمين أجوبة غيرها أما إذا أقدم الجغرافيون المحدثون غافلين عن التقدم الكبير الذي جاهدوا حتى وصلوا إليه في علمهم على معالجة تلك المشاكل بالطريقة التقليدية القديمة وإذا أقدم رجال الاجتماع على اعتبار أنفسهم أنداء للجغرافيين في آرائهم العلمي بعد أن يتركوا قسطاً معقولاً من المنهج الجغرافي عندئذ نجد أنه من السهل تفهم أسباب ذلك الموقف والصعوبات التي تكتنفه. وهكذا نرى أن النزاع على الطريقة بل وتاريخ البحث نفسه له قيمة أخرى غير مجرد التشوق للمعرفة.

٦) جغرافية بشرية متواضعة

ما هي الجغرافية كما يتصورها الجغرافيون الذي لا يسيرون وراء راتزل؟ والذين وصلوا إلى تصورهم هذا بعد جهاد عنيف وأخطاء كبيرة. على مراحل بطيئة اكتنفتها صعوبات عديدة. ولكنهم وصلوا إلى تصور للجغرافية ولأغراضها ولمنهجها دون أن يعبئوا بالآراء المتباينة. إننا سنستعرض هذا الكفاح وسنعالج المشكلة من أساسها لكي نبين ما ترمي إليه الجغرافية بوضوح.

كتب فيدال دي لابلاش رأس المدرسة الفرنسية في الجغرافية سنة ١٩١٣ أي قرب نهاية حياته عندما تبلورت طريقته تماماً يقول "للجغرافية وهي تستمد معينها من شقيقاتها من العلوم الأخرى (مثل العلوم الطبيعية) من وحدة الكون. رسالة خاصة كيف أن القوانين الطبيعية والبيولوجية التي تتحكم في الكون تتحد وتتعدل عند عندما تطبق على سطح الأرض. إن عليها أن تدرس المظاهر المتغيرة التي تتخذها سطح الأرض طبقاً لاختلاف المكان".

مثل هذا التعريف كان جديراً بأن يسحر إسكندر فون هبولدت مؤسس الجغرافيا النباتية ومؤلف التوزيع الجغرافي للنباتات طبقاً للمناطق الحرارية وخطوط العرض[١٥٣] والذي كان يفرد مكاناً خاصاً باستمرار في كتبه وسجلات رحلاته لشرح وتحليل المظهر العام landscope ونحن نعرف تماماً أن فيدال دي لابلاش برع في هذه الناحية الوصفية

(١٥٣)"٣٣٣" ص ٢٩١

التحليلية[١٥٤] وأنه قام بدراسة طويلة لهمبولدت ورنز. ومن المصادفات الغريبة أن نقرأ في رسالة ترجع إلى هذا العهد بالذات ما يلي "إننا نعترف بصراحة بأن كيان الجغرافية يتكون من تحليل المظهر العام" ثم يستطرد الكاتب فيقول "إن كل آراء الجغرافي مستقاة من المظهر العام ولكن أليس هذا التعريف يخرج من نطاق الجغرافيا كل مشاكل الإنسان والمجتمعات البشرية؟ كلا مطلقًا فإن نفس الجغرافي الذي اقتبسنا منه كل العبارات التي تدل على تأثره بالجغرافي النباتي فلاهولت .Ch Flahault يقول عن "وسائل المعرفة الأخرى "ما يلي" أن استقلال الإحصاءات والتحليل التاريخي لتطور المجموعات البشرية طبقاً للوثائق والسجلات تساعدنا على تحديد آرائنا التي استقيناها من الطبيعة واستكمالها وتعديلها. ولكن ما دخل السجلات في المظهر العام". الجواب على ذلك أن الإنسان كائن حي على الأقل له حقوق النباتات والأشجار ويعتبر عاملاً أساسياً في المظهر العام.

الإنسان عامل جغرافي ولا أقل من هذا أنه يساهم في كل مكان بنصيبه في تعديل سطح الأرض. تلك المظاهر المتغيرة "والتي تعتبر" مهمة الجغرافي الأولى" أن يدرسها خلال القرن تلو القرن. وخلال الجهود البشرية المتراكمة وما يقوم به الإنسان من أعباء في جسارة وقدرة تبين لنا أن الإنسان عامل هام أساسي في تغيير مظهر سطح الأرض العام. إنه لا توجد مصدر من مصادر القوة لا يستطيع الإنسان أن يستغلها طبقاً

(١٥٤)De distribution geographie plantanum secundum caeli temperiem et altitodinam montium, Paris 1817

لإرادته. إنه لا يوجد قطر –كما قيل– لم تمتد إليه يد الإنسان ولم يحيل آثار ذلك التدخل أنه يعمل في سطح الأرض فرداً وعضوًا في جماعة من أصغر الجماعات إلى أكبرها. من الأسرة إلى الدولة وهذا الأثر أثر الإنسان في بيئته هو الدور الذي يلعبه الإنسان في الجغرافية.

ويصر فيدال دي لابلاش على أن يقول المقال المشار إليه آنفاً "الجغرافيا علم المكان لا علم الإنسان" ثم بعد ذلك نتحدث عن التحليل التاريخي لتطور الجماعات البشرية من السجلات والوثائق... نعم على الجغرافيا أن تحصل على ما يمكن أن تقدمه مثل تلك السجلات والوثائق. ومثل هذا التحليل من مساعدة أننا لا نحاول أن نحصل منها على معرفة إلى أي حد أثرت البيئة في الإنسان ولا ننتظر منها أن تدلنا على الدور الذي لعبته الظروف الجغرافية في تقرير مصاير البشر أو في تشكيل تاريخهم. ولكنها تساعدنا على معرفة إلى أي حد كان نشاط البشر والجماعات الإنسانية ذات أثر فعال في تغيير مظاهر البيئة "لشرح الظواهر الجغرافية التي شهدها الإنسان أو التي أحدثها الإنسان يجب أن تدرسها تطورها في الماضي على ضوء الوثائق" تلك هي كلمات ديمانجون[١٥٥] وسنرى أنه أيضاً لا يضحي بالنطاق الجغرافي لكي يحصل على صورة عامة للتطور.

ويقول فيدال دي لابلاش أيضاً "أن الجغرافيا تهتم بأحداث التاريخ طالما كانت تثير وتكشف عن خصائص معينة في البلاد التي

(١٥٥)ديمانجون "فيدال دي لابلاش" ص 8 Rev. universitaire, Juin 1918

حدث فيها. وقوى دفينة التي بدونها لظلت خامدة مستترة"[١٥٦] وهذا تعريف جغرافي محض كما يستطيع أن يرى أي إنسان. وهذا تعريف آخر له "الجغرافيا علم المكان وليس علم الإنسان" هنا صخرة النحاة.

هل تستطيع أوجه النقد التي قدمنا بها أن تنطبق على هذه التعاريف؟ كلا.

لقد رأينا كيف يتعرض أي باحث في الظروف الجغرافية أو في البناء الاجتماعي للضلال. نعني بذلك إرجاع أهمية كبرى ليست نهائية. بل فريدة للظروف الجغرافية. فهو معرض لأن يرى فيها الأسباب "بعض مظاهر البناء الاجتماعي التي قد يجهلها تماماً. ولكن دعنا نعيد السؤال على وجه آخر. لا تسأل ما هو أثر الجماعات البشرية على البيئة الجغرافية ولكن بشكل أكثر دقة– فالجغرافية علم المكان– فنقول ما هي المميزات في "مظهر معين" ذات دلالة جغرافية معينة. أو شكل تاريخي يمكن أن تفسر على أساس نشاط إيجابي أو سلبي لمجموعة معينة من البشر ذات شكل اجتماعي أو نظام اجتماعي معين؟ دعنا مثلاً بعد أن نبين انتشار محاصيل معينة انتشاراً غير طبيعي في الأزمنة القديمة في جهات لا تصلح لاستنباتها من العالم. نربط هذه الحقيقة بظاهرة العزلة التي تعمل الجماعات البشرية كلها تحت ضغطها كي تتحرر من العوز الخارجي. وتكفي نفسها مستغنية عن جيرانها. في هذه الحالة إذا كنا دقيقين والأولى أن نقول إذا لم نكن نهائيين، فالكروم في

([١٥٦])سور "٢٣" ص ١٠ (٣) نفس المصدر ص ٣٩

La Recherches geographiques dans les archives, 1907, p. 195 et seq.

مورفان[١٥٧] كان من سعة الانتشار في القرون الوسطى لدرجة أن أحد الكانتوبات اشتق اسمه من الكرم Savignes (في القرن الرابع عشر) بالرغم من أن التربة لا تصلح قط للكروم. ذلك المحصول الذي يحتاج لحرارة معينة مثل كروم الفلاند رز ورماندي[١٥٨] ولكن تلك كانت الضرورة التي أملتها العزلة ومن هنا جاء خلط النبيذ بالعسل والتوابل والمواد الأخرى لكي تسيغ طعم ذلك النبيذ الغريب المذاق.

في الواقع إذا أردنا أن ننظر للجغرافية من وجهة نظر الإنسان– وهي إحدى وجهات النظر المختلفة فإننا نجد أنها العلم الذي يدرس البيئة التي تحتضن الحياة الإنسانية وتحيطنا علماً بكل ما يتعلق بها. إنها أولاً تصف ثم تحلل ثم تحاول شرح تلك الحياة وهنا نتعرض للهجوم على غيرها وإلى أن يهجم عليها أنها تشمل الإنسان نفسه عن طريق نشاطه عمله في الهدم وعمله في الخلق– عمله المباشر وعمله غير المباشر إنها تشمله طالما يفاعل مع البيئة ويترك آثاره عليها ويغير فيها ويلاءم نفسه معاً.

إنما لا نقول وما ينبغي لها أن تقول أن "بيت الإنسان تفسره التربة" بل أنها تقرر ويجب أن تقرر ببساطة أن "أن هذا المنزل الذي يكون أحياناً بناء متواضعاً وأحياناً بناء شاهقاً. شيء يجمع بين الجدة

---

(١٥٧) (225) De charmusse, Cartulaire d'Autun, 1, 2, p 74 & Levainville, p. (1521)

(١٥٨)سيون (229) Musset, Limite de la culture de la ligne dans l'ouest de la France, XI, 1908, P. 268.

بلانشارد (٢١٧) ص ٣٧ ـ ٣٨

والقدم. وهو من هذه الناحية يخرج عن نطاق الجغرافية ولكنه بالرغم من هذا ينتهي إلى "المظهر العام" ويعتمد على البيئة الجغرافية ويتلاءم معها في أوجه معينة في عناصر خاصة وترتيبات بعينها. وصفات ثانوية أو أساسية أخرى ومن هنا فقط يدخل في نطاق بحثي".

كما أنها لا تقول وما ينبغي أن نقول "أن نمو وتوسع وتطور تلك الدولة يفسر بالسطح الذي تحتله ومميزات معينة في موقعها الجغرافي". كلا إلى أن من الطبيعي أن يتقدم رجل الاجتماع ويقول "من غير الاجتماعي يعرف البناء المادي للمجموعات البشرية وكيفية توزيع عناصرها في المكان؟ وهذا في الواقع موضوع أحد أفرع علم الاجتماع وهو علم المورفولوجيا الاجتماعية".

التربة لا الدولة– هذا ما يجب أن تقتصر الجغرافية بحثها عليه. وهنا أيضاً لا تدل الدولة إلا أنها من الناحية التي درست بها الإنسان. ليس عن طريق الأمور المعنوية مثل المؤسسات الاجتماعية. وما إليها كلا إنها كالأثنوغرافي يضع يده على الآثار المادية للحضارات ويرقيها– كذلك الجغرافية تدرس الدولة من ناحية أثر الإنسان كعضو في الدولة في تعديل البيئة الجغرافية أثر الإنسان على التربة[١٥٩] ثم ماذا بعد؟

أما عن الآخرين فهم آخر من يتناولوا أبحاث الجغرافيين ودراساتهم الإقليمية يستعدون كما يشاءون مثل هذا العالم الذي حاول

---

(١٥٩)هذا عنوان لمقال مسجل في مجلة Zeittschrift of social wissens – chaft, 1903 t.v, p. 287.

أن يفسر تكوين الحشرات التي يدرسها على ضوء السطح والمناخ. أو يوتي الذي حاول شرح طبائع الإنجليز أو الأمريكان له أن يستعير من الجغرافيا ما يشاء. على أنه سيكتب بحثاً وليطلق عليه ما شاء من الأسماء ولكن ليس له أن يدعي أنه يبحث في الجغرافيا أنه استعار معلومات جغرافية لأغراض غير جغرافية.

كذلك الاجتماعي الذي ينظر إلى المجتمعات كأنها مجرد مجموعات من البشر موزعة في أرجاء مختلفة من الأرض، لا يخطيء فيقول "أنه يعتبر المجتمعات مستقلة عن أساسها الأرض" هذا الاجتماعي حر في أن يبحث عن أثر تضاريس السطح وخصائصها المعدنية ونباتها وحيوانها في النظم الاجتماعية[١٦٠] أنه سيتناول معلومات جغرافية من كتب الجغرافيا ولكنه سيتناولها كعالم اجتماعي لأغراض غير جغرافية.

أو بعبارة أخرى- أن المورفولوجيا الاجتماعية لن تستطيع أن تقمع الجغرافية البشرية وتستغلها لأغراضها. لأن الدراستين مختلفتين في المنهج وفي الميول وفي الأهداف.

---

(١٦٠)بير "٢٢" ص ٨٣ (٣) ماوس "٢١٥" ص ٤٢



الفصل الثاني

مسألة المبدأ، ومنهج البحث

التطور البشري، والتطور التاريخي

ربما قيل لنا أننا أسلنا الزيت على الماء، وكنا في ذلك من العاقلين، فمن الواضح أننا تخلصنا من اتهام علماء الاجتماع لنا بأننا طامحون، أي أننا قللنا من إدعاءات الجغرافيين وخففناها إلى أقل حد ممكن، وأننا لم نوف الجغرافيا البشرية إلا حقها، دون زيادة أو نقصان، في أنها تساهم في ميدان أوسع ولا تخلط بين الأمور كما حاول أتباع راتزل أن يفعلوا.

نعم أننا تخلصنا من هذا الاتهام– ولكن لنعرض أنفسنا لاعتراضات أخرى من طبيعة مختلفة– هناك اعتراضان يجب علينا أن نواجههما أحدهما خاص بالمبدأ، ويجب أن نقول أننا لا حيلة في اتهامات علماء الاجتماع لنا بالطموح باستمرار، وإذا قلنا أن الجغرافيا هي ببساطة، تقوم بنصيبها في تفسير الحقائق الكبيرة التعقيد، وهي محقة في ذلك دون أن تعتمد على الحتمية الصارمة التي يزعمون أنها تقوم بنشاطها في آلية صماء، فإننا سنتخلص من هذا الاتهام. ولكن

الجغرافيون لن يخلقوا علماً بهذا العمل، أما الاتهام الآخر فهو لا يقل أهمية عن الأول، وإن كان منصباً على المنهج، ومضمون هذا الاتهام هو أن الجغرافيين، وقد واجهتهم الظواهر الطبيعية والبشرية المعقدة المتداخل بعضها في البعض الآخر، يجلون تلك الظواهر كما هي، مدعين أن بعض جوانبها يفسر البعض الآخر وهذا تعثر في المنهج، أما الطريق الصحيح لحلها فهو أن يحلل ذلك التعقيد إلى أبسط عناصره، بمنتهى الدقة، وندرس تلك العناصر واحدة بعد أخرى بطريقة محددة بعد فصلها عن غيرها، متبعين في ذلك طريقة الدراسة المقارنة، وهذا ما تستطيع المورفولوجيا الاجتماعية أن تقوم بها، وتعترف الجغرافيا بعجزها عن القيام بمثل هذا العمل.

ونحن نكرر مرة أخرى أن مجرد وضع المشكلة ثم مناقشتها ليس معناه الدخول في جدل أو بمعنى خاص منهاج البحث، ولكنه ليعرفنا بأسس المشكلة بشكل حيوي.

١) الاعتراض على المبدأ: هل هناك علم جغرافية

إن الشكوى الأساسية الخاصة بالمبدأ قد ظهرت في تقدير سيميان Simiand[١٦١] النقدي الذي حلل به عدة دراسات إقليمية قام بهاد يما نجون عن بيكاردي بلانشار عن الفلاندرز وفالو وفاشروسيون عن بريتانيا السفلى وبيري وفلاحي نورمانديا الشرقية فهو يقول[١٦٢]، أن كل جهود الجغرافيين التي يحاولون بها أن يفسروا الحقائق الاقتصادية تتلخص في صميمها آخر الأمر على بسطها في صيغ علمية (مثل المواد الأولية، الآلات.. إلخ) وفي تبيين أن هذه الظروف الاقتصادية تتفق مع الظروف الطبيعية لهذه المناطق موضع الدرس، أو أنها تعتمد عليها اعتماداً كبيراً، ولكن وجود أغنام في إقليم لا يكفي لتفسير وجود صناعة نسيج الصوف، كما أنه لا يترتب على وجود مجرى مائي أن يعرف الناس كيف يستعملونه أو حتى يرغبون في استغلاله كما أنه لا يعني وجود أرض قابلة للزراعة، أن الناس في هذا الإقليم سيعرفون كيف يحرثون الأرض ويفلحونها أو حتى يرغبون في ذلك، وأخيراً، فإن أصحابنا الجغرافيين يقدمون لنا الأمثلة التي تنقص رسالتهم الجغرافية، وهل نحن نحتاج لواحدة من هذه الأسئلة، أن ديمانجون هو الذي يخبرنا عن وجود صناعة حديدية قد أقامت نفسها (كذا) في إقليم خلو من الحديد والفحم جميعاً (بيكاردي وما حولها ص ٢٨٦ وما بعدها) ثم هو لا يجد ما يفسر

---

(١٦١) ١٧٥ ١١، ١٩٠٦ – ١٩٠٩ ص ٧٢٩ وما بعدها.

(١٦٢)ثبت المراجع أرقام ٢٢٤، ٢١٧، ٢٢٩

به تلك الظاهرة سوى وفرة اليد العاملة، وتلك حالة متوفرة في كثير من الأقطار دون أن يستدعي ذلك نشأة مثل هذه الصناعة، غير أن هذا ليس بتفسير بل حالة ممكنة فقط، وعلينا أن نتذكر تلك الجملة الأخيرة تماماً. وقد نتخيل أن سيميان لا يلق أهمية كبرى على نقده الموجه، لمؤلفينا، كما يدعوهم. ولكنه يريد أن يلفت نظرنا إلى النقطة الهامة الآتية، أن الحقائق الاقتصادية لا تتوقف دائماً على توفر الظروف الطبيعية، ولا تعتمد على توفر الخامات وما إلى ذلك، بل على رأي الإنسان في هذه الخامات، تلك مباديء أولية نلقنها منذ زمن طويل لتلاميذنا في المدارس ولكن سرعان ما ينساها بعض الجغرافيين في مغامراتهم الحمقاء في التعميم، ولكن مثل هذه الأخطاء البسيطة لا يعني وجود ثغرة في المبدأ.

ولكن هذا هجوم آخر يشنه سيميان على ديمانجون بالذات فهو يقول، "ها هو أحد الجغرافيين يحاول أن يدرس في منطقة جغرافية محددة العلاقات بين الإنسان والطبيعة" وبعد دراسة دقيقة متصلة بالظروف الجغرافية لهذا الإقليم، يستعرضون أولاً الزراعة ثم الصناعة بفرض إيجاد ما يدين به كل منهما، أو لا يدين به، للبيئة الجغرافية، وهنا يجد صناعة معدنية ثابتة الأركان في أحد المناطق، ويجد أنها تلعب دوراً كبيراً في حياة الناس في هذا الإقليم وكجغرافي يسأل نفسه، إن كان يوجد هنا سبب جغرافي لقيام هذه الصناعة، ثم يقوم بدراسته بإيمان وصدق علميين، دون أن يتقيد برأي سابق فيصل إلى نتيجة سلبية[١٦٣] وهذا دليل قاطع على أن الجغرافي، بعكس ما يقول دركايم "لا يبالغ في

[١٦٣] سيمياند "١٧" جزء ١١ ص z ٧٢

إظهار أهمية العامل الجغرافي" وأكثر من هذا فإن النتيجة في غاية الأهمية والطرافة من الناحية العلمية، بالرغم من أنها، أولاً أنها، نتيجة سلبية؛ إذ أن البحث الذي قام به أحد الجغرافيين قد انتهى بما أنه لا مكان للجغرافيا في تفسير حقيقة معينة تنتمي إلى النظام الاقتصادي، فها هي الحقيقة قد ظهرت، والمجال متروك للعلوم الأخرى بمناهجها المختلفة لتساهم في حل المشكلة... المهم أن الجغرافيين قد نفضوا أيديهم منها عند هذا الحد... أليس هذا سلوكاً طبيعياً سهلاً.

لما إذن هذه الاتهامات، لما لأن الاجتماعي قد صور لنفسه جغرافيا بشرية مثالية ثم وضعها هدفاً لسهام نقده، فهم لم يهاجموا الجغرافيا كما مارسها ديمانجون أو فالو أو سيون بل جغرافيا يصورونها هم لأنفسهم، إذن لا محل لما قال. ناقدنا من أن ديمانجون ناقض بنفسه الرسالة الجغرافية؟ أي رسالة هذه؟

لقد أثبت ديمانجون أن أصل صناعة الحديد وتطورها في فيمو Vimeu لا يمكن تفسيرها بوجود الفحم أو الحديد- هذا هو ما قاله فأي رسالة هذه ينقضها هذا المثال، إنما لا يمكن إلا أن تكون فكرة عامة كهذه، لا يمكن أن تقوم صناعة لا تعتمد في أصولها على النظام الجغرافي. ولو أننا صادفنا مثل هذا القول في أي كتاب جغرافي، فما قيمته الحقيقة، إن الجزء النفيس من أعمال الجغرافيين هي نتائج أبحاثهم وليس ما يقولون أو يفكرون فيه... ولكن نفرض أن أحداً قال مثل هذا

القول الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة، فلنسأل أنفسنا من قاله، وفي أي كتاب وفي أي صفحة.

ولنعد إلى ديمانجون، حيث أنه الكاتب الذي نناقشه الآن، هل قال في بدء رسالته على أنني أقصد أن أوضح كيف أن الجغرافيا وحدها كافية لشرح أوجه النشاط الاقتصادي في سهل بيكاردي، إن كان قال هذا فعليه التثريب كما قدمنا ولكنه لم يقل هذا كما أن فالوم لم يقل في بدء كتابه، الأرض والدولة" نظرية حتمية طبيعية تحفظ حياة الدول في الطريق التي رسمته لها الطبيعة، على العكس من ذلك فقد بدأ كتابه بالإعلان التالي، أنه لا يوجد مجتمع سياسي واحد في حدود المعمورة قد توقف تطوره على حتمية البيئة التي يعيش فيها.[١٦٤] ليس هذا فحسب، فإن الكتاب تعدى التقرير النظري وشاعت فيه روح مثالية في نقد الحتمية الراتزلية، ووضح فيه روح ناقد قوي وجو علمي محايد.

أن ما يتصوره سيمياند، وما يفترضه وما يهاجمه، لم يدر بخلد فالو، أو ديمانجون وقد يرد الاجتماعيون على ذلك بأنهما كانا مخطئين في اقتناعهما على قول هذا، لقد كانا مخطئين لأنهما كانا يصنعان عملاً علمياً، لأنهما كانا يكتبان كتبًا جغرافية، والجغرافية كما يقولون علم وصفي، يبحث عن الأسباب بل ولو أنهما قالا مع فيدال دي لابلاش الذي استشهدنا بما قاله فيما سبق إننا نجد في بلادنا العريقة في التاريخ كثيراً من الأسباب تتداخل بعضها في البعض، حتى أننا نجد أمامنا من

---

(١٦٤)فالو "٩٣١" ص ١٨

الأسباب والنتائج، دون أن يكون فيها مسحة الضرورة العامة، وأن طالباً لطريقتهما الخاصة في البحث وهي طريقة التحليل الجغرافي، مجرد نصيباً في تفسير الحقائق المعقدة فإنهما يتهمان. أنه التواضع والاعتدال الذي جعل أمثال هؤلاء الجغرافيين يهجرون فكرة المعلم المفسر بمعنى الكلمة، بل أنهم تقدموا بالوصول إلى أحوال ممكنة وليس تفسيرات ويقول سيميان[١٦٥] من رأينا أننا استشهدنا بالمؤلفين بما فيه الكفاية، فخلف هذا الصراع الكامن وراء التحليل توجد فكرة معينة عن السببية المطلقة.

٢) الجغرافيا لا تزعم إطلاقًا أنها علم ضرورات

أن المشكلة من الاتساع بحيث لا يمكن أن تصاغ أو تناقش في سطور قليلة وليس في نيتنا أن نفعل ذلك، ولكن النزاع قد طال بشأنها بين المناطقة[١٦٦] والعلماء، وظهرت في صددها النظريات المتناقضة وذاعت شروح تلك النظريات المتناقضة، وتطورت بحيث نرى لزامًا علينا أن نشير في كلمات قليلة إلى أي اتجاه نميل.

تعرف السببية بمنتهى البساطة بما يلي، الظروف الواحدة تنتهي إلى نتائج واحدة ربما وجدنا تعريفاً أدق من هذا إلا أن هذا كله يذكرنا بمحاضرة P. Langevin عن تطور الزمن والمكان[١٦٧] والمناقشة التي

(١٦٥)قارن المرجع السابق ص ٧٣٠ وعن لفظة تفسيرات راجع بير (٢٠) ص ٥٠
(١٦٦) راجع بصفة خاصة ببير مقدمة المرجع "٢١" و"١" ٤٢ وما بعدها.
(١٦٧)(١٩) جزء ١٠ ـ ١٩١١

تبعتها في الجمعية الفلسفية الفرنسية عن المكان والزمان والسببية[١٦٨] في العلوم الطبيعية الحديثة ولكن إيضاح تلك النظرية ليس من السهولة بحيث يمكننا من الخوض فيه الآن. وإذا قبلنا التعريف السابق، وهو أن الظروف الواحدة تنتهي إلى نتائج واحدة فإن المشكلة كلها تتوقف بعد ذلك على تلك الظروف، لا لأن تلك الكلمة غامضة أو أن هناك شك في معناها، فالسبب القاهر، وهو مجموع الظروف الظاهرية تحتم حدوث ظاهرة أخرى، أو حسب قول مشهور للابلاش. أن الكون يبدو للناظر إليه نظرة واقعية، حقيقة واحدة كبرى[١٦٩]، ومن هذا القول يترتب كما يقولون أن تكون كل حقيقة متضمنة في تلك الحقيقة الكبرى، وأن السبب المحتم يتكون من عدد لا نهائي من الظروف فهذا حق، ولكن هل يستطيع الجغرافي أن يكتشف لنا تلك الحقائق البسيطة المجردة؟ هذه هي المسألة حقاً.

أن عالم الاجتماع لا يعترف له بتلك الفقرة، ولكنه بالرغم أنه يمتلكها هو وحده وذلك لأنه، على عكس الجغرافي، يحدد غرضه وهو فصل الوظيفة ليرى مظاهر تفاعلها المختلفة في الزمان والمكان ليكن هذا، ولكن أين سيجد آراءه الأولى عن تلك الوظائف. هل سيستنتجها، ولكن على أي مبدأ، على أي أساس يقسم، (كالدبلوماسي الذي يخطط الحدود، وهو في مكتبه في لندن بالمسطرة والبوصلة حسب خطوط الطول وخطوط العرض) هل سينتهي إليها كالفيزيائي بعد تجارب يجريها

(١٦٨)مجلة الجمعية ١٩١٢
(١٦٩) بير "٢٠" ص ٤٧

في معمله، ولكن عليه أن يقوم بهذه العملية بوضوح أو بالأحرى أن يقوم بعدد كبير من النظريات حتى ينتهي إلى العملية العلمية. يجب على الجغرافي أن ينظر إلى المشكلة نظرة عامة ثم عليه كأخصائي أن يحللها إلى خيوطها المختلفة خيطًا خيطًا؛ بنظام وطبقاً لخطة علمية سليمة وليس طبقًا للهوى الشخصي ثم عليه تتبع خيوط المشكلة واحداً بعد واحد؛ وبعد التجارب العديدة؛ المجهزة بالحقائق الكاملة يستطيع أن يرتب العوامل المختلفة طبقاً لدرجة أهميتها ثم ينظر إلى المشكلة من جديد مفسراً بعضها بالبعض الآخر وهذا ما يحدث في علم الأحياء مثلاً، ومن هنا كان لا بد للجغرافي أو الاجتماعي أن يقوم بأعمال تمهيدية عديدة، ويوقف نفسه للبحث المضني الشاق حتى يطمئن إلى أن عمله حقيقي ومفيد، ولا يمكن أن يدعي أنه يقوم بعمل علمي صحيح إلا إذا أوقف نفسه عليه تماماً.

هل نحن وحدنا في هذا، هل هذا، الاحتجاج على ضيق أفق السببية التي تزعم أنها وحدها العلمية الصحيحة، منصب على علم الجغرافيا فحسب، كلا فمثل هذا النقد وجه إلى علم الاجتماع ففي كتاب للأستاذ هنري بره Berr عن مشكلة المنهج والنقد وطرق الاستنتاج عند دركايم، يقول المؤلف عن إيضاح النظرية التاريخية، لقد بينا أن علم الاجتماعيين الموضوعيين هو أنهم مطلقين في أحكامهم ونظرياتهم، فها هو ديركايم يقول، أن المجتمع عامل، وعامل مهم في التاريخ، أنها تقوم بدور هام جديرة بالقيام به أننا نستطيع أن نسلم بأن طبقات الباحثين المختلفة، تتبني لها وجهات نظر مختلفة، ونجد في

البحث عن طبقة معينة من الأسباب أن كلاً يوجه البحث نحو العوامل المختلفة التي يرى أنها أجدر بالاهتمام، أننا نسمح بذلك، ولكن أي عمل عملي، غير جدير بهذا اللقب إن لم يكن تحرراً من كل تعصب لفكرة معينة، وأن لم يضع موضع الاعتبار العوامل المضادة لنظريته، يجب ألا يغالي في تقدير عامل من العوامل، أو إعطائها أكثر مما يستحق؛

ألسنا محقين أن وجهتنا أن ننسب النقد نحو الجغرافيين، إننا نعلم أن بره كان يقصد تنظيم البحث وطرقه في علم الاجتماع ولكننا لا نجد أمامنا من حتم هذا النقد إلا ما سبق أن بيناه–

في الواقع أننا إذا قرأنا آخر الكتب الجغرافية الحديثة التي كتبها جغرافيون مؤهلون، وأننا إذا تتبعنا هؤلاء في أبحاثهم فإذا فهمنا تماماً منهجهم والروح التي أملت عليهم عملهم، وإذا تذكرنا النقد الذي تلذعهم به الحولية الاجتماعية فإننا نجد أن كلمة بالضرورة عند دركايم لا تعني لديه ضرورة عملية، بل ضرورة منطقية ونظرية، وبالتالي إذا شئنا أن نطيل النقد فإننا نجد أن عبارة سيميان أصبحت مألوفة تماماً لدى الجغرافيين، أن الإنسان يؤثر في الطبيعة وأن الطبيعة تؤثر فيه ولكن لما هذا الإلحاح.

هناك سوء تفاهم كبير يتصل بين الجغرافيين وعلماء الاجتماع قبلنا نجد الأولين يحاولون جاهدين في أبحاثهم تجنب الوصول إلى استنتاجات ذات صبغة نظامية Systematic فبينما هم يحاولون مجرد

تحليل ما هو كائن مثلاً الذي يقصرون اهتمامهم عليه دون التقيد بأي آراء سابقة أو نتائج سبق إليها تفكير نظري مبسط، فبينما يحاولون التحرر من آلية الحتمية وضيق أفقها لا نجد الأخيرين يبذلون أي جهد في تحرير أنفسهم من نوع السلبية عن تبادل التفاعل بين الإنسان والبيئة. هل نحن مخطئون هل نحن نبالغ، ولكن عندما يمنحنا ماوس الحق الشرعي في البحث علمياً في مشكلة إلى أي حد تؤثر طبيعة الأرض وشكل التضاريس وثروتها المادية ونباتها وحيوانها الطبيعية، في النظم البشرية، ولكن عندما يقول دركايم أن هناك سمات معينة للحياة الاقتصادية تعتمد على النبات والحيوان الطبيعيين فإن على الاقتصادي أن يلتفت إلى ذلك في أي فكرة توحي بها هذه الأقوال.

هذه اللغة في الواقع مادية، الفكرة أيضاً مادية نحن نعرف الآن أن ليس هؤلاء وحدهم من يقول هذا القول. فهم يشتكون في هذا مع المؤرخين الذين استغرقتهم هذه المشكلة ومع عدد من الجغرافيين، فنحن نجد هذه العبارة في كتاب برنز Brunhes "الجغرافيا البشرية" العبارة الآتية "ولما كان الناس يقطنون في أماكن جغرافية معينة، فإنهم مضطرون إلى زراعة محاصيل معينة، هنا نخيل، وهناك أرز، وثمة قمح، عليهم أن يربوا الخيول هنا، في سهول آسيا الوسطى وهناك ماشية مثل أواسط أوروبا، أو في جزر بحيرة تشاد أو على شواطيء بحيرة رودلف، وفيما عدا ذلك من غنم، مثل هضاب أسبانيا المرتفعة الجافة أو جبال أطلس[170] هذا تطبيق لا شك لنظرية التلاؤم السلبي، ويكفي فيها عبارة

(170)(٦٦) ص ٥٨.

"أنهم مضطرون" ولكن لو أن المرء راجع ما كتبه زملاء هذا الكاتب، بل ما كتبه هو نفسه في غير هذا الموضع، للمس ما يمكن أن يسمى بالروحية الجغرافية، روحية بالمعنى الذي استعمله كارل ماركس وانجلز في الروحية الاقتصادية وهي في الواقع ماركسية[١٧١].

تلقائية الإنسان وحركته: هذا ما يحاول الجغرافيين اليوم أن يؤكدوه، أنهم لا يحاولون أن يظهرون على أناس سلبية تحت وطأة المؤثرات الجغرافية، تحكمهم وتقرر مصيرهم أفراداً، وجماعات، وتوجه تاريخهم عدد من القوى الطبيعية ذات الفعل المباشر والأثر الحتمي. كما أنهم لا يعتبرون الظروف الجغرافية كإطارات ثابتة ذات حدود معينة تطوى بداخلها أجناس معينة تأوي إليها وتعيش فيها وتتطاحن في إطارها. بل أنهم يعتبرون الأرض والتربة كعوامل قوية في اختلاط السلالات، إذ أنه لا تتيح العلاقات بين البيئة والإنسان إلا المصالح الحقيقية التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها في المكان كما أنهم يعرفون، حسب ما يقول عالم الحيوان أن اعتماد الكائنات الحية على أصولها- وهي التربة- هو سبب حركتها الكبرى على هذا الكوكب هذا صحيح بالنسبة للحيوانات والمجتمعات البشرية ومجتمعات حيوانية؛ ولا شك أن هذا قد قضى نهائياً على الفكرة القديمة عن الكائنات الحية التي تؤثر فيها البيئة الطبيعية، أو موقفها السلبي.

([١٧١])راو (٢٦) ص ٧١.

هذا هو النقاش؛ وتلك هي المعارضة– وقد بذلنا جهدنا لإظهارها وإيضاحها لكل ذي عينين.

٣) مسألة الدراسات الإقليمية

هناك شكوى جديدة للاجتماعيين ضد الجغرافيين، وتلك الشكوى خاصة بالطريقة.

فبعد مقالة النقد الطويل على الدراسة الجغرافية الإقليمية الفرنسية انتهى سيميان[١٧٢] إلى ما يلي: دعنا نتصور إذن، أن هؤلاء الكتاب بدلاً من أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال ولن تزال إلى وقت طويل قادم دون حل– أي مشكلة العلاقات القائمة بين الطبيعة والإنسان في منطقة جغرافية معينة، بدلاً من ذلك: أوقفوا أنفسهم على دراسة أشكال المساكن، أو توزيعها، ودرس صناعات معينة صناعة بعد أخرى في فرنسا بأكملها، أو في غرب أوروبا إذا اقتضت الضرورة ذلك، في الوقت الحاضر، بل وفي الماضي، كأنما هذا أمر ذا أهمية، إذ ليس المحتمل إذن أن يصلوا إلى صورة واضحة عامة للموضوع أو لتصوير مشكلة العلاقات بين الإنسان والبيئة. تصوراً كلياً كما فعل علم المورفولوجيا الاجتماعية. ليس هذا الاقتراح بقليل وليس المشكلة بجديدة كذلك، وقد سبق لنفس الكاتب أن هاجم الجغرافيين بعنف عندما كتب في عام ١٩٠٣ في مقالين في مجلة التكامل " Revue de

(١٧٢)"١٧" جزء ١١- ١٩٠٦ – ١٩٠٩ ص ٧٨٢

"Synthese" مقالين أحدثا شيئًا من الضجة في وقتهما، وكان عنوان إحداهما المنهج التاريخي والعلوم الاجتماعية، دراسة تقدير من مؤلفات لاكومب Seignobos Lacombe وقد بين نقده على أسلوب محبب لدى المؤرخين وهو ما يسمى Zusammenhang أن المنهجين الحديثين يدافعون عن أسلوب المدرسة التاريخية التقديرية باسم مبدأ عام يستحق إمعان النظر. هذا المبدأ هو أن تتابع الحقائق التاريخي الذي يمكن تمييزه في حياة مجتمع ما ليس له كيان مستقل أو تطور واحد بل أنه يوجد بينها وشائج خاصة يربط بعضها بالبعض الآخر رباطاً متناسقاً ويؤثر بعضها في البعض الآخر ويتأثر به، ويربط بعضها بالبعض الآخر رباط تناسق zusammenhang وهو عنصر هام في تفسيرها(١٧٣). وهذا ما يفسره هاوزر Hauser عندما يقول(١٧٤)، كل شيء مترابط في الحياة الاجتماعية في أي لحظة ما، بين أي شعب ما، يوجد ترابط قوي بين المنشئات الخاصة الاقتصادية والقضائية والدينية والسياسية، ويرتبط التناوع في سماتها بالأنواع الاجتماعية ارتباطها بالأنواع الحيوانية. ولكن سميان يرد على ذلك بقوله، أن التاريخ وحده ومنهجه التاريخي الذي يؤكد لنا وجود عدد من هذا الترابط والذي يصور لنا أدق صورة للحياة الاجتماعية، وهذه غلطة كبرى في عين الاجتماعي الذي يبشر بالمنهج المقارن بديلاً عن المنهج التاريخي.

(١٧٣)"١٨" جزء ٦، ١٩٠٣ ص ١٣٤ وما بعدها.
(١٧٤)هاوزر "٢٣" ص ٤١٤

إن امتلاك العالم، وصول الرجل الجديد إلى السلطة، التعديلات التي دخلت في ملكية المواطن، سلطة الوالدين، تكون عامة في المدن، لنرى فنون الإغريق والديانة الشرقية لإيطاليا، تدهور التقاليد اللاتينية القديمة... إلخ كل هذا يكون عقدة واحدة لا انفصال لها، يمكن أن يفسر بعضها بعضاً، خير من أن نفسر الأسرة الرومانية بالأسرة اليهودية أو الصينية أو الأزتيكية، تلك هي نظرية المؤرخ كما يشرحها هاوزر[١٧٥] ويرد سيميان على ذلك بقوله، ولكن تحديد نطاق الدرس في مجتمع لكي ندلل على وجود التضامن الاجتماعي معناه أننا نحكم عليها مقدماً بالإعدام. فالعلاقات السببية لا يمكن أن توجد إلا حيث توجد علاقات منظمة وتكرار منظم للنتيجة الواحدة عند تكرار سبب واحد، إذن فالظاهرة الوحيدة لا سبب لها، ولا يمكن شرحها علمياً[١٧٦]، نظريتان متعارضتان ولكن كما لا يحس مقدماً المعارضة التي يعرض بها سيميان بين التحليل والمقارنة في الدراسات الاجتماعية وبين آراء الجغرافيين الإقليمين المحبوكة.

هناك شيء من الوجاهة في نقد سيميان للأسف هذا النقد أقل تطابقاً على الجغرافيين منه على المؤرخين. دعنا أولاً نقول أننا على علم بتفسير سيميان المغرض لأثر المؤرخين المنهجيين في تحديد التضامن الاجتماعي كما هو مفهوم وإن كان الجغرافيين قد ضلوا بهذا المنهج فلأنه يسمح له بالاستمرار في تشجيعهم للحقائق البشرية طبقاً للأقاليم

---

(١٧٥)نفس المرجع ص ٤١٤
(١٧٦)"١٨" جزء ١٩٠٣/٦ ص ١٣٨

والأمم والوحدات السياسية تقسيماً تقليدياً، وأنهم بذلك يبرهنون على اعتمادهم على التاريخ السياسي يستعدون منه الحقائق ويرتبونها مهما كان ترتيبهم لها شيئاً ولكن تلك اللافتة لا تنطبق على الجغرافيين الكبار الذين أثبتوا أنهم يحترمون المبدأ الكبير، التقسيم الجغرافي، لا بد وأن يظل جغرافياً صرفاً[١٧٧].

ومن البديهي أن أي مؤلف لكتاب إقليمي إذا كان ضيق المجال ممتنعاً عن عمل أي مقارنة، وفي نفس الوقت يتضمن كتابه عدداً كبيراً من الحقائق الاجتماعية، فإنه معرض إلى أن يخدع في العلاقات التي يحاول أن يبعثها بين ظواهر اجتماعية معينة[١٧٨] ولكن هذا معناه أن الجغرافي الخبير لا بد وأن يتصف بالذكاء وقدر معين من التدريب الجغرافي وهذا أمر بديهي إذ أننا نحب أن نعرف من هذا الجغرافي ممن نقدهم سيميان، قصر في معلوماته الجغرافية على إقليم معين، بيكاردي أو فلندرز أو شرق نورماندیا أو بريتاني السفلى، وأنه كان على غير علم على الأقل بما يفعل زملاؤه حتى أنه لا يستطيع إيجاد العلاقات بين المساكن والبيئة.

وأخيراً فنحن نعلم أن بعض الجغرافيين يشاطرون سيميان فيما يذهب إليه- فأحدهم قد كتب رسالة عن الري[١٧٩] ولا يمكن أن تسمى أنها رسالة جغرافية بالمعنى الصحيح وقد كتب برونز في كتاب مقرر عن الجغرافية الاجتماعية[١٨٠]، متأثراً بفيبدال دي لابلاش يقول في رأيي

---

(١٧٧)نفس المرجع السابق ص ١٣٣ ـ ١٣٤
(١٧٨)فيدال "٣٠" ص ٩
(١٧٩) بير "٢٠" ٩٣
(١٨٠)برين "١٠١"

يجب أن تتلو الجغرافية الإقليمية المبحث الجغرافي لا أن تبدأه[١٨١] وهل لنا أن نقول أن أحداً من هؤلاء جميعاً قد أقنعنا بعد.

* * *

لنعد الآن إلى مشكلة المنزل. فإذا أردنا مثلاً أن ندرس أشكال المساكن وتوزيع المنازل والقرى في فرنسا كلها... فماذا نفعل؟ المشكلة بلا شك جسيمة أصعب وأشد تعقيدًا من مجرد مما تصور حالة إقليم بأكمله وفهمه في الوقت نفسه[١٨٢] تلك مسألة ترتيب في قيم الفصول التي تفصل، ففي كتاب عن الجغرافية الإقليمية لإقليم ما، يأتي فصل عن المساكن ضمن فصول الكتاب[١٨٣]، لكي يدل على أن المؤلف لديه خبرة ودراية بالإقليم من جميع نواحيه وأنه قام بدراسة تحليلية طويلة للعناصر المختلفة التي تدخل في تكوين المنزل الإنساني. ولكن لا يمكن أن يؤتمن الجغرافي الإقليمي على مثل هذه الدراسة في إقليم صغير كفرنسا أو إقليم كبير كغرب أوروبا اللهم إلا إذا انتظرنا منه جهلاً بأبسط الحقائق وتبسيطاً في العمل وسهولة في النتائج وتضحية في الدراسة وكلاماً عاماً معاداً، مما يستطيع أن يقوم به أي إنسان متوسط الذكاء لا يشترط فيه أي تدريب دقيق خاص، أو أن ننتظر منه أن يدرس

---

(١٨١)برين "٦٦" ص ٦١٥
(١٨٢)فيثال "٣١"
(١٨٣)سيمياند، المثال السابق ذكره ص ٧٣٢

كــل إقلــيم دراســة دقيقــة مستفيضــة، وهــذا أمــر مســتحيل بــادي السخف.[١٨٤]

هنا مشكلة تتعلق بتنظيم العمل تنظيماًمعقولاً. أنه إذا كان لدينا عدداً أكبر من الرسائل الإقليمية الجيدة التأليف، عندئذ، وعندئذ فقط نستطيع أن نضم الرسائل بعضها إلى البعض الآخر ونقارنها بعناية فائقة وننتهي إلى القواعد العامة ونتقدم خطوة جديدة في موضوعنا. أما غير تلك الوسيلة فمعناها القيام برحلات سريعة مهتدين بهدى فكرتين أو ثلاث كبرى ومعنى ذلك نتخطى الكثير من المسائل الدقيقة الخاصة الشاقة أو بعبارة أخرى كل ما يمكن أن يثير الاهتمام والشوق بعبارة أخرى الخضوع لتلك الهوسة الخاصة بالتقسيم التي هاجمها جغرافي كبير أخيراً، هوس بالتقسيم، لا أكثر ولا أقل ويجب أن نذكر أن هذه الجملة مقصود بها الجغرافيين وحدهم وأن المثال الذي يضربه جوتييه Gautier مثال جغرافي دقيق أنه يتصل بتكوين الكثبان الصحراوية حيث أشار المؤلف إلى صعوبة تصور، تعقد العوامل الطبيعية[١٨٥] لأن الكثبان تكونها الرياح فلا بد أن تفسر الرياح كل شيء، ليس فقط الشكل الخارجي للكثيب بل تكون الرمال التي تكونها.

هذا حق صراح، ففي كل مرة نحاول أن نعرف أسباب الظواهر في الجغرافية الطبيعية، فإننا نواجه بتعددها وتعقدها. خذ مثلاً مسألة شدة

---

(١٨٤) من لمفيد مقارنة الفصول التي كتبت عن المساكن في كتب الجغرافية الإقليمية الفرنسية وبين كتابي A. de Foville (164) و(164أ)

(١٨٥)جوتييه، دراسات صحراوية (١١) ٩٠٧ ص ١٢٣١

جفاف الصحراء الأسترالية، أنه لا يكفي في تعليلها ندرة الأمطار[١٨٦] فأهم العوامل في ذلك شدة الحرارة والرياح الجافة، كما يجب أن نأخذ في الاعتبار طبيعة القارة التي لا تتخللها بحار داخلية، وتفاصيل تضاريس القارة وبنيتها، وعدم وجود تضاريس داخلية، ووجود الجبال الهامة في شرق القارة دون غربها، وموقع أستراليا بالنسبة لمهاب الرياح التجارية وقلة أثر التيارات الهوائية المضادة التي يمكن أن تجلب الأمطار، وتغلب الرياح الجنوبية الشرقية الجافة على الموسمية الشمالية الغربية وعدد آخر من الظواهر المختلفة- فهل يتصور أحد بعد ذلك أن يكفي قانون تحليلي واحد بسيط ليفسر إحدى ظاهرات الجغرافية الاجتماعية دون أثاث إقليمي تكاملي.

بالتأكيد، لا نحتاج أن نقارن بين الطريقتين. (طريقة البحث في الجغرافية الطبيعية وطريقة البحث في الجغرافية الاجتماعية- المعرب) لكي نبين عدم التكافؤ بينهما. فالدراسات الإقليمية التي تستبعد المقارنات لا قيمة لها، إن لم تكن مستحيلة، ولكن قد سبق أن قيل ببراعة؛ ليس هنا فقط بل هو مشروع وقانوني أن تستمر في دراسات متفرعة من الجغرافية دراسات مستقلة ولكنها جغرافية في طبيعتها، ومن ناحية أخرى فالبدء من الظواهر الاجتماعية معناه إزاحة الجغرافية إلى ركن قصي في المؤخرة[١٨٧] فعلم الاجتماع ليس مجرد عامل إضافي بالنسبة للاجتماعي.

(١٨٦)هذا عن لسبانيول (٢٠٧)

(١٨٧) بير "٢٠٢" ص ٩٣.

٤) التكامل التام بين الجغرافية السياسية والجغرافية البشرية

الحق أن التاريخ السياسي والتاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي مرتبط بعضها بالبعض الآخر تمام الترابط. إذن فلا يمكن أن يكون ثمة جغرافية تاريخية دون جغرافية اجتماعية، ولا جغرافية اجتماعية دون جغرافية اقتصادية ولا جغرافية اقتصادية دون جغرافية طبيعية فهذه جميعاً سلسلة متماسكة الحلقات وقد دعا تلك الحقيقة أحسن الجغرافيين وأجدرهم بهذا الوصف.

وقد كان ذلك منذ عهد قديم عام ١٩٤٨ بعد ظهور كتاب الجغرافية السياسية في نفس العام الذي بدأ فيه دركايم فحص هذا الكتاب بدقة وعناية عندما أعلن فيدال دي لابلاش من جانبه أن الحقائق الجغرافية السياسية ستظل غامضة غموضاً كبيراً ما لم تتلاءم مع الجغرافية الطبيعية ثم أضاف إلى ذلك قوله أننا نعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لا يمكن أن يفيد الجغرافية السياسية فائدة كبرى سوى ذلك التقدم الملحوظ الذي طرأ تحت أعيننا في دراسة الكوكب دراسة طبيعية فالعلاقات بين الإنسان والبيئة التي يباشر فيها نشاطه تظهر ظهوراً واضحاً إذا عنينا بدراسة ظواهر السطح وأنواع المناخ وتوزيع الحياة.

لقد كان رأيه هذا نهائياً، لم يتزحزح عنه قط فبعد ذلك بعدة سنوات ورد في مقال له عن تدريس الجغرافية يجب أن لا نعالج الجغرافية الاجتماعية كمجرد تذييل فإذا كانت تقوم على الجغرافية

الطبيعية فهي في الواقع أساس الحقائق الاقتصادية عماد الحياة الحديثة ونستطيع أن نضيف إلى اللغة والتاريخ وهما يضيفان إلى المعرفة الإنسانية العلم بالظروف الطبيعية والبيئة ويقول جالو في أحد كتبه التي استشهدنا بها كثيراً ما يلي: "إذا أردنا أن نشرح الحقائق البشرية. يجب أن نأخذ في الاعتبار دائماً إمكان تأثير البيئة. ولكن كيف نستطيع أن نعرف مدى أثر هذه البيئة دون معرفة أولية قائمة على دراسة مستقلة للبيئة الطبيعية، كيف نميز بين الحقائق البشرية والحقائق الطبيعية إذا بدأن بالخلط بين ما هو عمل الإنسان وعمل البيئة. إن الموضوع فقط هو ضحية مثل هذا الخلط.

هل لنا أن نعذر إذا أصررنا على تلك النقطة التي تبدو لنا على جانب كبير من الأهمية؟ أننا نعرف أن الاجتماعيين لا يرضون بهذه الآراء- بالرغم من أنها آراء الجغرافيين المتعمدين، دون تحفظات ولكن إذا ظنوا أنهم يستطيعون رفض هذه الآراء إذ كانوا يظنون أنهم يستطيعون شطر العنكبوت إلى شطرين بمقص- فإن جغرافية الجغرافيين، إذا كان لنا أن ندعوها بهذا الاسم من جانب، والجغرافية البشرية من جانب آخر- فإن هذا أمر مشكوك فيه لأنهم كانوا مقتدين في هذا بأخطاء بعض قصيري النظر المتكررة، وليس هذا فحسب، بل أنهم عادوا ببساطة إلى آراء المؤرخين وأخطائهم، فقد اقتفوا وجهة نظرهم وأعادوا نظرياتهم في ثوب جديد. فإن المورفولوجيا الاجتماعية ليست ولا يمكن أن تكون مساوية للجغرافية البشرية، ونحن لا نعترض قط على أن يكون لها كيان مستقل ونمو مستقل. بل إننا نعتقد أن الاجتماعيين يجب أن يهتموا-

كما كان يهتم المؤرخون من قبلهم، بآثار الظروف الجغرافية على نمو المجتمعات البشرية. ولكن هذا يكون وجهاً واحداً فقط من أوجه المشكلة التي تواجهنا، وهي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى نتائج جزئية لا تفي بالغرض منها. ودعنا نلاحظ أن أي تقدم وصل إليه الاجتماعيون في دراساتهم المورفولوجية– وأي نتائج مضبوطة ومشوقة، وصلوا إليها، لم يكن ممكناً إذا كانوا اقتصروا على إتباع المؤرخين من أمثال ميشيليه أوتين. بل كان ممكناً فقط بعد تقدم الجغرافيا التي يدينون لها؛ الجغرافية البشرية متكاملة تماماً مع الجغرافية الطبيعية.

أنهم يعتمدون على الجغرافية. كما أنهم يحتاجون إلى عون التاريخ، إذ لا ريب لديهم كما نتصور، أن الاعتبارات الجغرافية قد تحسنت، وقد قال ذلك أحد الجغرافيين في مجلتهم العالم الاجتماعي L'annee Sociologie بشكل قد يبدوا خيالياً ولكنه عادلاً. ولنا أن نتصور ألوان المعرفة اللازمة لذلك الباحث الذي يريد أن يرى، "إلى أي حد يكون فيه الإنسان عبداً للتربة والمناخ ولكي نرى بعد ذلك إلى أي حد حرر نفسه من هذه العبودية" ثم يعدد فاشر vacher ألوان المعرفة هذه "أن يدرس بعناية مظاهر السطح وهندستها.. يعرف كيف نحت المناخ سطح الأرض لكي يعرف أي الأجزاء قد اجتذبت الإنسان بصفة خاصة وأي الاتجاهات سلك في حركتهم... أن يبحث في اضطراب النطاق الجوي وتغير الفصول وأثره، فعلى ذلك تعتمد الزراعة"– كل هذا يجب أن يتدرب عليه الجغرافي البشري، وكل من يتصدى لبحث المجتمعات البشرية، تدريب طويل، وتلمذة طويلة، لكي يتكون تكويناً

علمياً– وكل هذا يبين الصلة القوية بين الجغرافية البشرية والجغرافيا الطبيعية واعتماد الثانية على الأولى اعتماداً مباشراً، أما أن تتنكر لذلك الاعتماد، فمعناها إنكار صفة الجغرافيا البشرية الشرعية. ومعنى ذلك أيضاً عدم إمكان استيعابها في المورفولوجيا الاجتماعية.

ولكن من يمنع المورفولوجي من استيعاب تلك المعرفة التي حددها فاشر؟ لا أحد. ولكن هل يكون صاحبنا جغرافياً أو اجتماعياً. أو هما معاً؟ ولكن سيكون ذلك عن جدارة، إذ أن الاجتماعيين كثيراً ما أشاروا إلى خشونة المؤرخين الذي لا علاج له. هؤلاء الذين خاطروا بولوج مجالهم ونحن لا نقول أنهم مخطئون في ذلك.

٥) مجال البحث المشروع

تأثير البيئة على الجماعات البشرية في تطورها التاريخي

علينا أن نرد أخيراً على اعتراض آخر قبل أن نترك مشكلة المنهج. هذه المسألة تختص بالعلاقة بين المؤرخ والتاريخ ولكن مما لا شك فيه أننا بها– في مناسبات عديدة– مسألة أخرى أكثر اتساعاً وشمولاً: فقد تحدثنا عن العلاقات بين البيئة والمجتمع البشري في تطوره التاريخي.

هل نحن نحاول أن نعقد مشكلة معقدة بالفعل؟ أم نحن نحاول أن نعالج خلطاً معيناً، ومسألة دقيقة تشمل الدولة والمجتمع وتخلط بين

التطور الاجتماعي والتطور التاريخي، والجغرافيا البشرية بوجه عام بالجغرافيا السياسية التاريخية كما تسمى بحق؟

إننا نكرر قولاً قال به راتزل عندما نقول أن الدولة ليست المجتمع، نحن نعرف هذا بالرغم من أن الدولة في أقطار غرب أوروبا– يبدو أنها تستمد كيانها ونموها من المجتمع، وأن النظام السياسي ينشأ من الحالة الاقتصادية والديموغرافية، والأخلاقية للقطر، إلا أن هذا لا يضطرد في أقطار كالهند البريطانية(١٨٨) حيث فرض نظام سياسي بالقوة ومن الخارج على الأحوال الاجتماعية الأصلية التي كانت سائدة في البلاد– نظام طبقات قديم، يشمل الأسرة والجماعات المهيمنة ولكنه عديم القيمة في توحيدها (أي الأسرة والجماعة المهيمنة) وجعلهما يسيران جنباً إلى جنب أو أقطار مثل روسيا(١٨٩) يبدو أن النظام الاجتماعي من صنع الدولة وحدها الذي كان سابقاً لها في التاريخ، هناك حدد النظام السياسي إلى حد كبير شكل البناء الاجتماعي.

ولكننا نعلم أيضاً، كما قال راتزل(١٩٠) "أن المجتمع هو الوسيلة التي تربط الدولة بالأرض" ويترتب على ذلك أن العلاقات بين المجتمع والأرض تؤثر في طبيعة الدولة في أي مرحلة من مراحل نموها، ثم يستشهد بأمثلة، "عندما يكون النشاط الاقتصادي لا يزال في بدائته بينما مساحة الإقليم واسعة ومن السهل انفصال بعض أجزائها عن البعض

(١٨٨)فيدال (١٩٧).
(١٨٩)– ميليوكوف "٢٢٧"
(١٩٠)– راتزل "٣٦"

الآخر، فإن الدولة في هذه الحالة ينقصها التماسك والاستقرار وإذا كان عدد السكان قليلاً موزعاً، ومعنى ذلك مساحة واسعة من الأرض، فإن هذا يؤدي إلى دولة من البدو الذين يمتازون تميزاً قوياً بالتصميم الحربي الضروري بالدفاع عن مثل هذه المساحة الشاسعة من الأرض وهذا العدد الضئيل من السكان".

هذا تحليل بارع، ولكنه من البديهي، لا يزال يحتفظ بالأفكار الشكلية النظامية التي لا تثبت أمام النقد، كما وضحنا من قبل، وذلك الولع بالأفكار المجردة التي خبأت عن راتزل، عندما استطرده الحديث عن الجغرافيا النقل، كل حقائق التجارة، ولم تريه إلا آلية الحركة والانتقال(١٩١).

ونحن من جانبنا نضفي معاني جديدة حتى على نظريات راتزل. فنحن لا نرى في المجتمع مجرد لعبة يضيق لولبها وتتسع في صندوقها– ألا وهي الدولة. بل نحن نعني كل العناية بدراسة الوحدات الاجتماعية، كما تحيى فوق الأرض، مستمدة حياتها منها، في نفسها ولنفسها معاً.

نحن نرى تلك الوحدات مسيرة– إلى حد كبير– بحاجاتها الاقتصادية ونحن نرى أن هذه الحاجات الاقتصادية أولاً. وجهود الناس لكي يشبعوها ثانياً، هي التي تفسر أثر في الجغرافيا العميق في تطور المجتمع الإنساني.

(١٩١)– قارن هوبكل "٧١" ص ٤٠٢ أن التوسع الجغرافي ولاسيما من الناحية السياسية يشبه تماماً حركة الكائن الحي يمتد وينكمش وغرضه في جميع الأحوال هو التوسع المكاني من أجل البحث عن مجال للدول؛ توسع إما من جانب البدو أو من جانب المستقرين.

نحن نرى الدولة تنشأ، كقاعدة، من استثمار التربة، أن الصلات بين الوحدات الاقتصادية السياسية، في رأينا، لا تنشأ فقط من مجرد تحول شركة بالتدريج؛ كما هو الحال في أيامنا هذه. من مجرد شركة اقتصادية إلى دولة استعمارية فحسب، بل أننا نحاول أن نرجع القهقري مع الزمن، كما يفعل كاميل جوليان[١٩٢] لنفهم الأسباب العميقة التي جمعت قبائل معينة تحيى في أقاليم تختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف في وحدة سياسية هي الأمة الخالية المجتمع نحو نفس النهر، الاعتماد على نفس الطريق، الخضوع لنفس مفترق الطرق، التبادل الضروري بين مناطق السهول ومناطق الجبال، هذه الأمم، وتلك الشعوب المكونة من قبائل مختلفة، كونت في باديء الأمر جماعات لتتبادل التجارة. وتتبادل الحماس وانتهت إلى تضامن مادي ومعنوي، شعب وإقليم متبادلا التأثير والتفاعل بعضها عن البعض الآخر تبادل ملائمة بين الناس والإقليم الذي اتخذوه وطناً، حتى في وقتنا هذا فإن كاميل جوليان يلاحظ ببراعة أن مظاهر الإقليم التي تقع بحذاء مسالك فرنسا الرئيسية تتغير حيث كانت تقع حدود المدن الغالبة القديمة. فهذه المدن كانت وحدات سياسية كما قلنا من قبل. ولكنها كانت في نفس الوقت وحدات سياسية كذلك.

أننا نعرف تماماً أن هذه الآراء ستغير النقد وتقيم الاعتراضات علينا.

---

(١٩٢)"١٧٢٢" جزء ٢ ص ٣٠ وما بعدها.

فهذا كميل فالو يقول شارحاً ومعدلاً آراء راتزل، إن العلاقات بين الأرض والدولة تنشأ مستقلة عن مصادر الثروة الاقتصادية وخارجة عنها، لأن الأرض هي القاعدة الأساسية والضرورية لنشاط الوحدات الاجتماعية، التي تم تنظيمها بغرض العمل المشترك، والتي نسميها دول[١٩٣] ونحن نعرف كيف أن هذا الكاتب تحيز بين الأرض السياسية وهي مجال نشاط الدول بأشكالها المختلفة في جميع أنحاء العالم، والأرض الاقتصادية وهي تشمل ثرواتها الطبيعية سواء كانت مستغلة أولاً، والتي تستمد منها كل دولة قوتها وقابليتها للاحتمال.

هذا التمييز بارع وله فائدته فإنه يجعلنا نحترس ونحذر من أن نتورط في فكرة معينة عن الدولة وهي الفكرة الغالبة في المادية، أو عن فكرة اقتصادية مغالية في السطحية إلا أنه يجب ألا نمعن السير وراء هذا التمييز.

يتقدم كاميل فالو بمثل واضح يوضح فكرته من الصحراء الكبرى الفرنسية "لا يستطيع عاقل أن يزعم أن فرنسا قد ضمت الصحراء إلى ممتلكاتها الأفريقية لكي تستغل رمال، أو هضاب الجماد الصخرية أو لكي تنشأ خطوط مواصلات بين الجزائر والسودان"[١٩٤] هذا صحيح، ولكن إذا انتهى المؤلف إلى أن هذا المثال "يمكننا من فهم القيمة التي لا تضفي، من وجهة النظر السياسية، أن المناطق أو الأقاليم عديمة القيمة الاقتصادية "فإنه يكون مغالياً ألا ينزلق إلى الحديث،

(١٩٣)"٩٣٣" ص ٣٨
(١٩٤) نفس المرجع ص ٣٩

مخطئاً كرجل أعمال أو كحاكم مستعمرة شرقية، يحسب ما يمكن أن تغله استعمار مستعمرة، وليس كجغرافي؟

ليست الصحراء في الواقع عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية، فهي ذات قيمة لسكانها الذين اتخذوها مجالاً لنشطاهم وكيانهم– لقبائل الطوارق– الذين يحتلون بعض أجزائها وعلى اتصال دائم ببعض آبارها وعيونها وذات قيمة لغيرهم من سكان الواحات الذين نعرف تماماً علاقاتهم الاقتصادية بالبدو.

مثل هذا التنظيم السياسي والاجتماعي الموجود في الصحراء– خارج الحدود الاستعمارية الحديثة إن شئت– تقوم بصفة خاصة على أساس اقتصادي ومن يستطيع أن يزعم أن فرنسا عندما مدت نفوذها على تلك الأرجاء، لم تفعل ذلك لأجل السيطرة على تلك المجتمعات التي تسكنها، والتي تقوم في حياة اقتصادية مستمدة من الصحراء نفسها كما بينا؟ هل نستطيع أن نقول كذلك أن لا مكان للاستعمار الأوروبي في التبت، نعم إن الجزء ضئيل في مثل هذه الأرجاء ولكن بالرغم من ذلك فهناك فوق الوديان المرتفعة في جنوب التبت في قلب آسيا قامت حضارة بشرية بفنها وأدبها ومصادر ثروتها الطبيعية، وزراعتها وتربية ماشيتها بقدر يكفيها الحياة.[١٩٥]

"غير ذات قيمة اقتصادية". تلك جملة أخرى من الجمل التي لا محل لها. اللهم إلا إذا كان معناها اقتصادياً وبحارياً.

---

[١٩٥] سيون "١٩٦١" ص ٤٤

نستطيع أن نستمر طويلاً في ضرب مثل هذه الأمثلة. ومن يدرس الوحدات السياسية في تطورها السياسي عليه ألا يقتصر على مظهر حياتها الخارجي فحسب، بنموها وتوسعها- أو بعبارة أخرى ولعلها على شيء من الطموح بعلاقاتها الخارجية ومسائل حياتها ونموها الطبيعي. وسائل سيطرتها على الأرض التي تحتلها، بنيتها الداخلية ونموها. تلك هي المسائل التي يجب أن تدرس إذا أردنا أن نسبر عمق الأثر الجغرافي المتعدد النواحي على تطور تلك الوحدات الاجتماعية ذات السيادة التي تسمى دول. فالمشكلة إذاً لا يمكن حلها. بعقد مقارنات واسعة، وقياسات عامة، ثم الوصول إلى نظريات لم تؤيد لم نصل إلى شيء في الواقع بعد كتابه هذا العدد الكبير من تاريخ الحضارات kulturgeschichte[١٩٦] وملاءمتها مع بقايا كتابات رنز المهلهلة؛ والتي أعلن فيها بكل فخر "تحت قناع القوانين الجغرافية التاريخية التطورية" أن الأقطار ذات السواحل المستقيمة- بقايا نظرية الاتصال البحري- [١٩٧] والأقطار البعيدة عن البحر ذات المناخ القاري أي الأقطار التي تشبه كل بلاد العرب مهد الإسلام، ليس لها مكان في تاريخ المدينة بينما تلك الأخرى "ولنفرض مرة أخرى" مثل كورسيكا وكوريا.. إلى إلخ.

---

(١٩٦)قارن مثلاً كتاب **Handbuch der Kulturgeschichte de O. Henne am Rhyn Leipzig, 1900, in – 8.**

(١٩٧)نقد هذه النظرية في فالو "٢٣٧" ص ٢٧ وما بعدها. وقارن أيضًا مقالة ديبوا "دور المواصلات الساحلية" "١١" ١٨٩٢ ص ١٣١ وما بعدها وانظر أدناه الباب الثالث الفصل الثاني.

ليس صحيحاً أن أربعة أو خمسة مؤثرات جغرافية تطبع التاريخ بطابع ثابت منتظم ولكننا نجد دائماً هذه المخلوقات التي وهبها الله الفطنة، في جميع مراحل كيانها سواء كانت تحيى كحياة منعزلة، أو مجتمعة في جماعات، تعمل دائماً، وفي جميع الأزمنة تحت العوامل والمؤثرات الجغرافية المتناقضة، من شكل السطح، والمناخ، والنبات، وغيرها من قوة الطبيعة التي تكون البيئة الطبيعية.

الباب الثاني

النظم الطبيعية والمجتمع الإنساني

الفصل الأول

مشكلة التقسيمات: المناخ والحياة

كأتباع أستاذ كبير قد أعدنا القول مراراً بأنه لا توجد مشكلة في الجغرافيا أهم من مشكلة التقسيمات أو الحدود الفاصلة. وفي هذه المسألة كغيرها من المسائل نستطيع أن نصل إلى الإجابة من طريقة عرض المشكلة. وليس أسهل من هذه المشكلة في عرضها التقليدي.

نحن نبدأ أول الأمر بتجريد: الإنسان، كائن سلبي– خاضع لمؤثرات البيئة الطبيعية ومن المفروض أن هذه البيئة (دعنا نقول الأرض) تؤثر فيه وتغيره عن طريق قوتين جبارتين:

التربة والمناخ. ومن المعروف ولا شك أن الوراثة أحد العوامل المؤثرة في التطور البشري ولكل العوامل الأخرى عدا ذلك مستقاة من البيئة. وهذه تباشر قوتها على الأفراد والجماعات وهذه ليست آثار فعالة في التغيرات الجسمانية. بل أنها أيضاً تحدد اتجاه الآراء الأخلاقية والسياسية وتحقيقها وهذا هو أساس التاريخ المتين.

١) الفكرة التقليدية عن المناخ: الرواد

وهكذا بدت المشكلة سهلة في نظر مونتسكيه عندما كتب (روح القوانين) كما بدت بسيطة سهلة في نظر سلفه جان بودان. إلا أنه لا ينبغي أن نغالي في تقدير أثر هذا الأخير عليه.[١٩٨]

ولو أن مونتسكيه قرأ بعناية أكبر الكتب الست للجمهورية Six Livres de la Republique للسياسي الأنجفيني Angevin. ولو أنه قرأ الفصل الأول من الكتاب الخامس بعناية وشغف واستفاد منه أكبر فائدة وأغناها وفيها ورد (أن هناك أصناف عدة من الناس، كما توجد أصناف عدة من الأقطار. ويختلف الناس في المناخ الواحد باختلاف أقطارهم فهناك الشرقيون وهناك الغربيون بل أن أهل بلاد الشمال يختلفون عن أهل الجنوب ولو كانوا على بعد واحد من خط الاستواء. بل أنه إذا تساوى المناخ الواحد والبعد الواحد عن خط الاستواء فهناك فرق بين أهل الجبال وأهل السهول[١٩٩] فإنه قرأ مؤلفات أخرى وعرفت كتاباً آخرين، كتابًا أقرب إلى عقله من بودان فهناك الرحالة مثل شاردان Chardin الذي أظهر Dupin أثره على مونتسكيه أو الطبيب الإنجليزي Arbuthnot كاتب مقال على أثر الهواء في جسم الإنسان" الذي ترجمه طبيب فرنسي من مونبلييه سنة **١٧٤٧** يدعى Boyer de

---

([١٩٨])هناك رسائل عديدة عن هذا الموضوع منها فلسفة التاريخ في فرنسا وألمانيا لمؤلفه **Flint** ص ٢٥ وما بعدها، إيريرا، سابق لمونتسكييه وبودان (المجلة الأثرية البلجيكية ١٨٩٦، ومؤلف فورنول **Fournol** عن بودان، سابق لمونتسكييه ١٨٩٦) انظر ديدو "٤١" فصل ٧، شوفيرية ٢٣ ص ٣٤٨ وما بعدها و٥١٢

([١٩٩])بودان (٣٦) ص ٤٦١ ـ ٤٤٦.

Pedrarnide إذ لا شك، من إشارات ديديبه Dedieu في كتابه عن الأصول الإنجليزية لروح القوانين" أن مونتسكيه قد تأثر بهذا الطبيب الإنجليزي في الفقرات الرابعة عشر والخامسة عشر والسابعة عشر من كتبه [٢٠٠].

ولكن مهما كان من أصل روح القوانين فإن صاحبه كان يعتبر الإنسان وحده ككائن منعزل شخصية منفردة، وحدة طبيعية، وليس من هذا ما يصقل عقل كاتب في القرن الثامن عشر. معاصر لروسو وكتابه عن العقد الاجتماعي.

أمام الإنسان تقف قوتان التربة والمناخ قوتان كبيرتان؛ أدخلهما مونتسكيه في اعتباره دون أن يدرسهما أو يشرح آثارهما في تفصيل أو يدرسهما دراسة تفصيلية تنفصل إحداهما عن الأخرى، بل أجملهما معاً وتحدث عن آثارهما معاً.

درس مونتسكيه في الكتاب الثامن عشر من روح القوانين أثر التربة في النظم القضائية للإنسان دراسة سطحية مختصرة جداً. لم يتعمق في تحليله كثيرًا، إنه لم يفهم من التربة ولم يهتم من أوجهها إلا ما سماه طبيعة الأرض ولكنه لا يتقدم بأي فكرة جيولوجية أو طبوغرافية محددة عن هذا التعبير فالعلم في وقته لم يعترف بهذا إلا في النادر، ففكرته نفعية صرفة وأكثر من ذلك فهي غامضة، فالأرض في نظره تتصف بإحدى الصفتين الخصب أو القحولة فإن جدب الأرض في أتيكا أنشأ

---

[٢٠٠] ديديو ٤١ فصل ٧ ص ٢١٢ ومونتكسيه باريس ١٩١٧، ص ٥٥ و٥٧

حكومة شعبية وخصبها في لا كيديمون أنشأ حكومة أرستقراطية. [٢٠١]
هذا مثل من استنتاجات مونتسكيه البسيطة.

فهو لم يتقدم كثيراً عن بدوان في الإشارة إلى نتائج قحولة الأرض شحذ أذهان السكان، اتزانهم، تجمعهم في المدن، ولديك أثينا قديماً ونورمبرج في القرن السادس عشر تعج بأبدع الفنانين في العالم كذلك بمدينة ليموج، جنوا، وغنت، "فالأعداء لا يطمعون في أرض قاحلة ولهذا يعيش السكان في أمان يتكاثرون وعليهم أن يشتغلوا بالتجارة أو العمل" [٢٠٢] هذا مثال آخر من بدوان وفيه نرى أن تحليله أعمق وأنه أقرب إلى الروح الجغرافية من مونتسكيه فلو أن هذا الأخير أدخل فكرة التضاريس من حين إلى آخر في كتبه السهل والجبل– فإنها لا تبين فكرة الخصب به أو عدم الخصوبة به فالبلاد الخصبة هي "السهول حيث لا يستطيع أن يرفع أحد رأسه أمام القوي" بينما في البلاد الجبلية يستطيع الإنسان أن يحتفظ بما لديه وليس لديه إلا القليل. [٢٠٣]

وبنفس الطريقة عندما يتحدث المؤلف في الكتاب الثامن عشر عن الحرف المختلفة مثل الصيد والقنص وتربية الماشية (هذه الآراء لا تظهر بوضوح في كتاب بودان) فإنه يفعل ذلك لكي يبين أهميتها الضئيلة، جانب الحرص والزراعة فالقنص والصيد كما يقول مونتسكيه في الفصل التاسع من أرض أمريكا (تمد الناس بالوفرة) فهم بكل بساطة

---

(٢٠١)المرجع السابق.
(٢٠٢)مونتسكييه "٤٠" ١، ١٨ فصل ٢
(٢٠٣) بودان ٣٦ ص ٤٨٥

يعملون عمل الطبيعة التي تمدهم بالخيرات الوفيرة التي تقيم أودهم. تلك آراء مبسطة وتعميمات غير سليمة.

أما عن المناخ فإن مونتسكيه يفرض له مساحة أوفر وعناية أكبر فإنه تقليد قديم أن نرجع إليه قدراً كبيراً من التأثير. وكاتبنا لا يتأثر فيه ببدوان فحسب بل يذهب أبعد من هذا إلى هيبوقراط الذي كان تراثه قد بدأ في الإحياء على يدي ديديه Dedieu ولذلك فإن مونتسكيه لم يحتج إلى كتاب واحد بل إلى أربعة لكي يبين العلاقة بين المناخ وبين القانون بصفة عامة ثم بقوانين "الاستعباد المدني والاسترقاق وأخيراً الاستبعاد السياسي" ولكن لا يزال التحليل جزئياً، وليس معنى هذا أننا ننتقد مونتسكيه، لأنه لا يستطيع أن يسبق الحركة العلمية في زمنه، ولكننا نقول أن المناخ، في كتبه الأربعة كان له معنى واحد هو الحرارة، المناخ حار أو بارد أو معتدل. تلك إرهاصات بالأقاليم الطبيعية ولكنها فج سطحية: فمثلاً في الكتاب السابع وفي الكتاب الثالث يلاحظ مونتسكيه أن ليس في آسيا منطقة معتدلة بمعنى الكلمة، بل تتلاصق بالأقاليم الشديدة الحرارة في الأقاليم الشديدة البرودة.

وعلى العكس في أوروبا فالمنطقة المعتدلة واسعة الانتشار، وبالرغم من أنها تتمثل في أنواع مختلفة من المناخ. ولكن لما كان المناخ يضطرد في البرود كلما اتجهنا من الجنوب إلى الشمال فإنه يترتب على ذلك أن كل قطر كبير الشبه بالقطر الذي يجاوره. ومن هذا الاختلاف بين القارتين يعقد مونتسكيه مقارنة كاملة. وبنفس الطريقة يستطرد

مونتسكيه قائلاً في الفصل السابع من الكتاب: أن أفريقيا تتشابه في المناخ مع جنوب آسيا ولكن ما هي مميزات مناخ جنوب آسيا في نظر مونتسكيه؟ نحن الآن يتبادر إلى ذهننا الأمطار الموسمية أما مونتكسيه لم يكن يفكر إلا في الحرارة. فجنوب آسيا قطر حار جداً. وجنوب أفريقيا قطر حار جداً ولا يتعدى تحليله هذا الحد لا يبعد أكثر من أرسطو في الكتاب السابع من السياسة. سكان الأقاليم الباردة شجعان حاربوا في سبيل الحرية أما الآسيويون فتعوزهم الطاقة لذلك هيئوا للسيطرة والاستبعاد.

ولكن لم كل هذه الملاحظات على نظريات مونتسكيه القديمة؟ لم هذه الرحلة في الماضي؟ أولاً إذا أردنا أن نعرض للمشكلة العلمية في وضعها الحالي فإن الأمر لا يخلو من فائدة إذا رجعنا إلى الماضي وثانياً هل لمجرد العلم أم لشيء آخر؟ هل الاتجاه الذهني الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر قد اختفى تماماً إلى غير رجعة. يجب أن نعترف بأنه هو لم يتغير.

لا يزال الجغرافيون من أتباع راتزل مستمرين في اعتبار العلاقات بين البيئة والإنسان أمر بسيطاً عاماً بالرغم من تكلف شيء من الحذر في منهجهم.

فمس هيلين تشرشل سمبل في مطلع كتباها الشيق عن الجغرافية الاجتماعية، أثر العوامل الجغرافية في البيئة[٢٠٤] تعرض صورة

---

(٢٠٤)سمبل (١٥)

منقحة لتقديرات راتزل، وتعرض في فقرتها الثالثة منهجاً في البحث كما يلي: أن تقارن بين مختلف الشعوب من طراز معين من مختلف السلالات في جميع مراحل المدنية أو في الظروف الجغرافية في البيئة الواحدة. فإن كان ثمة اختلاف فهو راجع إلى السلالة وإن كان ثمة اتفاق فهو راجع إلى البيئة وهكذا كان لدينا عنصران "البيئة وهي في غاية التعقيد بحيث يصعب تحديدها، والإنسان في غاية التجريد" حتى لو درسناه في حدود السلالة بل أن فكرة السلالة لا تزال غير محدودة فهل كانا مخطئين إذا كنا نرى تلك الآراء لا تزال بدائية؟

ويظهر ضعف موقفهم أيضاً من اتجاه الراتزليين أنفسهم فهم يؤكدون بجرأة مثلاً ثبات أثر العوامل الجغرافية والبيئة اللهم إلا في بعض الحالات العارضة فهم يستنتجون أن الجزر والصحاري والستبس تخلق ظروف اقتصادية وبشرية وتاريخية متشابهة. بل أن بعضهم يجد من نفسه الجرأة بحيث يقارن ظروف إنجلترا واليابان وميلاينزيا وزيلنده الجديدة وكريت قبل التاريخ أو يقولون أن سهول وصحاري العالم القديم قد ولدت قبائل بادية غدت بالتتابع الأقطار الغنية التي تحيط ببلادهم ثم لا يقارنون بين قبائل البادية التي تعيش في الوقت الحاضر، بل التي كانت تعيش في جميع العصور... ثم يفقدون فيما بينهم موطنهم الأصلي. فلكي تشرح مس سمبل لماذا اضطر الهون والقوزاق ويفصل بعضهم عن البعض مئات السنون إلى الهجرة من بلادهم. أكدت لنا أن ذلك متصل بطبيعة الهواء الجاف النشط (عامل غامض جداً) وصعوبة الحياة في

إقليم فقير وهذا فرض جديد ليس معناه البيئة تماماً بالرغم من أنه يعتمد عليها.

وبنفس الكيفية يرجع تطور التاريخ الأسباني كله إلى عوامل البيئة، ألم تكن الجغرافية كما تساءلت، هي التي عرضت بلادهم لغزو العرب. وفي نقطة عرضها نشاط البربر المسلمين؟ هذا لا شك فيه. ولكن أين العامل الجغرافي بمعنى الكلمة هنا؟ ثم تقول أن الحاجة إلى طرد العرب فرضت نوعاً من التبلور السياسي في الدولة الأيبيرية فأصبحت معسكراً للمغامرين المسيحيين مركزها قشتيلة الصحراوية. هذا حسن، ولكن أين العامل الجغرافي هنا؟ ثم يضاف ذلك أنه لم يكن هناك تجارية أو صناعة في أسبانيا في ذلك الوقت وأن الحياة كانت أكثر تركيزاً في السهول والسواحل أكثر منها في الداخل؟ ولكن هل هذا العامل متعلق بالفرض المزدوج عن الإنسان والبيئة؟ ثم جاءت حرب ١٤٩٢ وسقوط غرناطة فتغيرت الظروف القديمة، كما قالت؟ ربما ولكن هل كان سقوط غرناطة عاملاً جغرافياً صحيحاً؟ ثانياً أليس من الحسن أن نتذكر أن أسبانيا كانت تعرف ببلاد تقع على حدود الدولة الإسلامية؟ ولكن الآن ظهر اكتشاف جديد فهي أصلاً. كما يقال لنا. بلاد تقع بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. يسكنها شعب محارب مغامر بطبيعته. ولذلك قدر له أن يكون ذا تاريخ حربي واستعماري. ثم المأساة النهائية انهيار الإمبراطورية الأسبانية. وهنا يتدخل التحالف الإنجليزي والهولندي، ولكن لم يذكر قط أن العنصرين الهامين لدى راتزل، وهما

البيئة والسلالة؛ لم يتغيرا تغيراً محسوساً ومع ذلك وقعت الكارثة التي لا يمكن شرحها (أو شرح الثورات الكبرى التي ستعقبها) جغرافياً.

الحق أنه في جميع الحقائق التاريخية التي ذكرتها مس سمبل يبدو أن تطبيق نظرية تين Taine الذي أضاف إلى عاملي البيئة والسلالة عامل "الزمن" جعل هذه النظرية أكثر قبولاً[٢٠٥] بحيث لا نتردد في قبولها، ولكننا على الأقل نقول أنه كان يبرر ذلك. إذ أنه أمر مستحيل وبادي السخف أن نحاول معالجة مثل هذه المشاكل المعقدة بالجملة. ومن لعبث أن ننظر إلى البيئة من وجهة نظر واسعة، ولكن بفعل الحقائق الراهنة لا بد من أن نأخذ في الاعتبار البيئة في الماضي والحاضر. ولكن مثل هذه التعقيدات غير ذات جدوى. فنحن نرفض أن نصدق أن ضوءاً قوياً سيلقى على تاريخ النمسا بتقسيمها إلى قسم أدرياتي، وقسم دانوبي وقسم غير دانوبي؛ ثم دراسة الأثر اللاتيني والإغريقي أو الروسي في كل قسم على حدة؛ حتى ولو أضفنا الغزو التركي وسياسة هامبرج المتغيرة تبعاً لكل من السلطان وقيصر، أو بعبارة أخرى: أي المشاكل ستحاول حلها؛ إذا لم تكن مشكلة واحدة منها؟

لعلنا قد رأينا الآن استحالة دراسة العلاقات بين الإنسان والأرض دراسة عامة، هذا ما قد تمناه الفلاسفة من قبل، أو حل مشكلة العلاقات بين عالم الطبيعة وعالم الروح. إنه من الضروري، إذا أردنا أن نتقدم في بحثنا أن نستبدل بعبارة الإنسان، الجماعات البشرية ثم نفصل كل عامل

---

(٢٠٥)عن نظرية تين **Taine** قارن أيضًا **Lacombe** لا كومب (٤٨) ص ١٤

من عوامل البيئة. وأثره في حياة الإنسان. حتى نستطيع أن نصل إلى تكامل Synthesis ونعيد إنشاءها من جديد بشكل يقبله العقل. وبعبارة أخرى يجب أن نحلل المشكلة إلى أجزائها المستقلة. وهذه بعد أن تختار مبادئ متفق عليها ثم تدرس قيمتها الحقيقية بشكل ينفي أي شك فيها. أو يعرضها لأنواع النقد التي قدمنا بها. ونحن هنا لا نغمض أعيننا عن فكرة وحدة العالم الطبيعي– تلك الوحدة التي يظل تصورها الواضح الحق أساس الجغرافيا كلها ولكن تقسيم المشكلة إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء لا يزال، منذ أيام ديكارت المنهج السليم للبحث العلمي.

٢) المناخ وبناء الجسم الإنساني

لا شك أن فكرة المناخ أكثر تعقداً لدينا منها لدى مونتسكيه ومن باب أولى بودان فنحن نعرف عادة، بل وأن أكثرنا تعميمًا ليسلم بأنها لا تشمل الحرارة فحسب، ونحن عن طريق مجددي الجغرافية الطبيعية. نستعير آراءنا صحيحة من علم الفلك، وعلم الظواهر المناخية، وعلم الطبيعة. ولا ننسى الدور الذي يلعبه الارتفاع عن مستوى البحر أو الإشعاع، أو أثر الكتل القارية والتيارات البحرية والرياح السائدة والبعد عن خط الاستواء وحتى لو رأينا بوضوح أن التقسيم القديم للمناخ إلى حار وبارد ومعتدل لا يعطي فكرة الموقع الجغرافي أو القرب والبعد عن خط الاستواء فهل نحن برءاء مما وقع فيه مونتسكيه من أخطاء؟ كلا، إذا كنا نواجه أفراداً منعزلين بقوة طبيعية أو عدد من القوى، وملاحظته على مزايا المناخ التي تتمتع بها المناطق الغريبة من القارات في نص الكرة

الشمالي بمقارنتها مع النصف الشرقي[٢٠٦] وهي ميزة لا تمنع الشرق من أن يكون من وقت إلى آخر مركزاً للقوة المدنية، أننا نعارض سوء استعمال المنهج. وعرض علم[٢٠٧] غير صحيح وعدم المقدرة على وضع المشكلة وبالتالي حلها ولكنها على أي حال لا تلغي المشكلة من أساسها– وهو أثر المناخ على الإنسان.

كيف إذن نعرض المشكلة؟ إننا نرى من أول وهلة إنها مشكلة مزدوجة وأننا يجب أن نختبر آثارها على أجسام البشر وصناعتهم: على الجسم أولاً على المجموع العضوي.

هذا أثر احتل جزءاً كبيراً من تفكير العلماء من زمن قديم. هؤلاء الذين كانوا يميلون إلى اعتبار العوامل المناخية ذات أثر مباشر على الجسم الإنساني. مماثلاً لما لا حظوة على الأجسام الحية جميعاً. من حيوانية ونباتية، فتحت مؤثرات خاصة. كما يقال لنا تظهر استجابات عضوية خاصة. وقد جعل دارون من ذلك أحد عناصر الانتخاب الطبيعية. وبني عليها لامارك نظرية التطور: وأرجع بعض الفلاسفة مثل هربرت سبنسر وأو جست كونت أهمية كبرى وفي أعقابهم جميعاً حشد كبير من العلماء والأنثروبولوجيين أضافوا مقداراً كبيراً من الملاحظات والتأكيدات التفصيلية. وقد استعملت من وقت طويل اعتبارات خاصة بأن مختلف أنواع المناخ استعملت أحيانًا وأسيىء استعمالها أحياناً أخرى. فالحرارة تثير الأعصاب وتهلك القوى وتجعل التراخي يدب في

---

(٢٠٦) انظر بصفة خاصة مس سمبل (٩٠) فصل ١٧.

(٢٠٧)في كتاب سمبل مثلاً إشارة إلى إقليم التندرا وظاهرة استئناس الحيوان.

جسم الإنسان، والبرد يجعله أكثر بطئاً وهدوءاً ولكنه أرزن وأكثر تركيزاً، تلك أمور عامة شائعة استخدمت آلاف المرات منذ بودان. وكذلك رفضت آلاف المرات بحقائق أولية جداً. ولكن علمائنا كانوا يطمحون إلى ما هو أعمق من ذلك وأشمل.

ولكن إذا تركنا العموميات جانباً. واستمرينا في التحليل. فهل معنى هذا أننا خاطرنا بالخروج عن نطاق الجغرافيا؟ نعم لا ريب، بالدخول في نطاق الأنثروبولوجيا والباثولوجيا.

دعنا نناقش إحدى الحقائق التي احتلت من زمن طويل حيز انتباه الدارسين وأثارت تعليقاتهم، أحقاً (كما لاحظ الناس) أن هناك علاقة لا ريب فيها بين المناخ. وخصوصاً الحرارة، من ناحية وبين لون الجلد من ناحية أخرى؟ ولكن هل وضع هذه المشكلة الدقيقة ومحاولة حلها ضروري للجغرافي؟

لا ريب أن الجغرافيين يستطيعون معاونة الأنثروبولوجيين في تقرير الحقيقة التالية: أن لون الجلد، كما تبدو الأمور الآن، لا علاقة له بالعوامل المناخية، فهناك حقائق بسيطة يمكن ملاحظتها وهي وجود شعوب جلودها فاتحة نسبياً في المناطق الحارة مثل الهنود الحمر، كما أنه توجد شعوب سوداء نسبياً في المناطق المتجمدة الشمالية مثل هذه التي يقول عنها بودان[٢٠٨]. أنها اسمرت من البرد القارس مثل "اللاب والإسكيمو" وهناك حالات من الصعب فيها أن نحدد اللون. فهل الفولا

(٢٠٨) بودان (٣٦) ص ٤٦٥.

والأحباش من البيض أو من السود هنا يسرعون إلى ملاحظة أميل جويتيه Emile gautier وهي أن المشكلة بدت صعبة في جميع الأوقات[٢٠٩] بشكل ملحوظ وجعل أن الإغريق القدماء من الرومان، بل والعرب في الجزائر لم تكن لديهم كلمة في لغاتهم تعني "زنجي" فقد كان من الصعب لديهم أن يضعوا حداً فاصلاً بين الألوان العادية التي تتدرج في سلسلة من مختلف الظلال.

ولكن عندما ينتهون من ذلك ويذهبون أبعد من ذلك إلى أن قبائل أمريكا الجنوبية الذين يقضون حياتهم في ظلال الغابات أخذت لوناً من هؤلاء الذين يعيشون في أرض غير ذات ظل دائمة، وأن قبائل أفريقية المدارية الذين يعيشون في ساحل الكمرون أدكن لوناً من الذين يعيشون في الجبال ذات الغابات[٢١٠]. فهل سيكون من نصيب الجغرافيين كجغرافيين أن يقولوا أن المناخ، خصوصاً درجة الحرارة يبدوا أنها ذات أثر ضئيل وغير ثابت في لون البشرة؟ هل سيكون من نصيبهم أن يدرسوا توزيع الصبغة اللونية وأن يربطوا بين الأجزاء الفاتحة في جسم الإنسان وبين درجة الضوء التي تتعرض لها؟ هل سيكون من عملهم أن يميطوا اللثام عن الأسباب العامة التي تجعل الشعر فاتحاً أو غامقاً عند مختلف السلالات، أو التي تفسر الاختلاف في طول القامة، ودرجة النمو والاختلاف في عرض الجسم في المناطق الحارة، وانتشارها في المناطق الباردة.

(٢٠٩)جويتيه (١٨٤) ص ١٣١ – ١٣٢.
(٢١٠)سميل (٩٠) فصل ٢ وما بعده.

وماذا عن مشكلة السلالات البشرية بأجمعها؟ ليس فقط أصلها بل مميزاتها المختلفة وتلك المجموعة من الحقائق التي عددها زمرمان Zimmerman منذ وقت مضى في مقاله الناقد لكتاب برين Bruhnes[٢١١].

لا شك أنه لا يسع الجغرافيا، كما يقول زمرمان، إلا الاهتمام بهذه الحقائق، ما دامت تتضمن اعتبارات التوزيع والتحديد في المكان وهي بلا ريب جغرافية- حيث أنه لا توجد في الوقت الحاضر سلالات مبعثرة بل يبدو أنها جميعاً ترتبط بأقطار خاصة تكون مناطق أكثر ملائمة لنموها وانتشارها، فشمال الدائرة الأرضية الأربعين تفتك الأمراض الصدرية بالزنوج، تلك حقيقة كما أنه من الحق أن يقال أن من اعتاد الحياة بين درجة حرارة ٥° وبين درجة حرارة؛ ١٧ م يجد من الصعب أن يحيى في درجة حرارة ٢٥° م وتتابع الحرارة والرطوبة يؤثر في الدماغ، والكبد والعكس وهذا ينتج ضعف عام ولاسيما عند من اعتاد شرب الخمر، تكون النتيجة لذلك ارتفاع نسبة الوفيات إلى جانب نقص الإنتاج. ولكن إذا استطاعت الجغرافية أن تساعد في حل المشكلة. وإذا أوضحت أن إحدى الحقائق الهامة هي الأولى، فهل نستطيع ان نجد الحل؟ لا بالتأكيد ويعترف بذلك المؤلف الذي نقتبس منه؛ مثلاً عندما يكتب عن الصحراء. وعما يبدو مفتاح الاستجابات المختلفة التي يبديها سكان الصحراء لأحوال بيئتهم المناخية "وهو وراثتهم الفسيولوجية

([٢١١])(١١) جزء ١٩، ١٩١ ص ١٠٩

وتركيب جنسهم الجسماني وهنا، كما يقول مشكلة خاصة بالجغرافية الطبية.

هذا صحيح. وهناك مشاكل عديدة من هذا القبيل، فكلما ازددنا معرفة بالبشر وبالعالم، كلما ازدادت عدد المشاكل التي تتطلب حلاً. لقد بذلت محاولات عديدة من وقت طويل لكي تنشر توزيع الميلاتزيين في البحار الجنوبية بوجود التيارات البحرية[٢١٢] وهل كان هناك عامل آخر تدخل في موضوع اختلاف مقاومة الشقر والسود للملاريا. فأسوأ الظروف لم تمنع البولونيزيين من استثمار بعض الجزر الخالية من هذا الوباء، ولكن الجزر الغنية بثروتها النباتية اجتذبت الميلانيزيين، الذين كانوا أكثر تحملاً وأقدر على متلاءمة أنفسهم لأخطر أنواع المناخ وأكثر قابلية على اكتساب مناعة ملحوظة من الحميات الخطرة مع الزمن: هذه مشكلة أخرى للجغرافية الطبية.

وهل هناك مشكلة أكثر أهمية للجغرافي من تلك[٢١٣]. التي أثار غبارها في السنوات الأخيرة عما إذا كان هناك سلالة أمريكية تتكون ببطء من الناحية الأنثروبولوجية، وتحت مؤثرات يمكن إرجاعها دون شك إلى تربة أمريكا ومناخها؟

نحن نعرف النتائج الباهرة التي وصلت إليها لجنة التحقيق التي شكلها مجلس النواب الأمريكي لهذا الغرض، تحت رئاسة أنثروبولوجي

---

(٢١٢)عن هذه النقطة وحدها اقرأ كاترفاج Quatrefages (209) وقارن Tilenius في مجلة الأنثروبولوجيا – فينا جزء ٣٦، ١٩٠٦ ص ١٢٢

(٢١٣)عرض نظرية بؤاس في عدد ديسمبر سنة ١٩١٣ Rev. generale de Sciences

معروف، هو الأستاذ بؤاس Boas وكيف تتحد العناصر المهاجرة المختلفة في طراز واحد حتى شكل الرأس، طويلاً كان أو عريضًا، تغيير وسار نحو متوسط متساو في الجميع. وهذا يرجع إذا صدقنا اللجنة على الأقل- إلى أثر البيئة، والمناخ والضوء والطعام. ولكن ليست هذه مشكلة الجغرافيين، إذ ليس الجغرافيون بقادرين على حلها.

وإذا أخذنا مثالاً آخر يختلف عن المثال السابق، نجد أن ليس لهم أن يدخلوا في مشكلة أقل من الأوروبيين من أقطار معتدلة، مثل الهولنديين، في مستعمرات مدارية مثل جزر الهند الشرقية[٢١٤]. فهل يبدو عليهم تغير جسماني إذا قورنوا بمواطنيهم الذين لم يغادروا هولندا؟ وهل هذه التغيرات هامة أم أنها قاصرة على بعض الأمور الثانوية- مثل ليونة في الأنسجة ومرونة في الأطراف بحيث تجعلهم يستطيعون الانحناء كما يستطيعوا أهل الشرق الأقصى، يبدو على هذه الأسئلة البساطة التامة، وأنها نظرياً سهلة الحل. ولكنها في الواقع أثارت كثيراً من الجدل.

على كل، يجب ألا نقصر أنفسنا على المؤثرات المناخية فقط. ونهمل أثر التربة، وتلك فرصة سانحة تنقذنا من تكرار كثير. هل صحيح أن الأجزاء العظيمة في الحيوانات مفرطة في النمو في البلاد الجيرية؟ بينما هي غير نامية في البلاد التي ينقصها الجير.

هذا اعتقاد قديم لا يزال مستمراً حتى الآن، هل السير على الأرض المستوية كان له أثر كبير ملحوظ في الصفات الجسمية التي

(٢١٤) قارن أبحاث **Kohlbrugge** في مجلة الأنثروبولوجيا (الفرنسية) (١٦) ١٩١١ ص ٢٠٥

لوحظت في الفلاتورز بين الماشية والخيل، بل والإنسان مثلاً الإفراط في نمو الحوض واستعراض الأرداف وكبر البطن واستعراض القدم وانتشارها واستدارتها؟ لقد قال البعض في هذا أمر لاحظه وأكده باروه وسرغنت Baroux & L. sergeant[٢١٥]. وإلى هذا القبيل أيضاً نرجع ما يسمى بنظره الفلمنك العالية "أليست تلك طريقة طبيعية لأهل السهول في السير، بحيث يستطيعون أن يكتشفوا أكبر مساحة من الأفق دون أن تعوقهم تضاريس السطح كما تعوق أهل الجبال.

بنفس الطريقة ننتقل إلى بيئات أخرى فهل لا يوجد مكان لدراسة التغيرات الجسمانية التي تحدثها الحياة على ظهور السفن بين من تجبرهم بيئتهم على قضاء حياتهم فوق سطح الماء مثل ضعف الساق العصبي وقوة الذراع التي تلاحظ بين سكان باروتس لاند Barotse Land والزمبيزي وبين أهل بتيراولفويجو الأصليين وجزر الوشيان[٢١٦]، بل وبين الفلمنك[٢١٧] حيث نجد بروزاً في لوح الكتف الأيمن وانثناء في الجلد في الردف نتيجة لما يقومون به من تسيير القوارب الصغيرة في القنوات والأنهار وأخيراً فهل مجرد العزلة أو الحياة الجزرية هما المسئولان عن صغر حجم خيول أيسلندة وشتلندة وقورسيقا وسردينيا، ثم اضمحلال حجم الخيل التي جلبت إلى فوكلندة سنة ١٧٦٤[٢١٨] وهل عزلة القرون والبعد عن الاختلاط والتزاوج والاتصال بتيار

([٢١٥]) مس سميل فصل ٢ من (٢٩٠) ص ٣٣، ٣٤، ٣٥ بصفة خاصة.
([٢١٦])باريس، ١٩٠٦.
([٢١٧])مس سمبل (٩٠) فصل ٢ ص ٣٥.
([٢١٨])بارو وسرغنت، ذكر من قبل.

الحضارات الكبرى مسئولة عن نظرة البريطان Bretons الخاصة إلى الحياة وصفاتهم الجنسية المميزة التي تمتاز بها البجودان Bigoudens في Pont L' Abbe مثل الوجه المستوي السطح والقامة القصيرة والسحنة السمراء[٢١٩]؟ إن علينا أن نعتبر هؤلاء سلالة أجناس غريبة– أورالية أطلسية استوطنت تلك الأطراف من القارة نتيجة هجرات قديمة جداً؟[٢٢٠]

هذه بعض المسائل ذات أهمية خاصة للجغرافيين أخذت على سبيل المثال ولكنها لا تدخل في نطاق بحثه. وربما ساعد في عرضها عرضاً صحيحاً ولكنه غير مؤهل أن يعرضها بنفسه، عليه أن ينتظر حتى تحل بواسطة غيره.

أننا نصر على هذه النقطة ولنا في ذلك حجة. فلقد كان من خطر النظريات العلمية عادة كما قد لاحظنا من قبل أن يقتنصها رجال الآداب في نفس اللحظة التي تفقد فيها قيمتها وتصبح عديمة الجدوى ففي نفس اللحظة التي طلق فيها رجال التاريخ الطبيعي نظرية الأقلمة القديمة لا يحق للجغرافيين أن يتمسكوا بها في عناد وإصرار. ويكفي أن نقول كلمة عن هذا الموضوع إذ أن لنا إليه عودة.

الأقلمة بمعنى الكلمة القديمة، أي فكرة اكتساب الكائن الحي مميزات خاصة ذات فوائد معينة وغير ذات فوائد معينة، وذلك عن طريق

---

(٢١٩)سميل، ذكر من قبل.
(٢٢٠)فالو (٢٣١) ص ٦٣ – ٦٤.

الفعل الآلي للبيئة. هذه الفكرة كانت ذات شأن في نطاق العلم، وهذه الفكرة صحيحة بالنسبة للنبات، وغير صحيحة بالنسبة للحيوان. وقد هاجمها علماء الأحياء المشتغلون بالكيمياء الطبيعية، وعارضها كونيو cuenot سنة **١٩١٢** بفكرة التهيئة السابقة في كتابه الكبير عن أصل الأنواع الحيوانية.

ومما لا يقبل الجدل أن مشكلة المؤثرات الجغرافية قد ادخلها في التاريخ خلال السنوات الأخيرة رجال شعروا برد فعل هذه النظريات الكبرى التي اقتسمتهم فيما بينهم، ولاسيما الدارونية واللاماركية، فكان من نصيب لامارك أثر البيئة، ومن نصيب دارون التأقلم، "الملائمة" وكان أثر هذه النظريات واضح مقصود ولم يكن خيالياً.

هل هذا الأثر مشروع؟ هل هناك قياس حقيقي بين المشاكل التي يعرضها علماء الأحياء والمشاكل التي استحوذت باهتمام الأنثروبولوجيين؟ هناك مقارنة وتقابل بين حياة الأفراد وحياة المجتمعات البشرية، ولكن أليس هذا التحليل أمر شفهي قاصر؟ وأكثر من ذلك ماذا لو كانت الملائمة مجرد تسمية، وأن البيئة مجرد نظرية شكلية وإذا كان علماء الأحياء قد بدئوا يهجروا وجهة نظرهم القديمة التي اصطبغت بالنهائية، وإذا كانوا قد بدأوا في اعتماد نظريات أكثر تعقيداً خاصة بطبيعة الفيزياء الكيميائية مثل نظريات لويب Loeb[٢٢١] أننا سنكتفي الآن بوضع المشكلة وسنبين العناء الذي سيلاقيه الجغرافيون إذا خاطروا

(٢٢١)على سبيل المثال: **La Dynamique des Phenomenes de la vie** (الطبعة الفرنسية – باريس ١٩٠٨) الدرس السابع والثامن.

في مجال أجنبي عنهم، عناء دونه عناء رجال الاجتماع أو المورفولوجيون الاجتماعيين عندما يخاطرون في مجال الجغرافيا. كما أنها ستظهر لنا أثر المناخ على الصفات الجسمانية للإنسان، مثل طول القامة ولون البشرة وتفصيلات التشريح، مشكلاتتبدو بسيطة نسبياً ولكنها أبعد ما تكون عن اليقينية في حلها فما بالك بالمشاكل الأكثر تعقيداً التي ستضطر إلى معالجتها؟

٣) المناخ، الصفات البشرية، وآثاره

وكما قيل أن هناك أثر مباشر للمناخ على طبيعة الإنسان الجسمانية فتمت أيضاً أثر له على طبيعته المعنوية– على خلقه. وهذه الفكرة ليست جديدة بل أنها أثارت انتباه الباحثين من أول الأمر أكثر مما أثارتها أثر المناخ على الصفات الجسمانية، لأنها ذات صفة أدق ومجال جيد للتفكير والذكاء.

والواقع أن مجهود بودان الجبار لم يترك المميزات الفزيولوجية ويجب ألا يغيب عن أذهاننا غرضه وهو أنه كان يريد أن يبرهن على أن شكل الجمهورية ينبغي أن يتطابق مع صفات البشر المختلفة" [٢٢٢] ومن هنا بدأ يعلم وسائل معرفة طبائع البشر، وكيف أن أهل الأقاليم المعتدلة المناخ على جانب أكبر من القوة من أهل الجنوب، وأقل مهارة في الصناعة وأذكى عقلاً من أهل الشمال، وأما عن هؤلاء الأخيرين فيلاحظ

([٢٢٢])بودان (٣٦) ص ٤٦١.

عليهم قسوتهم الوحشية كالوحوش الضارية بينما الأولين مثل الثعالب يصرفون كيدهم لشفاء ما في صدورهم من غل وانتقام أما عن الباقين فإنهم لا يعرفون أن روح الابتكار ثانوية لدى أهل الشمال، وأن معرفة الطبيعة والقوى الإلهية والمقدرة على فصل الغث من السمين، من نصيب أهل الجنوب وأن صرامة الجد اللازمة عند من يتولى قيادة الناس من نصيب أهل البلاد المعتدلة[٢٢٣]. ولم يقف بودان عند هذا الحد بل إنه يذهب إلى حد القول أن سحر البلاغة التي يتصف بها المفوهون من الخطباء مثل المحامين والمؤرخين والشعراء وغيرهم من يأسرون القلوب بسحر البلاغة "يكاد هؤلاء جميعاً أن يكونوا من المنطقة المعتدلة إذ أن الجدل المنطقي أمر أهدأ من أن يصبر عليه أجلاف الشمال[٢٢٤]، وأخفى من أن يفهمه أهل الجنوب الذين يريدون أن يروا علامة من السماء أو معجزة إلهية لكي يقتنعوا". [٢٢٥]

تلك أوهام وخرافات، ولكنها مع ذلك ليست أشد ضلالاً مما كتبه الطبيب ديبو Debos الذي زعم، بعد بودان بوقت طويل، أنه قادر على حل مشكلة العبقرية باختيار أعضاء الجسم وصفات الدم على أساس أن الدم بالذات يعتمد على الهواء الذي يستنشقه الإنسان والذي تتغذى عليه المعدة[٢٢٦] أما فونتيل Fontelle فكان أكثر علمية إذ كتب في حذر ١٨٦٦ في مطلع كتابه عن ملاحظات على القدامى

(٢٢٣)نفس المصدر ٤٦٧.
(٢٢٤)نفس المصدر، ٤٨.
(٢٢٥)نفس المصدر ٤٧٨.
(٢٢٦)انظر المقدمة أعلاه.

والمحدثين[٢٢٧] يقول أن الآراء الحية كالنباتات والأزهار تنمو نمواً حسناً في جميع أنواع المناخ ثم يضيف إلى ذلك قوله "إن أنواع المناخ التي تربط جميع أنحاء العالم المادي بعضه بالبعض الآخر تجعل بعضه معتمداً على بعض، يجب أن يكون لاختلافاتها أثر في العقول كذلك" يا لها من ملاحظة حذرة تعطي لها صبغة الفرض الذي لم يثبت بعد؟

نستطيع أن نعذر بودان وخلفاءه، ونستطيع أن نعذر مونتسكيه بعد الأب ديبو فإذا بدت لنا فجاجة تفكيرهم فيجب أن نذكر أنها لم تبد لهم فجة كما تبدو لنا اليوم. ويدل على ذلك فقرة من الأب ديبوه، اقتبسها براو نفشج في مقاله الناقد دون تعليق[٢٢٨].

"لم اختلفت الأمم بعضها عن بعض في الشكل والقامة، وفي الرغبات والملكات العقلية، بالرغم من أنهم انحدروا من جد واحد؟" من هذا الفرض الذي لم يجرؤ أحد في ذلك الوقت على مناقشته بدأ البحث في المناخ. ومهما يكن من شيء، فإن الشيء الذي كان ينقص كل هؤلاء النظريين هو تحليل عناصر المشكلة.

ما معنى الشخصية؟ هل معناها حياة الأفراد السيكولوجية؟ أن بودان، بجرأته المعهودة، وجه همه إلى الملكات العقلية[٢٢٩] "ولما كان لدى الفرد ثلاثة أجزاء رئيسية للروح، وهي الخيال، والحاسة العامة، والعقل، والملكات ثم بعد ذلك يستطرد في استطالة ويفصل كل نوع من

([٢٢٧])Disgression sur les Anciens et les Modernes, 1742tll - 126
([٢٢٨])٣٩ ص (٤٥)، (٣٨) ٢، ص ٢٦١
([٢٢٩])بدوان (٣٦) ١؛ ٥، ص ٤٨٠

أنواع المناخ بما يمتاز به من حرارة وبرودة أو اعتدال وازدهار ملكة من الملكات الرئيسية الثلاث. وعندما أعلن مونتسكيه من جانبه أن المناخ الحار ينتج حضارة ثابتة كان يتحدث[٢٣٠]- كما يبدو- عن النشاط البشري، لقد بدأ من الفكرة العامة وهي "أن صفات العقل ونزوات القلب تختلف اختلافاً كبيراً في أنواع المناخ المختلفة[٢٣١] أما بيكل Buckle فقد قصر نفسه على نطاق الحساسية عندما أرجع نمو الخيال والخلافات في الهند إلى أحوال المعيشة في ذلك القطر. ولكنهم جميعاً يتفقون (ربما تابعهم بعض البيئيين في الوقت الحاضر) على أنهم جميعاً تنقصهم تحديد المشكلة هل هم يعنون بالنفسية الفردية أو النفسية الجماعية.

يكفي أنه من الصعب تحديد الشخصية بالنسبة للأفراد كما أن علم الشخصية (أثيولوجيا) لا يزال في مهده[٢٣٢] فما بالنا بدراسة الأثيولوجيا الاجتماعية التي تحاول دراسة صفات جماعية تاريخية معينة يمكن تمييزها- في الحاضر أو في الماضي- ومنظمة تنظيماً سياسياً متصلة بالأرض ولها شخصية خاصة[٢٣٣].

الشخصية الإنجليزية، الشخصية الفرنسية، الشخصية الألمانية. ألم تستعمل تلك التعابير الدارجة ويساء استعمالها إلى حد كبير

---

[٢٣٠] مونتسكيه (٤٠) فصل ١٤، ٤

[٢٣١]نفس المصدر ١٤ - ١

[٢٣٢]بير (٢٠) ٧٣، فيفر (18) Apropos d'une etude de Psychologie historique جزء ٢٧ – ٣ – ١٩١٣.

[٢٣٣] بير (٢٠) ٨٠ – ٨١.

ولأغراض معينة، ألم يتصور الفرنسي المثالي، أو الأمريكي أو الألماني– بل واللاتيني أو الأنجلوساكسوني، في جميع العصور والأزمنة، بمساعدة علم يدعي أنه تاريخي، وألم ترسم صور عديدة لمثل هذه الشخصيات، قائمة على أساس جغرافي مثل هذه المحاولات مضحكة وفي نفس الوقت ضارة، هل ثبت المثال الفرنسي منذ أيام قيصر Vercingetorix، هل ملاحظات شيشرون وقيصر على الغال لا تزال صادقة على الفرنسيين اليوم، وهل هذا الطراز قليل التأثر والتغير بحيث أنه يمكن أن تجمع خطوطه من وثائق سان لويس ولويس الرابع عشر وعصر الإرهاب وأخيراً الجمهورية الثالثة حتى قبل الحرب العالمية وبالرغم من أحداث التاريخ وما انتاب الشعب من كوارث ومحن وثورات، أن التضليل واضح بلا ريب ومن هنا تتسرب في كتب التاريخ الآراء الخاطئة، نتيجة لاستعمال ألفاظ ينقصها التحديد إذا لم تحدد بعناية. ومن قبل ذلك تلك الفكرة عن البورجوازية في العصر الحديث، وهي فكرة خاطئة من أساسها بشكل لم يعهده التاريخ الاجتماعي.

ولنعد إلى نطاق بحثنا الخاص، فمن لا يستطيع أن يدرك الوهم في محاولة اعتبار ماضي شعب ما (كالنهر الذي يتجه تياره في مجرى دائم واتجاه ثابت دائماً[٢٣٤]) وأكثر من هذا، حتى أنه إذا أمكن صفات شعب فلا بد لهذا الشعب أن يكون ذا شخصية، [٢٣٥] أي ترابط عدد من الصفات الأخلاقية حتى يشترك فيها آلاف الرجال من هذا

(٢٣٤)لا كومب (٤٩) ص ١١.
(٢٣٥)نفس المصدر ص ١٠.

الشعب، وبشرط أن ينفرد هذا الشعب بتلك الصفات دون بقية الشعوب "هذه المشكلة كما يصورها تصويراً بديعاً الكاتب القوي بول لاكومب Paul Lacombe الذي يملك عنان تخمينات هبوليت تين Hippolyte Taine العديمة الجدوى. وعندما يضيف إلى ذلك قوله "من أين نستطيع أن نرسم تلك الشخصية؟ من ملاحظة الأفراد– ومن هؤلاء نطبق مشاهدتنا على شعب– وهو في الواقع لا ذاتية له فإنه في الواقع يبدو متشائماً بالرغم من مسحة التفاؤل التي تسود كتابته. ألا يذهب إلى أصل المشكلة عندما يقول[٢٣٦] "أن الرجل الفرنسي لا يقترب من الحقيقة مما يفعل "الإنسان" فهو مجرد تجريد، كما نجرد ونقول الإنسان... ثم يقتبس ملاحظة تين "إني أرى أناساً ولكن لا أرى الإنسان" ويمكن أن يضاف إلى ذلك، إني أرى كثيراً من الفرنسيين ولكني لا أرى الفرنسي، ومجهودنا أقل في تجريد الفرنسي من محاولة تجردي الإنسان، وهذا المجهود في الوقت نفسه أكثر فائدة وتحقيقاً للرجاء من تجردي الإنسان".

ونستطيع أن نختتم ذلك بقولنا إن هذا العمل ينقصه التحليل، "تعلم الشخصية" "الأثيولوجيا"، لم يقم بعد، ولن يقوم إلى أمد بعيد "فلا زلنا في مرحلة التخمين ولذلك فمحاولة الحديث عن أثر البيئة الجغرافية، أو عن أثر المناخ على صفات الشعوب هو محاولة شرح المجهول".

---

(٢٣٦)نفس المرجع ص ٤١ وأيضًا ٤٧ ـ ٤٩

هذا صحيح فقد يتفق معنا في هذا، ولكن ريثما ننتظر تحليل شخصيات الشعوب، أو تحليل المعلومات المختلفة والحقائق التي تكون تلك الفكرة المعقدة. المتغيرة عن الشخصية، أليس هناك صفات سهلة وبسيطة يمكن أن تلاحظ حقائق عارية عن الإحصائيات الأخلاقية أو إحصائيات الإجرام يمكن أن تكون دليلاً لا يقاوم على أثر المناخ في نشاط الإنسان؟، ولكن إلى أين ستقودنا تلك الحقائق وكيف يمكن شرحها؟

هذا مثلاً دراسة عن إحصاءات الإجرام تتعلق بالجرائم الجنسية في إيطاليا: [٢٣٧] المؤلف سينيور فيكاي Ficai يثبت أن هذه الجرائم أكثر شيوعاً في جنوب إيطاليا منها في شمالها فهناك زيادة ٩٠% في جرائم الجنوب كلما اتجهنا من لمبارديا إلى صقلية وينتهي بعد ذلك إلى أن المناخ هو السبب؟ أليس من الواضح من الإحصائية، أن الجرائم الجنسية متعلقة بالمزاج؟

ولكن هل هذه النتيجة صحيحة؟ هل هناك حقاً أثر مناخي مباشر بسيط بديهي؟ ويلاحظ المؤلف أن في إيطاليا، النى اختارها لدراسته هناك علاقة مباشرة بين عدد الجرائم الجنسية والطاقة الفزيولوجية للأفراد، كما تدل على ذلك نسبة المواليد، وهي في نفس الوقت ذات علاقة مضطردة مباشرة مع زيادة عدد الجرائم ضد الأفراد. أما البرهان العكسي فقاطع، إذ أن عدد الجرائم الجنسية يضطرد اضطراداً عكسياً

---

(٢٣٧) Science Positiva يناير 1898 وأيضًا (17) جزء 2 – 1898 ص 427

مع نسبة الأمراض والانحطاط الخلقي بل أنه يوجد عدد أكبر في المستشفيات من المرضى بأمراض سرية، وأمراض عقلية وذلك في شمال إيطاليا منه في جنوبها. ولكن هل الطاقة الفزيولوجية ونسبة المواليد المرتفعة؛ وبالعكس الانحطاط الخلقي والأمراض العقلية تتوقف كلها على المناخ؟

يبدو أن الجرائم ضد الأخلاق أي الجرائم ضد الأفراد تخضع لنفس القانون، هل هذا القانون داخل في نطاق الجغرافية بحيث نستطيع أن نتحدث عن قانون المناخ؟ وإذا كان صحيحاً أن جرائم الأخلاق أكثر شيوعاً حيث تقل نسبة الانتحار وحيث يقل التعليم العام، فهل نستطيع أن نقول أن الانتحار والجهل بدورهما نتائج مباشرة للمناخ؟

ولهذا يجب أن نشك في الحلول البسيطة وفيما تدعى بالبراهين القوية التي لا يمكن أن تعارض؟ جنوب إيطاليا، جرائم جنسية! ثم يقول فيكاي: أنه المناخ! ولكن في نفس العام يرد Nico Foro قائلاً: إنه الجنس والعوامل الاقتصادية[٢٣٨] وهذه نتيجة أتت من نفس الإحصاءات بالرغم من أنها كانت مجملة عامة في إحداهما، مفصلة في الأخرى فمن بين ١٠٠٠٠ سرديني مثل ١٧٨ بين يدي المحاكم الجنائية، ومن بين ١٠٠٠٠ صقلي مثل ١٠٠، ٩٧ من بين ١٦٠٠٠ كالابري و٤٨ فقط من بين ١٠٠٠٠ لومبارديا. أما السبب في رأيه فكان جنس البحر المتوسط، العنيف العصبي المزاج الميال للبطش بالإنسان، يضاف إلى

(٢٣٨)نحن نتبع هنا المناقشة الحسنة الموجودة في الحولية الاجتماعية (١٧) جزء ١١ ١٨٩٨ ص ٤١٤ وما بعدها.

هذا النظام الرأسمالي نظام اللاتيفنديا الإقطاعيات واستغلال الفلاحين سردينيا وصقلية... كما لو كان معنى الجنس البحر المتوسط سوى مجرد فكرة، وكما لو كان معنى جنس البحر المتوسط مزاج عصبي عنيف، وكما لو كانت تلك الصفة لاصقة بالضرورة بكل الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الجنس، لا داعي إذاً للبحث عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية العامة التي يعيش في ظلها الأفراد؟ وأخيراً كما أو كانت الرأسمالية، التي لا تتمثل هنا في صفاتها المميزة جميعاً التي قد تؤدي إلى تركيز السكان من الطبقة العاملة في المدن وإلى ارتباط هؤلاء السكان بظروف الحياة التي يضطرون إليها، كما لو كانت كل هذه التفسيرات لا تفسر شيئاً في الواقع.

المناخ، الجنس، الرأسمالية. لما لا يقال "المدنية" بكل بساطة. فعندما نجد نسبة الإجرام مرتفعة في إسبانيا في الوقت الحاضر باستثناء قطالونيا، وسردينيا وصقلية إلى حد ما وكورسيكا، والولايات الرومانية ونابلي. لما لا نقول أن هذه الأقطار جميعاً من نهاية القرون الوسطى حتى آخر ثورات القرن التاسع عشر كانت تعاني نفس المؤثر الذهني والكبت ورد الفعل السياسي والقضائي وما إلى ذلك مما لا نحتاج لتفصيله، بدلاً من أن نرجع هذه الأمراض إلى أمر غامض كالمناخ، ودون ان نخلق خرافة جنس البحر المتوسط العصبي المزاج.

إن هناك عدد من الجغرافيين يشعرون بتلك الصعوبات في قرارة نفوسهم ولكنهم يكتفون بنقل تلك المؤثرات وترديدها هرباً من الوقوع

في مصاعب أخرى، ولكنهم لا يتحدثون عن أثر مناخي بسيط مباشر، بل يتحدثون عن "أسلوب الحياة" الذي يشمل المناخ فيما يشمل ولكن ما هي الغاية القصوى لكل هذا؟ هل ننتهي إلى تقسيم العالم إلى، أقاليم حارة، وأخرى باردة كما فعلت مس سيمبل؟

البلاد الحارة – فلاحو الأندلس المبتسمين الذين يعيشون حياة راضية، من هنا عدم الاهتمام، ومن هنا المرح، ومن هنا الحياة العاطفية المشبوبة الخيال– وهذا يطبق على جنس البحر المتوسط بأجمعه وعلى الزنوج. وفي نفس الوقت نجد الميل نحو الإسراف والتبذير "والأمور المهيئة للحياة السهلة بأجر منخفض، ومن هنا كانت الأجور المنخفضة، الدهماء المستغلة، وانخفاض المستوى.

البلادة الحارة– فلاح أستورياس Asturias الجلف– تظهر عليه آثار عدم الراحة، ومن هنا كان بعد النظر– ومن هنا الجد. ومن هنا الخلق المتين الذي يحسب حساب العواقب، وتلك صفات الأوربيين الشماليين. وفي نفس الوقت ميل نحو الاقتصاد والاعتدال والانعكاف في المنازل والقناعة بمباهج متواضعة، ثم الأجور المرتفعة، التي يصرف منها العامل الحذر في حكمة، ثم سلم الرأسمالية.

ثم تدعم تلك الصورة بمقارنة جد الصيني الشمالي بمرح الصيني الجنوبي. مرح الأوكرانيين النسبي بجد الروس الشماليين، روح الجنوبيين المتساهلة بحزم ساكسون البلطي ونشاطهم، بل أن الجنوبيين كاليهود

يتصورون الجحيم ملتهبة النيران، بينما الشماليون مثل الإسكيمو[٢٣٩]. يتصورونها منطقة متجمدة ويجب أن نعترف أن كل هذه اللباقة لا تتقدم بنا كثيراً، فهي ترديد لبودان بعد أن روجع وصحح وزيد عليه، ولكنها لا شيء سوى بودان[٢٤٠] وبالرغم من هذا فمن المفيد البحث في تلك الشخصية.

ولكن ما هذا الذي نسميه مناخاً؟ لا ينبغي أن يقال أن البحث عن المناخ قد تقدم الآن، وأنه يسير قدمًا إلى الأمام بإضافة عدد من الكتب عن المناخ أو عن الظواهر الجوية، بل المهم هنا هو تحليل مفصل لأنواع المناخ من حيث علاقتها بالإنسان. ولكن من يجرؤ على هذا التحليل في الوقت الحاضر؟

هناك فرق محسوس بين المعنى العلمي والمعنى الشائع لكلمة المناخ. تلك حقيقة عبر عنها راؤل بلانشارد في كتابه عن مناخ هذا الإقليم لا يتمتع بشهرة طيبة فالغرباء الذين يفدون إليه لا يفتئون يتحدثون عن الملل الذي يصيبهم به هواء الفلاندرز إلا أن دراسة المتوسطات المناخية تدل على أن المناخ الفلمنكي مرض في مجموعة "هذا عرض للمشكلة، ومن الملاحظة أنها عن إقليم لا يمتاز بتفاوت كبير في المدى الحراري، أو تفاوت في كمية الأمطار الساقطة، إقليم معتدل في جميع الوجوه.

---

(٢٣٩)سمبل (٩٠) فصل ٢، ١٧.
(٢٤٠)بودان (٣٦) ٥٠١، ١، ص ٤٨٦.
(٢٤١)بلانشارد (١٧) ص ١٤.

لا شـك أن محـاولات عديـدة بـذلت فعـلاً إن لـم يكـن لحـل المشـكلة، فعلى الأقـل لعرضـها عرضـاً صـحيحاً. ولكـن كـم يبقـى حتـى تسـتوفي المسـألة بحثـاً؟ ربمـا فضـلت عوامـل المنـاخ علـى التقـويم الإحصائي. ولكن تقابل تلك العوامل وتفاعلها وتلاقيها وافتراقها وتأخرها وترتيبهـا الزمنـي، واتحادهـا واختلافهـا، كـل هـذه العوامـل التـي تكـون مجموعها أنـواع المنـاخ، والتي تعطي للمنـاخ صـفاته المميـزة، وأثره على الحيـاة وأهميتـه وقيمتـه للإنسـان– هـذه أبعـد مـا تكـون عـن أن تقـوم إحصـائياً. ولا نـزال محتـاجين لتقسـيم أنـواع المنـاخ بصـفة عامـة– تقسـيم المناخ وعلاقته بالإنسان تقسيماً أكمل وأضبط وأوفى بالغرض من تقسيم كوبن Koppen فتقسيمه على أية حال مؤسس على الحياة النباتية وهي حياة تستطيع أن تعبر بوضوح تام، إذا حسن اختيارها عن الآثار المتجمعة للظـواهر المناخيـة المختلفـة وإذا تركنـا جانبًـا دراسـة المميـزات الكاملـة لأنواع المناخ[٢٤٢] المختلفة فكم من المسائل تحتاج إلى حل في دراسة كـل إقلـيم. دع عنـك قيمتهـا وأهميتهـا للإنسـان. وهـو أمـر دقيـق. آثـار العناصـر المختلفـة التـي تكـون أي منـاخ مـن النـواحي الميكانيكيـة والفزيولوجية والنفسية.

ودراسة المناخ من حيث علاقته بالنبات، هذا العنصر الحيوي الذي يمتاز بالثبات نسبيًا لا يزال في طفولته، فنحن لم نبدأ إلا حديثًا في ملاحظة توزيعه، لا في جميع الإحصاءات عنه فحسب ولا نزال محتاجين

---

(٢٤٢)برون (٦٦) ص ٣٠٥.

لمجهود مثل هذا فيما يختص بعلاقة المناخ بالإنسان ولكن هذا سيكون أطول[٢٤٣]. وأشق وأكثر تعقيداً بدرجة كبيرة[٢٤٤].

ملخص ذلك: أن الآراء الوحيدة التي اجتذبت انتباه الباحثين وكانت مهتمة بدراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة اقتصرت على حقائق الأنثروبولوجيا- الطب والمناخ والأيثولوجيا. أما ما يبدو لنا أساسياً فهو غما أهمل وإما أصابه التجاهل[٢٤٥].

٤) المناخ يؤثر عن طريق المملكة النباتية

لا ريب في أن المناخ يؤثر على الإنسان ولكنه تأثير غير محسوس، كما أنه لا يدخل في نطاق الجغرافية التي تهتم بالمناخ من حيث علاقته بالبيئة الطبيعية فحسب. أو بعبارة أخرى لا بد من معرفة أثر المناخ على البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان قبل أن نستطيع فهم أثر المناخ على الإنسان.

هذا الأثر ينصب أولاً على شكل الأرض وتضاريسها. فأقوى عوامل النحت وأبعدها أثراً وأكثرها دواماً واستمراراً وهي المياه الجارية والثلاجات والرياح- كلها ترجع إلى المناخ بشكل أو بآخر- أما العاملان اللذان لا يتعلقان بالمناخ فهما البحر والنار، هذا العامل المناخي يزداد

([٢٤٣])قارن هذا بأقاليم هربرتشون The Natural Regions of The World (Goeg. Teacher, III, 1905)

([٢٤٤])لم نستطع أن ندخل في هذه المناقشة رأي هنتنجثون إذ وصلنا متأخراً، Climate and Civilization (73).

قوة إذا علمنا أنه لا يقتصر على وقت معين. فمن يريد أن يعرف كل ما يتعلق باتخاذ إقليم ما شكله الحالي، عليه أن يدرس الدور الذي لعبه المناخ ليس في الحاضر فقط بل في الماضي أيضاً. وهل نحتاج إلى الأعمال العلمية الكبرى التي تابع بها العلماء دراسة تقدم الجليد، أو تتابع تقدمه في العصر الرباعي في أوروبا وآسيا وأمريكا في نفس الوقت؟ ألم تكن "المشكلة السببية" فقط هي التي أثارت انتباه العلماء، وإمكان إيجاد علاقة بين انتشار الجليد في أحد عصوره وظهور الأرض التي كانت تربط بين أوربا وأمريكا الشمالية وارتفاع درجة الحرارة في المحيط المتجمد[٢٤٦]، ولكنها أيضاً مشكلة الآثار المترتبة لأن التتابع لا يقل أهمية في هذه الدراسة.

---

(٢٤٦) نظرية (٢٤) Krischtafowitch (Bull. Soc. belgeGeolog) 1910 ص 292 - 305



شكل رقم (١) أقصى امتداد للجليد في عصر البلايستوسين
(عن دي مورجان)

أنها ليست الآثار المترتبة المحلية فقط، وهي تشكيل السطح في المكان مثلاً، موقع شيكاغو، وبحيرة جاردا، أو موقع سيون في ثاليه وغيرها من الأمثلة التقليدية والتي يمكن أن تملأ بها صفحات عدة كثيرة. ولكن ألا تزال ظروف الحياة في أقطار مثل كندا[٢٤٧] وفنلندة والهضبة البلطية متأثرة تأثراً كبيراً بوجود شبكة من الأنهار مع عقبات طبوغرافية من أصل جليدي أخرى[٢٤٨]. أليس من المهم من ناحية أخرى لمن يريد أن

[٢٤٧] يوليج (١١) ١٩٠٨ ص ٤٤١
[٢٤٨] رافينو (١١) ١٨٩٨ ص ٣٥٨

يفهم توزيع المناطق الاقتصادية في روسيا وغرب سيبريا أن يعرف كيف يستطيع ان يكتشف أصولها في جغرافية الحاضر[٢٤٩] فإقليم تربة الشيرنوزم (السوداء) في سهول جنوب روسيا كانت قد تم جفافها في الميوسين. وإقليم النباتات المستنقعات في الوسط منطقة رواسب بلايستوسينيه. فالتندرا المتجمدة بطحالبها ومستنقعاتها اللبادية منطقة تكوينات جليدية. ولكن يجب أن تعرف أيضًا أن أهم أجزاء هذه المناطق عمر حديثاً نسبياً– وهذا لأن الجليد لم يتقهقر عنها إلا حديثاً. ومن الظاهر أن الجزء الجنوبي فقط من السهول، إقليم التربة السوداء كان أول إقليم عمره الإنسان[٢٥٠]– ١١٦ – ثم وسط روسيا، إقليم النباتات ولكن هذان في القرن العاشر قبل الميلاد. أما في الشمال قد استمرت حضارة العصر الحجري وبقي الرنة حتى عصر قريب من الزمن الميلادي[٢٥١] حتى في القرن الثامن عشر شاهد بالاس Pallas الوجول Woguls يعيشون في كهوف، على الصيد والقنص، ويكسرون العظام لصنع نوع من الحساء وهذا مثال لاستمرار حياة تشبه حياة الإنسان الموستيري حتى القرن الثامن عشر[٢٥٢].

ولكن لم نهتم بدراسة أقطار سحيقة؟ ألم يكن لانتشار الجليد الرباعي أثر في تطور الحياة في أقطار غرب أوروبا؟ لقد بين فيدال دي لابلاش كيف أن الأقاليم المنخفضة المشمسة التي تمتد من

---

(٢٤٩)هذا عن التعمير قبل التاريخي، أما عن تعمير روسيا التاريخي، انظر أدناه الباب الثالث فصل ١
(٢٥٠)زابور وسكي (١١) ٩٠١، ص ١٤٣
(٢٥١)دي مورجان (١٧٤) ص ٤٢١
(٢٥٢)فيدال (٢٣٢) ص ٤٢١

الجارون[٢٥٣] حتى جنوب بريتاني، أقدم الجهات تحرراً تماماً من الثلاجات، كانت من أوائل الأقاليم التي بدأت فيها الإنسانية في الازدهار وأنه ليشاطر علماء قبل التاريخ آرائهم في قدم فرنسا وأنه يصف نفس الأقاليم لنفس الأسباب أنها كما يقول Sophus Muller أهم مركز للحضارات القديمة في أوربا[٢٥٤] ومن المهم بلا شك لمن يدرس أصول العمران البشري أن يعرف أن "أوربا العصر الحجري القديم لم تكن أوروبا المعاصرة" ولكنها الأجزاء من أوربا فقط التي تحررت من الجليد[٢٥٥].

إذاً فالمناخ الذي يتحكم في التعرية له أثر كبير في تشكيل سطح الأرض، وأن تشكيل سطح الأرض بدوره هام جد في توجيه حياة الإنسان.

(٢٥٣)نفس المرجع ص ٢٩ ـ ٢٠
(٢٥٤)١٧٤ ـ ص ٤
(٢٥٥) نفس المرجع ٣



شكل رقم (٢) امتداد الجليد وانتشار إحصاءات العصر الجيري القديم
(عن دي مورجان)

وهنا يظهر لنا سؤال. فإذا كانت الأشكال التي تتخذها القشرة الأرضية مهمة للإنسان فهل هي بصفتها أشكال؟ لا بالتأكيد، أو إذا اعتبرت كذلك فإن أثرها ضئيل جداً على الجماعات البشرية، حتى من ناحية صلتها بمواقع المدن أو المحلات الصغيرة إذ أننا هنا أيضاً تقابلنا مسائل الإضاءة والتخطيط والتعرض للأشعة وهذه متصلة بالمناخ كذلك. ولكن كيف نستطيع أن نفصل القشرة الأرضية، عن غطائها النباتي كيف نستطيع أن نجرد الأشكال البسيطة حيث يلعب المناخ دوره في تغطيتها بغطاء هو متنوع أشد التنوع وله أهمية كبيرة في حياة الإنسان.

الحياة النباتية هي الوسيط الصحيح بين عالم الجماد والعالم العضوي. تستمد من الأول العناصر الكيميائية التي تحللها ثم تمتصها من التربة عن طريق الجذور وعن طريق أعضاء التنفس من الهواء الطلق حتى تستطيع أن تكون ما يسميه فيدال دي لابلاش مصنعاً حياً للطعام، وعلى هذا بصفة خاصة، ويكاد يقتصر عليه، يتوقف استمرار بقاء أو فناء الحيوان في قطر ما. سواء أكان آكلاً للعشب أولاً. وهذا هو السبب الذي من أجله يمكن أن تسمى الجغرافية النباتية الحلقة الوسطى بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية السياسية.

تهتم الجغرافية النباتية بالمناخ قبل أي شيء آخر، ليس فقط لأن الإيكولوجيا أي علم البيئة المحلية، الذي أسسه شمبر Schimper في كتاب الجغرافية النباتية Pblanzengeograpie تأسيساً قوياً على القزيويوجيا، ليس فقط لأنها تهمل دراسة أي شيء بجانب المناخ، مثل أثر التربة، سواء كانت خصبة أو غير خصبة، درجة مساميتها للهواء والماء، وغناها في المواد الكيميائية ونوع استجابتها للنباتات المختلفة مثل النباتات الغنية بالكلس calcioles, calcifuges et les hlaophiles وليس فقط لأنها تهمل اعتبارات سطح الأرض، وأثر الحياة النباتية في إقليم سهل أو إقليم جبلي، إقليم مشمس هنا وظليل هناك، فما هذه جميعًا كل آثار المناخ على صفات التربة وعواملها النباتية. أليس من المسلم بها أن التربة الواحدة، كما قد لاحظ بنك Penck في البيئات الجغرافية المختلفة تختلف في درجة تعرضها باختلاف المؤثرات المناخية، ألا تدل النباتات نفسها، للعين الخبيرة في مظهرها الخارجي

على الصفات الأساسية للمناخ- تأثير الحرارة والبرودة، الضوء أو الظلمة، الرياح التي تحمي النباتات أو تعجزه أو تميته وفوق كل شيء الرطوبة أو الجفاف أثر يطول أمده أو يقصر، يشتد فعله أو يضعف.

الماء هو العامل الأساسي الذي يدخل في أي فحص للنباتات، ماء يتبخر في الهواء أو ماء يجري في التربة ويروي الجذور. ولم يكن اعتباطاً دون سبب أن يقترح بنك عام ١٩١٠ تقسيمًا للمناخ قائماً على تأثير الماء على التربة، مثل المناخ الجليدي الرطب والمناخ الجاف بالتقسيم القديم للمناخ القائم على الحرارة. فهناك في الواقع سيماء كاملة للنبات قائمة على علم وظائف الأعضاء أوراق النباتات الخضراء العريضة المنتشرة معرضة للبخر، وأوراق الأشجار الصلبة الجافة الباهتة التي تتحول أحياناً إلى أشواك، عوامل امتصاص دائم واقتصاد دائم على النتح. وقد دلت على ذلك التجربة التي تؤيدها الملاحظة.

نحن نعلم كيف أن النباتات المعتدلة النوع إذا انتقلت إلى جبل بارد تغير مظهرها بسرعة تلتصق بالأرض وتجف، وتتقوى ضد البرد- باختصار تكتسب صفات النباتات النفضية وتتحول إلى نبات نصف سنوي، ثم إلى نبات سنوي، وهذه تجارب جاستون بونيه Gaston Bounier لا تترك مجالاً للشك في هذا الموضوع[٢٥٦]. وبالمثل تتحول إلى نباتات في المناطق المعتدلة إذا انتقلت إلى منطقة حارة، تحت عوامل أيكولوجية مختلفة إلى شجرة مورقة فالنبات الصيني Sencio

---

([٢٥٦])بونيير عالم النبات، باريس ١٩٠٧ ص ٣٣٥ وما بعدها.

Vulgarise الذي ينمو على حواف الطرق في فرنسا يتحول إلى نبات شاهق الارتفاع Seneciojohustoni في أفريقيا... تلك أمثلة تقليدية لأثر المناخ في العالم النباتي– ولا نضيف إلى ذلك أن هذا دليل قاطع على صحة نظرية الملاءمة(٢٥٧).

ولكن هل هذا ينطبق أيضاً على عالم الحيوان. لا شك أن هذا صحيح فالأوراق العريضة أو المنخفضة، الأفقية أو العمودية، مثل أشجار البلوط، الفروع المرتفعة أو المنخفضة أو الزاحفة، الأنسجة السميكة أو الأسفنجية أو الرفيعة، فتلك آثار عديدة على النباتات، وجلد الدب القطبي الأبيض وحيوان الصحراء الرمادي النحيف، صوف الغنم الصحراوي الدقيق الناعم، الريش الكث المتراكم على الطير القطبي، تلت آثار أخرى عديدة للمناخ. ولكن أثر المملكة النباتية أعمق وأبعد أثراً في المملكة الحيوانية.

وقد لوحظ أمر معين منذ وقت طويل. فليس حيوان الرنة على حافة الدائرة القطبية الذي يقيم نبات العشب الضئيل في الشمال، بل الطحلب الذي يكون غذاء شحيحاً للرنة. وليست اعتبارات الطعام وحدها هي التي تعنينا، وقد بين هاهن Hahn في دراسته الجيدة للحيوانات المستأنسة وعلاقتها بالاقتصاد البشري(٢٥٨) دراسة اتسمت بالسمة الجغرافية، وقد بين الصلة الوثيقة بين الحيوان الذي يدرسه مع الزراعة وبين وسائل استثمار التربة وبأشكال التنظيم الاقتصادي

(٢٥٧)قسنططين ١٠٤ ص ١٩٤ وما بعدها.
(٢٥٨)انظر مجموعة كوينو **Cuenot** ومناقشته.

المختلفة. أما الحيوان الوحش القافز الزاحف، أو المتسلق. ذو الظفر أو المخلب، والمخلوقات ذات القدم المسطحة التي تعيش في الستبس، الحيوان النحيف القوي السيقان. أليست جميعاً متلائمة لأنواع معينة من النبات ولمناطق نباتية معينة؟ وهنا أيضاً أثر المناخ على الحيوان، عن طريق المملكة النباتية.

وبنفس الطريقة، أنه النبات أيضاً الذي يلعب الدور الأساسي في حياة الإنسان سواء كان آكلاً النبات أو اللحم. أنها تمدهم مباشرة أو عن طريق غير مباشر بالطعام. ولكنها تمدهم غالباً بمواد نافعة للبناء. نافعة للأدوات والملابس وهل يحتاج إلى شرح هذا؟ أنها بكل بساطة تؤيد ما قلناه– أن فعل المناخ على الإنسان يأتي عن طريق غير مباشر ولكنه بالرغم من ذلك أثر هام مستمر

والنتيجة لذلك كله بسيطة– أن الحدود الطبيعية التي تبحث فيها لا ترسم إلا طبقاً للمناخ كوسيلة تضبط توزيع النبات.

وهكذا استوثقنا من المبدأ. لا يمكن أن يكون الإطار إلا مناخياً نباتياً.

الفصل الثاني

تحديد الأقاليم الطبيعية

١) تعقد فكرة المناخ

قد استعملنا في الفصل السابق عبارة الإطار المناخي النباتي. ليس مناخياً فقط ولا نباتياً فقط. ولكن إطار مناخي نباتي معاً. وان من يقران ثلاث خرائط للهند تبين سقوط الأمطار والنبات وكثافة السكان ليجد العلاقة قوية بارزة بين هذه الخرائط الثلاث. فبعض الجهات غزيرة الأمطار ويترتب على ذلك غنى الحياة النباتية. وكثرة السكان وجهات أخرى نادرة الأمطار فقيرة النبات قليلة السكان أمور يترتب بعضها على البعض الآخر.

تلك خرائط ثلاث. ليست مفرطة في التبسيط. ولكنها أنشئت على معلومات وثيقة مختارة منتقاة. يفسر بعضها بعضاً حتى في التفاصيل. فإذا كانت الخريطة النباتية تمكننا من أن نعرف لماذا يمتاز إقليم ريجور بالقطن والذرة بدلاً من الأرز فإن هذا الإقليم أقل سكاناً من إقليم الجانجز بالرغم من وفرة مياهه. فإنها لا تفسر لنا– بالرغم من ذلك– لماذا كان الساحل اليرمي الذي يسقط عليه ٣ متر من الأمطار أقل سكاناً من السند الذي لا يسقط عليه أكثر من ٢٨ سم أو لماذا

كان إقليم ميسور الجبلي أقل سكاناً من ميدان في الشرقي "١" على أن هذا لا يعني أن مثل هذه الخريطة الصعبة الإنشاء والصعبة التفسير ضرورية لفهم أثر المناخ على الإنسان.



شكل (٣) توزيع الصحاري والمناطق الرطبة الحارة والرطبة الباردة

عن سوبان Saupan, Verteilung d. mittl – jahr Regenmenge auf du Erdoberflache. (Hann' Lehrb. D. Metcorol. 3 me ed. 1915)

إننا نصر على هذه النقطة لأن أي باحث يقارن بين خريطتي توزيع وكثافة السكان، سيجد الصلة قوية والتشابه واضحاً وبديهياً دون نظر إلى الحلقة الوسطى. ربما قفز من ذلك إلى أن طرفي السلسلة متصلتان أي أن المناخ يتوقف على المطر. وربما أبعد بين الباحث وبين الحقيقة أو أصبح متعصباً نحو الحتمية. ثم يرفع الخطر القديم رأسه مرة أخرى. الخطأ القديم وهو الاعتقاد في أثر المناخ على الإنسان تأثيراً مباشراً سريعاً لا مندوحة فيه.

ولكن من الممكن الوصول إلى نتائج شاملة تركيبية عن العلاقات العامة (بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية) دون الوقوع في الأوهام أو الأخطاء. ومثل الهند هذا من أبدع الأمثلة في إظهار العلاقات بين تلك الظاهرات رغم أنه ليس المثل الوحيد. فهناك مثل أستراليا وخرائط أمطارها[٢٥٩] ونباتها وسكانها التي تبين العلاقة القوية بين هذه الظواهر المختلفة ولاسيما بين الأمطار والسكان وهذه علاقة قوية ملاحظة في جميع أنحاء العالم ولكن مثل هذه الاستنتاجات تحتاج لتحفظات خاصة.

* * *

قد كنا نتحدث عن الخرائط المناخية وليس المطر إلا عنصراً واحداً من عناصر المناخ. والآن ما هو مدلول خرائط الأمطار الحقيقي؟

([٢٥٩])انظر (116) خريطتي 11، 12 ص 89 – La Geog. Humaine, J, Bru – hens إذ يضع خريطتين من نفس مقياس الرسم (١ : ٩٠,٠٠٠,٠٥٠) إحداهما فوق الأخرى، الأولى للنباتات الطبيعية والثانية لتوزيع السكان لإظهار العلاقة بينهما – وقارن أيضاً خريطتين رقم 118 – 119 في Grauds emblens, Climatiques Zones de transitions.

أنها مجموعة خرائط متوسطات أمطار ومعناها أيضاً أنها تهمل جميع عوامل المناخ الأخرى سوى الأمطار كما هي. أنها خرائط جمالية قد تغفل عن التفاصيل. إلا أن مجموع الأمطار في حد ذاته ليس أمراً خطيراً. لسبب هام هو أن التساقط يختلف ما بين مطر وجليد وليس هذا بالأمر اليسير[٢٦٠] وقد أشار ويكوف Woikof إلى أهمية هذه النقطة فيما يختص بروسيا وسيبريا. فالفلاح الروسي يحتال كي يحفظ الجليد فوق أرضه ولا تذروه الرياح ولاحظ ويكوف أن الأرض في جبال خمار– دابان شرق بايكال لا تتجمد باستمرار بينما تتعطل الطواحين فوقه خمسة أو ستة أشهر في وديان وهضاب ترانسبايكال[٢٦١] والسبب في ذلك أن الوديان والهضاب تتعرض للشمس ويحدث البخر في بحيرة بايكال ويتساقط على هيئة ثلج على المرتفعات ويبقى الجليد على الأرض ويحميها من الصقيع. وإلى الجنوب من ذلك ببعض درجات يتحول الثلج إلى مطر وتتعرض الأرض للصقيع. ولكن بالرغم من ذلك فخريطة توزيع الأمطار لا تعطينا إلا مجرد أرقام.

ويجب أن يلاحظ أيضاً أن طول فصل المطر عامل هام جداً. كما أوضح باسيرا Passerat في دراسته الكاملة للرياح الموسمية الآسيوية[٢٦٢] فإذا تساوى قطران في كمية الأمطار الساقطة فإنه من المهم أن نعلم ما إذا كانت هذه الكمية تسقط في أحد القطرين في ثلاثة شهور أو موزعة بالتساوي على أشهر السنة. ففي الحالة الأولى سينمو

---

(٢٦٠)ريكوف (١١٨) ص ١٩٦.
(٢٦١)المرجع رقم (١٨١).
(٢٦٢)باسيرا (١١) ١٩٠٦ ص ١٩٣ وما بعدها.

نبات قصير العمر ولكنه غني، ثم يتبعه جفاف يأتي على الحياة النباتية، أو على الأقل يوقفها. أما في الحالة الثانية فينمو نبات منتظم يعيش أثناء العام كله. ولكن خرائط توزيع المطر لم توضح هذه الحقائق ولا تظهرنا على هذه الاختلافات. إذ أنها لا تبين إلا تشابهاً نظرياً مجرداً بين الإقليمين. تشابهاً رياضياً بينما المسألة التي تدل عليها مسألة حيوية. ويوضح ذلك أبلغ إيضاح مثل باسيرا– فنبات الشاي يزرع بنجاح في جنوب الصين واليابان وأنام وسيلان. وتلك هي أربع أقطار تختلف فيها سقوط الأمطار اختلافاً واضحاً ولكنها من ناحية أخرى تتشابه في أن المطر فيها موزع بانتظام على مدار السنة، فوجه الشبه أهم بكثير من وجه الاختلاف.

هذا عن طبيعة الإسقاط وطول فصله ولكن عامل الزمن أيضاً هام جداً[٢٦٣] وتكفي بعض الأمثلة القليلة من البلاد المنتجة للقمح مثل روسيا، ولعلها أفضل من غيرها من الأقطار الزراعية الكبرى لأن المحاصيل الفاشلة بها ترجع إلى الجفاف وحده تقريباً. وهذا الجفاف لا يرجع إلى نقص في مجموع كمية الأمطار الساقطة، ولكن إلى سوء توزيعه أي إلى نقص الرطوبة في شهري أغسطس وسبتمبر وهذا يفسد البذور الشتوية في شهري أبريل ومايو وهذا يفسد البذور الربيعية[٢٦٤]. كذلك الحال في الهند التي تقع أقرب إلى حدود المنطقة الموسمية منها إلى وسطها يتوقف كل شيء على نظام هبوب الموسميات المتغير عند بدء

(٢٦٣)نفس المرجع ص ١١٢.
(٢٦٤) هيتير (١١٦) ص ٢٦٦.

فصل هبوبها في يونيه وعند انتهائه في أواخر أكتوبر. ويتوقف ذلك أكثر ما يتوقف على تفاوت كمية المطر. أهم محصول وهو محصول الخريف، الذي تتغذى عليه تلك الملايين المتلاصقة، وكما قيل تتوقف حياتها على "خيط واه ضئيل[٢٦٥]" والحق أن الخطر يكمن في ازدحام السكان في كل من الهند وجنوب روسيا. كما أننا يجب ألا ننسى أن ندرج في الأقطار شبه الصحراوية أو الصحراوية كل الأقطار التي لا يسقط عليها أكثر من ٢٠ بوصة مطر في العام. وهذه تشمل ثلاثة أخماس مساحة اليابس. ولا نظن أنها أقطار قليلة الخطر من الناحية التاريخية. فإن حضارات العالمين القديم والجديد القديمة لم تقم إلا في مثل هذه الأقطار[٢٦٦] الجافة حيث يحتل زمن سقوط الأمطار الأهمية الكبرى.

لا داعي لتكرار الأمثلة. فهي متفاوتة متعددة معقدة ولكن قد تدخل بعض الاعتبارات الأخرى فيها. فلقد نلاحظ أثر الصقيع السيىء سواء كان مبكراً أو متأخراً. وهذا يفسر قلة المحصول أو تعرضه للخطر في أقطار ينبغي– باستثناء عامل الصقيع– أن تكون غنية في الإنتاج مثل مانيتوبا التي يقصر فيها فصل الصيف ويطول فيها فصل الشتاء مما يؤخر فصل الزراعة حتى شهر يونيه ومما يجعل المحصول معرضاً للصقيع قبل أن ينضج. [٢٦٧]

---

(٢٦٥)فيدال المرجع السابق ص ٣٦٣ – ٣٦٤.
(٢٦٦)بدل "المناخ والتطور" (١٦) ١٩١٦ ص ٤٩٨.
(٢٦٧) بدل "المناخ والتطور" (١٦) ١٩١٦ ص ٤٩٨.

لقد قلنا كل ما هو هام ويبقى بعد ذلك مثل واحد نأخذه من منطقة قريبة منا فدعنا نفحص كمية المطر الساقطة في أوروبا– أننا سنجد أن الهرسك من أحسن أقطارها أمطاراً وأكثرها ملاءمة للإنبات. فإحدى مدنها كركفيس Crkvice وتقع على ارتفاع ١٠٥٠ متراً يسقط عليها ٤,٥٥٦ متراً من المطر بينما يسقط على كتارو على الساحل الدلماشي ٣,٨٣٢ متراً فقط ليس هذا فحسب بل أن متوسط سقوط الأمطار في الهرسك يجعلها من أغزر أقطار أوروبا أمطاراًولكنها في نفس الوقت أكثرها جدباً وأشدها قحولة، فأي تناقض؟ ولكن هذا نتيجة اقتران عدة عوامل. عامل مناخي (أمطار غزيرة متدفقة) وعامل جيولوجي (مساحات واسعة من الحجر الرملي المشقق) وعامل زراعي (افتقار الإقليم لتربة) مع عامل تاريخي بشري (وهو قطع الغابات ولاسيما في العصر البندقي) فلا دهشة ولا تناقض، هذا بالرغم من أننا لم نتعمق في تحليل تلك العوامل وخاصة العامل المناخي.

ولكن أليس في هذا تحذير لمن يحاول أن يقارن خرائط توزيع الأمطار بخرائط توزيع السكان دون دراسة الخريطة الثالثة التي تبين توزيع الحياة النباتية في الكمية والنوع.

٢) علاقة الأقاليم المناخية النباتية بالحياة البشرية

هل ينبغي أن نقلع عن أي محاولة تحليلية ونترك الأمور معلقة غير محدودة وقد قابلتنا كل هذه الصعاب الكبيرة؟ كلا مطلقاً فإنه بالرغم

من تعقد الحياة النباتية وتعقد أسبابها فمن الممكن أن نرسم حدود عامة تفصل سطح الأرض إلى أقاليم عامة بينها أوجه شبه هامة وحقيقية من حيث تأثيرها في أصول الحياة البشرية.

هناك أولاً منطقة تقع بين المدارين واضحة كل الوضوح. فتتعامد الشمس مرتين في السنة ما بين خط الاستواء وكل من المدارين فترتفع درجة الحرارة ارتفاعاً كبيراً فيتمدد عمود الهواء ويصعد الهواء إلى أعلى حيث تكون الشمس في السمت، هذه المنطقة تسمى منطقة الرهو الاستوائية الغزيرة التي تستمر طول العام تقريباً بالرغم من وجود قمتين للأمطار عند خط الاستواء نفسه. ولا تزال هاتان القمتان تقتربان في الزمن كلما بعدنا عن خط الاستواء شمالاً وجنوباً حتى تلتقيا في قمة واحدة، تاركة فصلاً جافاً بالقرب من المدارين، فينقسم العام إلى فصلين متواليين أحدهما قصير مطير حار والآخر طويل جاف وربما كان أقل حرارة.

وبالرغم من الاختلافات المحلية العديدة؟ التي يسهل ملاحظتها ويفيد تغييرها فإن هذه المنطقة تتحد في ميزات عامة في جميع أنحاء العالم. فالحرارة فيها مرتفعة جداً وثابتة[٢٦٨] والأمطار غزيرة وتتوزع بانتظام تقريباً على شهور السنة. والظروف كلها ملائمة لنمو نبات غني، تسوده الأشجار الضخمة التي ترتفع إلى ٢٠٠ قدم. كما أنه إقليم

(٢٦٨)مثلاً بوجونا في كولومبيا على عرض ٣٥ ٤°ش. متوسط المطر السنوي ١,٦٠ متراً يسقط منها ١١% في يناير وفبراير و٢٥% في أبريل/ مايو و٩% في يونيه/ أغسطس و٢٨% في أكتوبر/ نوفمبر.

الأنهار الكبرى مثل الكونغو والأمازون وأرض الغابات العذراء ونباتاتها العلاقة الضخمة الكثيفة ونباتاتها المعددة الأنواع، الزاحفة والمتسلقة في إقليم Hyloea كما سماء هبولدت في حوض الأمازون والكنغو، لا تكاد تختلف في طبيعتها وتتشابه في مظهرها. وهنا أيضًا الغابات التي تغطي شمال أستراليا، وأرخبيل الملايو وسيلان ومدغشقر.

تختلف الظروف خارج تلك المنطقة فالحرارة، والرطوبة قد اتحدتا على تحويل مساحات واسعة من الصخور الأركية إلى تربة حمراء (لا تريت) قاحلة. وبالتدريج كلما بعدنا عن خط الاستواء شمالاً وجنوباً تتول الغابات إلى حشائش السافانا ثم إلى حشائش جافة. هذا الانتقال ملاحظ بصفة خاصة في الإقليم الذي يتلو المنطقة الاستوائية شمالاً وجنوباً، إقليم الرياح التجارية.

هذه الظروف تظهرنا على احتمالات مختلفة تماماً فقد سبق أن ذكرنا أنه كلما بعدنا نحو المدارين تقترب قمتا المطر رويداً رويداً وكلما بعدنا عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً، مقترنة في ذلك مع اقتراب فترتي عمودية الشمس على نقط الإقليم الواقع بين المدارين. لذلك لم تنقسم السنة إلى أربعة فصول فصلين جافين نسبياً وفصلين ممطرين، بل إلى فصلين فقط يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف، فصل ممطر قصير وفصل جاف طويل[٢٦٩] وهناك تفاوت في درجة الحرارة

([٢٦٩])بومباي مثلاً على عرض ٥٤ ٥٨ ش. متوسط سقوط المطر ١,٨٥ متراً. نسب سقوطها على السبعة أشهر من نوفمبر إلى مايو ٦ ر ١ ر ٢ ر ١ ر ٥ ر ٠ ر ٥ ر ومن يونيه إلى أكتوبر ٢٣٦ر ٣٤٢ر ٢٠١ر ٣٣١٤٦ (حسب انجو **Angot**).

فالجفاف، يزداد تبعاً لاختلاف درجة العرض[٢٧٠] كما تختلف أيضاً ظروف الضغط. فالفرق بين الضغط البارومتري المرتفع في المناطق المدارية والضغط المنخفض في الرهو الاستوائي تحدث نظام الرياح التجارية التي تهب من الشمال والجنوب نحو خط الاستواء ولكنها تنحرف في اتجاهها تبعاً لدوران الأرض.

هذا التطرف في الحرارة والجفاف في جزء من السنة يجعل الظروف صعبة سيئة بالنسبة للزراعة فالرياح عاتية منتظمة تعوق نمو الأشجار الحديثة.

(٢٧٠)ها هن و(٥٧) جزء ثان و١ وص ٧.

<table>
<tr><th>خطوط العرض</th><th>المتوسط
السنوي
ف م</th><th>درجة
الحرارة
العظمى</th><th>درجة حرارة
الدنيا</th><th colspan="2">الفرق</th></tr>
<tr><td>عند الاستواء
خط عرض ١٠° ش
" " ٢٠° ش
" " ٣٠° ش</td><td>٥,٩
٢٦,٤
٢٥,٧
٢٠,٣</td><td>٢٦,٢
٢٦,٧
٢٨,١
٢٧,٣</td><td>٣٥,٥
٣٥,٧
٢١,٧
١٤,٦</td><td colspan="2">٠,٧
١,٠
٦,٤
١٢,٧</td></tr>
<tr><th rowspan="2">خطوط العرض</th><th colspan="2">متوسط الحرارة</th><th rowspan="2">أشد الشهور
حرارة
ش
جـ</th><th colspan="2">أشد الشهور برداً</th></tr>
<tr><th>نصف الكرة
الشمالي</th><th>نصف الكرة
الجنوبي</th><th>ش</th><th>جـ</th></tr>
<tr><td>خط عرض ٣٠°
" " ٤٠°
" " ٥٠°
" " ٦٠°</td><td>٠٠,٣
١٤,٠
٥,٨
١,٠</td><td>١٨,٤
١٢,٠
٥,٦
٢,٥</td><td>٢٧,٣
٢١,٨
٢٤,٠
١٥,٦
١٨,٦
٨,٣
١٤،
٣,٢</td><td>١٤,٦
٤,٩
٧,٠
١٥,٧</td><td>١٤,٦
٩,٠
٢,٩
٧,٦</td></tr>
</table>

كما أن ظروف الحياة النباتية نفسها تتغير مثل اللانوس حول حوض أروينوكو في فنزويلا وكولومبيا. والفلد أو السافانا في أفريقيا. وهنا تزداد إمكانية الاستقرار أو الهجرة وحيث يزداد الفصل الممطر طولاً بحيث يسمح للتربة بأن تكفي عدداً من السكان يمكن أن يقدم العمران البشري. وهذا العمران عادة ينتشر لأن طبيعة الإقليم الحشائشية تسمح للسكان بالتجوال الواسع بحثاً وراء الرزق. إلا أن خطوات الانتقال لا تزال أمامنا. فالمنطقة الواقعة بين خطي عرض ٢٠° – ٣٠° شمالاً وجنوباً منطقة جافة نسبياً تهب عليها رياح جافة، ذات ضغط مرتفع وبصفة عامة قليلة الأمطار جداً. وهذه ظروف غير ملاءمة، فإذا أضيف إلى ذلك أن الإقليم على شكل حوض تحيط به جبال تكثف أي رطوبة يحملها الهواء من المحيط المجاور فإن المطر في حد ذاته غير كاف لأن يقيم أود النبات، فيتضاءل العشب ويجف ويختفي تماماً، وتنتهي إلى الصحراء حيث لا ينمو إلا القليل من النبات الصبيري. ولا يمكن الاستقرار إلا حيث تتوفر ظروف عارضة خاصة وحيث يتم الإنسان ما بدأته الطبيعة، في بقع صناعية مهددة بالخطر دائماً. في الواحات. تلك هي الحالة في الصحراء الكبرى وفي لصحراء اللوبية وصحراء بلاد العرب وصحاري ثار– فارس– تركستان– المكسيك وكولورادو– والحوض الكبير في نصف الكرة الشمالي، وبالمثل في صحاري كالهاري وجنوب مدغشقر وأستراليا وباتاجونيا في نصف الكرة الجنوبي. وخير ما توصف به الحياة النباتية هنا هي عدم الاستقرار والتعرض للخطر.

إن المناطق الصالحة للاستقرار توجد في الأقاليم دون المدارية حيث ظروف المناخ والنباتات ملائمة للسكان، وهذه تمتاز بالرياح المتغيرة والحرارة المعتدلة والنبات المتنوع.

ونلاحظ هنا وجود اختلافات ظاهرية بين نصفي الكرة الشمالي والجنوبي حيث يختلف توزيع المياه واليابس فنصف الكرة الشمالي قاري، بينما النصف الجنوبي جزري، ولهذا أثره في توزيع حرارة الشمس. ويترتب على هذا أن يكون متوسط درجات الحرارة السنوي في نصف الكرة الشمالي أكثر ارتفاعاً منها في النصف الجنوبي. ولكن جنوب خط ٣٠° جنوباً يرتفع متوسط درجات الحرارة لأبرد شهر في نصف الكرة الجنوبي عنه لنظيره في النصف الشمالي. وأكثر من هذا فليس لدينا نطاقات منتظمة للضغط المرتفع أو الضغط المنخفض. ولكنها تتمزق إلى مناطق يتركز فيها الضغط المرتفع أو الضغط المنخفض تندفع منها أو إليها الرياح وهذه الحالة المترولوجية تسود في جنوب أفريقيا. وبعض أجزاء الأرجنتين وجنوب أستراليا في نصف الكرة الجنوبي وتسود معظم أجزاء أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا في نصف الكرة الشمالي.

في هذه المناطق حيث مركز الحضارة الغربية الغنية القوية تسود الرياح الغربية حاملة المطر الغزير– ويسود أيضاً المناخ المعروف بمناخ غرب أوروبا في الأجزاء الغربية من القارات على مهب الرياح العكسية الغربية. وليست الأجزاء الشرقية من القارات في مركز أفضل من نظيراتها الغربية، وأكثر من هذا فهذه السواحل الغربية معرضة لمرور التيارات

الجوية الدفيئة وخصوصاً في نصف الكرة الشمالي، وهذا عامل آخر في اعتدال درجات الحرارة- فمتوسط درجات الحرارة في لشبونة ٥٢,٢° في يناير و٧٥,٥° في يوليه بينما هو في نيويورك التي تقع على نفس خط العرض تقريباً ٢٩,٦° في يناير و٧٧,٥° في يوليه أي أن هذه المناطق المعتدلة بالرغم من الاختلافات المحلية صالحة تماماً لنمو غطاء نباتي يمتاز بالتنوع والغنى.

ومن الممكن أن نميز هنا إقليمين نباتيين رئيسيين، هنا إقليم الغابات ويمتد من الشمال للقارات حيث رواسب الجليد الرباعي ومن الجنوب حيث قيعان البحار القديمة الداخلية مثل بحيرة أجاسيز والبحر الأسود Sanmaro Pontic.

ومنطقة واسعة تغطيها تربة اللويس حيث لا تستطيع الشجرة أن تنمو إلا عندما تزيل التعرية طبقة من التربة القديمة.

أما الإقليم الثاني فهو إقليم الحشائش- سهوب واسعة يغطيها بساط من الحشائش التي تشمل دون شك تنوعاً كبيراً في النباتات ولكنها تبدو جميعاً متشابهة. إلا أن هذه المنطقة قد أتت عليها يد الإنسان بالتعديل والتغيير. فمناطق اللويس تخضع بسهولة للمرات بل للعصا الأولية التي كان الإنسان في أول مراحل حضارته ينبش بها الأرض. وقد أشار فيدال دي لابلاش إلى أن البيئة الطبيعية هنا سهلت الزراعة وسهولة كبيرة مما كان له أبعد الأثر في تكاثر السكان وفي تطورهم التاريخي. وليست خصوبة التربة هي العامل الأول في النشاط

البشري في هذا الإقليم. فالسهوب منطقة خصبة في جميع أجزائها. تضم داخل حدودها منطقة الشيرتوزم أو التربة السوداء ,Czernosjem Czernozim في جنوب روسيا التي تشمل أحواض الدون والدنيبر والفولجا التي تبلغ مساحتها أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ ميل مربع أو ما يقترب من نصف مساحة فرنسا. ويتراوح سمك التربة فيها من ٣ – ١٦ قدماً بل أحياناً من ٣٠ – ٦٠ قدماً ولا تغطيها الغابات أو الأشجار وهي منطقة شاسعة صالحة لنمو القمح أعدتها آلاف القرون من أجيال الحشائش. وتشمل السهوب أيضًا سهوب البوستزا Pustza المجرية– وهي سهوب متموجة من الحشائش تمرح فيها المواشي نصف متوحشة يرعاها فرسان التشيكوس Czikos قبل أن تحشد الجهود لتحويلها إلى حقول قمح وذرة غنية. فيما عدا ذلك فلدينا سهوب القوزاك والقرغيز وهي جافة تغطيها تربة فقيرة لا تغطيها الحشائش أو الكلأ. موحشة في الشتاء وليست أقل قسوة في الصيف. وقد وصفها إليزيه ركلس Elisee Reclus وصفاً بديعاً في كتابه "الأرض"[٢٧١] وهو كتاب قديم ولكنه صادق في وصفه لهذه السهوب. أما في أمريكا الشمالية فلدينا إقليم البراري الذي كان يشبه سهوب البوستزا المجرية والأرض السوداء شبهاً كبيراً قبل أن تحوله جهود الأمريكيين، إلى ما يشبه رقعة الشطرنج من الزراعة "الصناعية". ولكنها تتحول في أجزائها الغربية إلى سهول واسعة جافة ثم إلى صحاري. والبراري أو السهوب مساحات شاسعة من السهول المفتوحة للحركة بسهولة، وتعتبر سبلاً طرقتها الهجرات البشرية

---

(٢٧١)الطبعة الثالثة- باريس جزء ١ ص ١٠١ – ٢٠٢.

من قديم الزمن. إذ تستطيع العربات أن تشقها بسهولة، لأنها بحكم طبيعتها سهلة الصرف فلا تعترض العربات عقبات تذكر وتستطيع الخيل أن تنهب تلك السهول المسطحة نهبًا، تثير من سنابكها الغبار الذي يملأ الأجواء.

ويختلف عنها إقليم الغابات الشمالية كل الاختلاف فهو إقليم تغطيه تربة ثقيلة مكونة من رواسب جليدية صلدة تنمو عليها الأشجار المتناثرة التي لا تبلغ في كثافتها ما تبلغه غابات المنطقة الاستوائية وأحراج الأمازون والكونغو وما ينمو بين أشجارها من حياة نباتية كثيفة فلا نباتات متسلقة ولا نباتات زاحفة ولا عوائق طبيعية تحول بين الإنسان وبين الحركة بسهولة.

أما غير ذلك من غابات فلم يبق منها إلا آثارها في الوقت الحاضر. بعد أن كانت الغابات النفضية تغطي أرض الغال من المحيط الأطلسي إلى سواحل البحر المتوسط. وقد كانت الغابات الهرسينية تغطي ألمانيا– طبقاً للمؤلفين الرومان– مسيرة ستين يوماً. وربما كان في هذا شيء من المبالغة ولكن مما لا شك فيه، أن الغابات النفضية في أوروبا كانت في غاية الكثافة في عصر ما قبل التاريخ من العصر الروماني. وأنها لم تبدأ في الانكماش[٢٧٢] إلا منذ القرن السادس الميلادي. ولا ريب أيضاً أن المفارقة في المنظر الطبيعي كانت واضحة ومثيرة للانتباه بين سهوب الأستبس الحشائشية، وبين أقاليم الغابات

---

(٢٧٢) Hausrath. Der, Deutche wald, Leipzig. 1907

الموحشة. مما يشبه تلك المفارقة الكبيرة التي لاحظها الرواد، فيما بين القرن التاسع عشر بين اللانوس وبين السلفا في الأمازون أو بين السافانا وبين غابات البلوط في لويزيانا. أما الآن فقد حلت النباتات العشبية محل الغابات الكثيفة في مساحات كبيرة من الأرض– ولم يكن هذا التغيير في مساحات الأرض بل في كثافة النباتات نفسها.

وقد بدأنا الآن نتعلم شيئاً عن عملية تحول "الغابات الطبيعية" في أفريقيا وأمريكا إلى "غابا ثانوية"، لكي نفهم كيف نكون لتلك الجهود التي تبدو ضئيلة في باديء الأمر، ولكنها بالمثابرة والاستمرار تعظم هذه النتائج الباهرة. فهناك عوامل دقيقة تكفي لإخلال التوازن بين الضوء الذي يساعد على سرعة نمو الأشجار الصغيرة وبين الظل الذي يساعد على إبطاء نمو الأشجار. ولكن مقارنة هذه الحالة بغابات المنطقة المعتدلة ترينا أن الغابات القديمة في أوروبا unwald كانت كثيفة لا يمكن اختراقها. ومن العسير الحركة عبرها وأما الآن فقد زالت وحشة الغابات فإنها ربما قد ضبطت ومستنقعات جففت وبحيراتنا تحولت إلى حقول وأحراجنا تحولت إلى أرض مشجرة وغاباتنا تحولت إلى أرض خصبة. لقد غيرت الجهود البشرية المنظر العام للإقليم، وحلت الجهود المنظمة والقوى الإنشائية محل الجهود المخربة الضائعة. ولم يعد ذلك المنظر اليوم "طبيعياً"، فتلك حالة نظرية افتراضية لا وجود لها الآن. هذا على الأقل في وسط أوروبا كما شرح جرادمان Gradmann بكل وضوح(٢٧٣).

(٢٧٣)جراد مان (١٤) جزء V (١٩١١) ص ٣٦١ – ٧٧، ٤٣٥ – ٤٤٧.

ولم تحل الغابات أيضاً دون الاستقرار البشري ومن الخطأ أن نصورها كعدو للمجتمعات الإنسانية. فالآثار كثيرة ومتعددة تثبت عكس ذلك– من أمثلتها بقايا النيران والمواقد التي كان يوقدها الإنسان، وبقايا أكواخ في قلب الغابات. ولم تكن تلك الأكواخ المختبئة بين الغابات والمحتمية بها مجرد قرى صغيرة. بل كانت أكبر مما نتصور. ويجب ألا ننسى أن أشد الغابات كثافة حتى في الإقليم الاستوائي– ولاسيما في أفريقيا– كانت إقليم طرقه الإنسان ووجد فيها فراغاً مناسباً ينشئ عليه مستعمراته. بل أن الدول نشأت في ظلال الغابات وفي حماها[٢٧٤] ومن أمثلتها دولة الروس فرسان التيوتون Teutonic order. وأكثر من هذا فإن الغابات الأوروبية التي تتكون في معظمها من أشجار البلوط والزان ومن أشجار التولا في أجزائها الغربية والجنوبية، ومن أشجار الصنوبر والشربين في أجزائها الشمالية والشرقية. وكان من السهل إزالة هذه الأشجار فتحولت إلى أرض تغطيها تربة أخصبتها تراكم أوراق الأشجار وفروعها التي تحللت إلى مواد عضوية مختلطة بالتربة، وبعبارة أخرى كانت الغابات ملجأ للإنسان وملاذاً. وموردا للرزق لا قبل لها عن السهوب المكشوفة بتربتها الطينية الثقيلة. إن لم تكن أفضل.

لم تبق لدينا إلا منطقة واحدة [٢٧٥] التي تتلو نطاق الغابات نحو القطب الشمالي (إذ لا يوجد ما يشبه هذه الحالة في نصف الكرة

[٢٧٤](١١) ١٩٠٨ جزء ١٧ ص ٢٧٩ ـ ٢٩٠

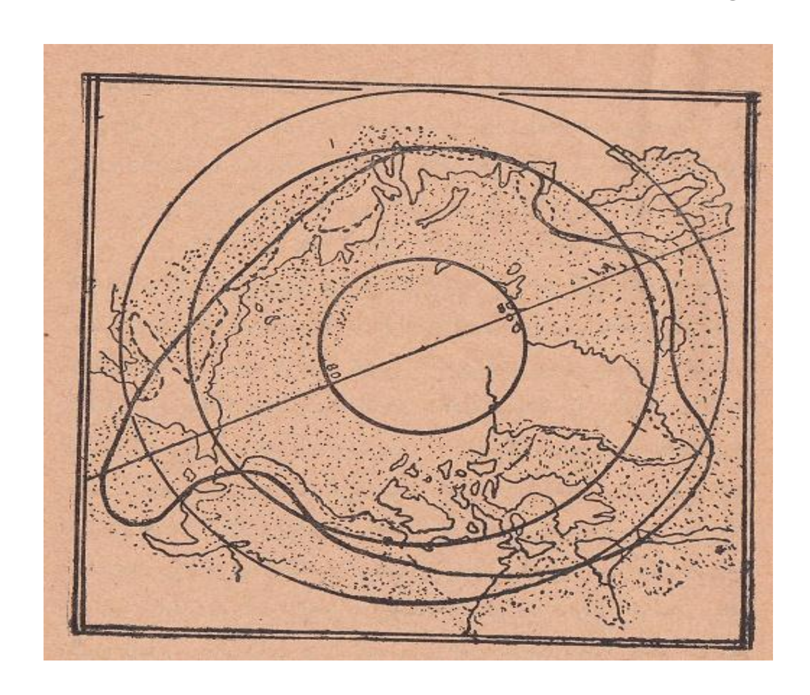
[٢٧٥]ربما كان من المناسب أن نكمل المقارنة في درجات الحرارة في القارات.

خطوط العرض	توسط درجة الحرارة	أدنى درجة حرارة	أعلى درجة حرارة

الجنوبي) ذلك النطاق الذي يمتاز بنمو الأشجار سواء كانت نفضية أو صنوبرية، منطقة يتضاءل فيها حجم الأشجار وتقصر، ثم تختفي إطلاقًا وتختلف حدود هذه المنطقة من قارة إلى أخرى، إذ أنها لا تبعد عن نقطة القطب الشمالي بعدًا متساويًا في جميع أجزائها بما يشبه الدائرة، ولكنها تنحني انحناء خطوط الحرارة. المتساوية. فهي تقرب من القطب الشمالي قربًا شديدًا في أوروبا أكثر منها في أمريكا الشمالية. ويوجد شجر الصنوبر حتى خطي العرض ٧٠ و٧١ شمالاً بالقرب من رأس الشمال North Cape أما في سيبريا فلا تصل إلا إلى الدائرة العرضية ٦٨° أما في لبرادور فلا تنمو إلى ما وراء الدائرة العرضية ٥٨° شمالاً. وهناك توازن كبير بين خط الحرارة المتساوي ١٠° في يوليه وبين الحد الشمالي لنمو الأشجار مما يدل على أن الحرارة هي العامل الأول في تحديد المنطقة المشجرة شمالاً. وهي المسئولة عن اختفاء الأشجار تماماً في المنطقة القطبية أما فترة الرياح والجفاف وقلة الأمطار والصقيع التي تجمد الأرض وتشققها إلى أعماق كبيرة فهي جميعًا عوامل ثانوية تزيد من فعل البرد الشديد الدائم. ولا يجدي في نمو الغابات شيئاً يوفر الحد الأدنى الحراري المطلوب لنمو شجرة الزان وهو ١٠° لمدة خمسة شهور. ويحل محلها أرض تغطيها الحشائش بالتدريج. منطقة انتقالية بها الأشجار المتناثرة القصيرة بين إقليم التايجا وإقليم التندار. ثم تبدأ الحشائش في الاضمحلال ويحل محلها الطحالب. وهناك بعض

خط عرض ٧٠	١٠,١ ـ ١١,٥	٧,٠ ـ ٠,٨	٢٦,٠ ـ ٣٢,٠
" " ٨٠	١٦,٧ ـ ١٩,٨	١,٨ ـ ٦,٥	٣٣,٥ ـ ٣١,٥

النباتات تنمو في الجهات المحمية من الجليد أو الرياح وتشبه في تشريحها الأشجار ولكنها من الضآلة في الحجم بحيث لا يمكن مقارنتها بالأشجار الأخرى الحقيقية. وهذه الأشجار الغريبة هي الممثل الوحيد لعائلة الأشجار في تلك الأصقاع الجليدية الشمالية حيث يقل متوسط المطر السنوي عن ١٠ بوصات في السنة وحيث التربة متجمدة طول العام. ويبلغ أقصى طول لشجرة الزان في نوفازمبلا ٨ بوصات وهذا هو طول عمالقة الحياة النباتية في تلك الأصقاع فما بالك بأقزامها التي لا تصل إلى أطول من بوصة واحدة.



شكل رقم (٤)

يبين المناطق المحيطة بالقطب الشمالي، والحدود الشمالية للحياة النباتية الشجرية

تلك هي أصقاع التندرا في روسيا والأرض الجرداء الشمالية في أمريكا الشمالية. أقاليم يخيم عليها البؤس، حياتها النباتية في غاية الإملاق ولا يسرح فيها إلا العدد الضئيل من الحيوانات وهي كالصحراء لا تقيم أود عدد يعتد به من البشر.

الأجزاء المظللة: نباتات ذات أشجار

الخط الأسود: خط الحرارة المتساوي + ١٠° م في يوليه

" المتقطع: حد العمران البشري

٣) التناسق بين الأحياء على سطح الأرض وبين توزيع المجتمعات البشرية

وهكذا إذا نظرنا إلى العالم نظرة عامة لوجدنا نوعاً من السمترية الأرضية. فجميع أجزائها تنتظم في نظام واحد، ويمكن أن تقسم وتصنف. في الوسط غابات وأحراج بلغت من السطوة والقوة بحيث تسود ما عداها من أنواع الأحياء، وهذه تحدها مناطق مناسبة للاستقرار البشري، ويتلو ذلك– شمالاً وجنوباً– نطاق صحراوي يمتد امتداداً منحرفاً من قارة إلى أخرى، وهذه تتدرج إلى نطاق مهيىء للاستقرار البشري آخر، وهذا النطاق يصل إلى ذروته من حيث قابليته لسكنى الإنسان قبل أن يبدأ في التنكر له مرة أخرى حيث تتجمد الأرض في

أقصى الشمال وأقصى الجنوب. هذا هو عالمنا، وهذا مبلغ انتظام أقاليمه الكبرى كما تبدو لمن يراقبه بعين الطائر. [٢٧٦]

وهنا تبدأ متاعبنا، فالإغراء قوي لا يمكن دفعه، والأرض ناعمة الملمس لا يؤمن السير عليها. فمن السهل أن نؤكد أن لكل إقليم من هذه الأقاليم الكبيرة طرازًا خاصاً من الحياة، ومن السهل أن نقدم الأمثلة على ما نقول. فالمجتمعات الاستوائية أو سكان الغابات الكبرى المتناثرون القليلون العدد يعيشون على ما تغله أشجارهم، يجمعون ثمارها ويقتاتون بما يجمعون وقد يلجأون إلى الصيد. ويتشابه سكان الغابات الاستوائية حيث تسود تلك الغابات في كل القارات وذلك في نظام رتيب يعكس أثر البيئة الاستوائية.

كما أن هناك مجتمعات تعيش في المناطق دون المدارية. في نطاق الحشائش التي تحد الصحاري وهؤلاء يتشابهون في أسلوب حياتهم في كل مكان. وقلما تستقر بعض القبائل في الأرض وتبدأ في الزراعة. ولكن هذا أمر نادر الحدوث، فأسلوب الحياة السائد هنا هو الأسلوب البدوي. ويكاد يكون هؤلاء السكان جميعاً سواء كانوا من أصل بربري أو فولاني أو عربي رعاة للماشية يتحركون وراءها من مرعى إلى آخر. ويخضعون في تنقلاتهم لظروف الرعي ومعظم هؤلاء (وتلك ملاحظة لا علاقة لها بالظاهرة الاجتماعية الجغرافية) يعيشون في ظل

([٢٧٦]) **G. Menedinti** انظر رقم (١١) **Fl** ٠٦ و ١٩٠١

نظام أبوي ويعتنقون الإسلام. ولما كان هؤلاء ميالين للغزو والفتح فقد استطاعوا إنشاء ممالك قوية قصيرة العمر.

ويمكن أن نستمر في إيجاد التشابه في أسلوب الحياة تبعاً لتشابه البيئة في الأقاليم المعتدلة أيضاً فهنا نجد مناطق زراعية تدعو إلى الاستقرار ثم تكوين الدول- ملكيات أو جمهوريات فيما بعد- تمتاز بالاستقرار الحقيقي الدائم. وهنا استغلت المصادر الطبيعية استغلالاً كبيراً، وقد اقترنت الزراعة بالصناعة مما أدى إلى قيام الصناعات الكبرى والنظام الرأسمالي، وقد أدى الاستمرار في تحسين وسائل المواصلات إلى إنشاء علاقات منتظمة بين مختلف شعوب هذه الأقاليم. والنتيجة لذلك قيام حضارة راقية وثقافة عريقة في تلك الظروف الجغرافية المعتدلة بالرغم من تعدد العناصر التي تدخلت في إنشائها أو تضمنها ذلك الإنشاء.

وأخيراً فإن الأقاليم القطبية قد أنتجت بدورها طابعاً حضارياً خاصاً. فهذه الجماعات المتباينة التي تعيش خارج نطاق الأشجار في الإقليم القطبي. سواء كانت من الإسكيمو أو الساميون أو كانت من صيادي البر والبحر أو رعاة كلب أو رنة تحيا تحت ظروف قاسية وعلى ما تقدمه البيئة من النزر اليسير من الخيرات. وتقام باستمرار ظروف تلك البيئة لكي تحظى في النهاية بما لا يكاد يسد الرمق أو يقيم الأولاد. وهي في صراع دائم مع الطبيعة تحيا حياة مملة رتيبة تتشابه جميعًا في أسلوب حياتها ولا تكاد تختلف إلا قليلاً.

وهكذا نستطيع أن نؤكد أن تلك الأقاليم المناخية النباتية التي يمكن تحديدها وإظهار مميزاتها بسهولة تمتاز كل منها بطابعها الإنساني الخاص. كما تمتاز بنباتها الخاص وحيوانها الخاص، فليست هذه مناطق خلواً من الإنسانية وكل من يتحدث عن أقاليم استوائية وأقاليم قطبية إنما في الواقع يتحدث عن مجتمعات استوائية أو مجتمعات قطبية كما يقول راتزل. هذه مباديء عامة تقال ولكنها تحتاج لإثبات كما أننا لم نتقدم بعد في الإحاطة علماً "بعالمنا الآخر – عالم الإنسان".

لقد مر ما يقرب من أربعة قرون منذ وضع جان بودان[٢٧٧] Jean Bodin في كتابة "الجمهورية" الخطوط الأولى لهذا التقسيم الإقليمي الذي أصبح أكاديمياً. وقد كانت تلك النظرية عام ١٥٦٠ جديدة مثيرة للتفكير. وكان يبدو أنه من الممكن "بعد أن يتقرر التقسيم هذا، أن نصل بسهولة إلى معرفة طبائع الشعوب" وليس هناك من يشك في أهمية ذلك التقسيم المدرسية، ولكن قيمته لا تتعدى حدود المدرسة فإذا كان العلم يعني البحث فإن قيمته العلمية في النهاية لا شيء.

وهاك برهان: من الممكن لمن ينظر إلى العالم نظرة عامة شاملة أن يوزع الحقائق الجغرافية على عدد معين من المناطق الكبرى، التي تتوزع توزيعاً منتظماً حول خط الاستواء.

---

(٢٧٧) بودان (٣٦) جزء ١ ص ٤٦٤

ومن ناحية أخرى من الممكن أن توزع بدقة في تلك الأقاليم أنواعاً عديدة من المجتمعات الإنسانية وأن نبين أوجه الخلاف العديدة الموجودة بين هذه المجتمعات وأوجه الشبه التي تتفق فيها.

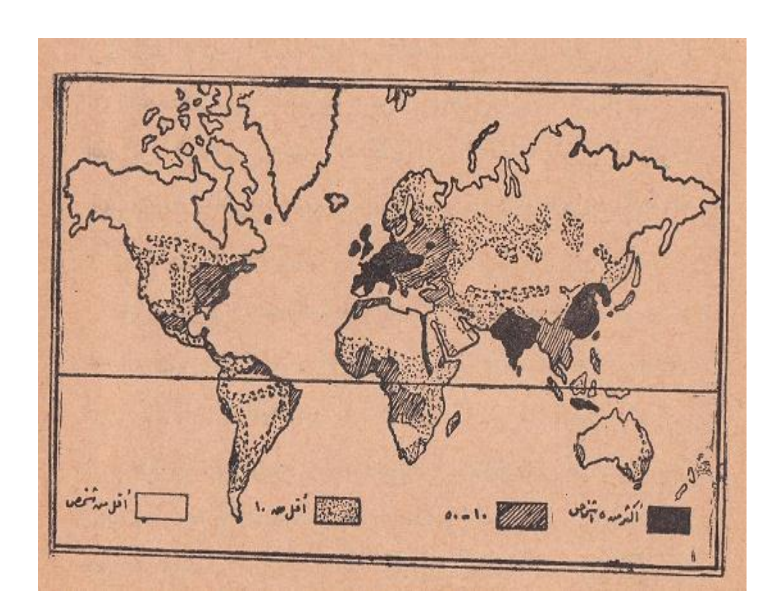
ولكن كنه المشكلة في الواقع هو ما إذا كانت المجتمعات البشرية نتيجة مباشرة للبيئة الطبيعية أو بعبارة أخرى ما إذا كانت الأقاليم النباتية الحيوانية هي السبب في إيجاد المجتمعات البشرية التي لاءمت نفسها خصيصًا لهذه الأقاليم.

* * *

لا بد لنا من ملاحظة مبدئية هنا، فالمشكلة التي أمامنا ليست مشكلة سهلة ونحن لا نستطيع أن نحلها حلاً رياضياً بسيطاً. فليس هناك عامل بسيط يقال له العامل الإنساني.

فالمجتمع البشري وحياة هذا المجتمع، ليست بالأمر السهل. ولفهم هذه المسائل لا بد من تحليل ألف عنصر معقد، متداخل متشابك بحيث يصعب فهمه أو قياسه. ولذلك فلا بد لنا من أن نركن إلى تبسيط هذه المسائل لتسهل مناقشتها. بل إلى قصرها على مسألة واحدة، وهي مسألة توزيع السكان على سطح الأرض. فهل هذا العامل الواحد الذي اختير لأهميته يعتمد اعتماداً مباشراً على البيئة الجغرافية؟ سنرى أهمية الرد الذي نصل إليه وقيمته بعد حين.

أن أول ما نلاحظه هو أنه بينما تتوزع الأقاليم الطبيعية توزيعاً متناسقاً على جانبي خط الاستواء فإن السكان لا يتوزعون مطلقاً فيما يتعلقون بكثافتهم بشيء من الانتظام.



شكل رقم (٥) كثافة السكان

ومن ناحية أخرى فإننا لو أضفنا إلى سكان أوروبا البالغ عددهم ٤٤٨ مليون نسمة وسكان الهند وعددهم ٣٠٢ مليون نسمة وسكان الصين الأصلية وعددهم ٣٢٦ مليون نسمة وسكان اليابان ويقربون من ٥٢ مليون نسمة لوجدنا عدداً هائلاً من السكان يبلغون ثلثي سكان الأرض، قد ازدحموا في سبع مساحتها، كما أن الجهات القليلة السكان تسترعي النظر أيضاً، إذا لا يزيد عدد سكان أفريقيا عن ١٤٠ مليون نسمة (وهذا إحصاء قائم على التخمين ولا نعتقد أنه دون الحقيقة) وتبلغ

كثافة السكان بها ١٢ للميل المربع، كما أن كثافة سكان أمريكا الجنوبية تزيد على ٦ للميل المربع. أما أستراليا تلك القارة التي لم تعرف عنها الكثير بعد كما يقول الجغرافي لسبانيول Lespagnol فلا يكاد يصل عدد السكان فيها إلى ٤,٥ مليون نسمة وكثافة سكانها ٣ للميل المربع.

فهل نستطيع أن نقول بعد هذا أن المناخ أو المناخ والنبات معاً بما يقدمان من مصادر ثروة وإمكانيات في الأقاليم المختلفة هما اللذان يتحكمان في هذا التوزيع غير المتعادل في السكان؟

وعلينا ألا ننسى أو ويكف Woeikof في رسالة عام ١٩٠٦ (رقم ٩٨ في ثبت المراجع) قد حسب أكثر من نصف الجنس البشري يعيشون بين خطي عرض ٢٠ – ٤٠ شمال خط الاستواء. أي في نطاق من الأرض يستبعد قارة أوروبا بأكملها ولكنه يشمل كل النطاق الصحراوي في نصف الكرة الشمالي.

ولكن هل نستطيع أن ندخل في اعتبارنا الحر والبرد، مجرد الحرارة ومجرد البرودة؟ أن كتب الجغرافيا تعين القطب الحراري عادة في فرخونياسك بسيبريا ومن المعروف أن هذا القطب الحراري من أشد الأقطاب برداً كما بين مون Mohn عند حديثه عن نتائج بعثة نانس القطبية المترولجية (والأقطاب الأخرى هما شرق سيبريا ووسط جرينلند والقطب الشمالي نفسه). ولكن فرخونياسك مكان آهل بالسكان يسكنها ٣٥٦ نسمة يحرثون الأرض ويزرعونها كل عام بل أن أهل تلك

البلدة يعيشون في ظروف مناخية تعتبر معجزة لو توفرت في مكان آخر. فمتوسط درجة الحرارة ليناير ٥١,٢° تحت الصفر، ومن ناحية أخرى نجد مصوع على البحر الأحمر وسط سهل ساحلي حار تجمع أسوأ صفات الأقاليم الحارة المتريولوجية ومع ذلك فإنه يسكنها فريق من السكان يبلغون ٧٠٠٠ نسمة.

فليست هناك إذن حتمية عمياء فيما يختص بالحرارة والبرودة. فأقاصي كندا وألاسكا الشمالية لا يعمرها إنسان بطريقة منتظمة. بالرغم من أن الترمومتر لم ينخفض فيها عن ٤٥° فهرنيت تحت الصفر أو ٤٧° م. بينما انخفض الترمومتر بالقرب من هافر (مونتانا– الولايات المتحدة) وهي تقع إلى الجنوب من هذا الأصقاع. إلى – ٦٨° ف. كما أن الشتاء في داكونا الشمالية يكاد يبلغ في قسوة برودته، مبلغ الإقليم القطبي. ومع هذا فقد أثبتت التجربة أن الإنسان يستطيع أن يعيش في هذه الأنحاء. وإذا أدخلنا في الاعتبار عامل عدد الساعات التي تتعرض لها الأقاليم القطبية لأشعة الشمس، وهي أكثر مما تتمتع به الأقاليم المعتدلة. حيث يحجبها الضباب والسحاب فترات طويلة. لأمكننا أن نستنتج بسهولة هناك عوامل أخرى بجانب عامل المناخ تعمل على تحديد الظروف التي تسمح بتعمير الأقاليم القطبية.

وهناك عوامل مترولوجية أخرى يجب أن تراعى في هذا البحث وأهمها عامل الضغط الجوي. وللضغط أثر محسوس في نشاط الإنسان فالإنسان لا يستطيع أن يعمل كثيراً وإن استطاع بصعوبة تحت ضغط

منخفض جدًا. ولكن هذا لم يمنع من مد خط حديدي في بيرو على ارتفاع ٤٠٠٠ متراً ولم يمنع أيضاً استغلال مناجم الكبريت في Popocatepta على ارتفاع ٥٤٢٠ متراً. وقد شق طريق على ارتفاع ٥٦٥٠ متراً في قره قورم كذلك وأخيراً فإن ١٧% من عدد مدن بوليفيا تقع فوق ٤٠٠٠ متر. ويشعر المسافر في جنوب التبت بالغثيان الذي قد يصيبه أحياناً إصابة شديدة به عند عبوره الجبال على ارتفاع يترواح بين ٣٦٠٠ – ٤٥٠٠ متر ولكن هناك مدينة شيجاتسي Shingasta على ارتفاع ٣٩٢٠ متر وجيانجستي Gyangsta على راتفاع ٤٠٠٠ متر. حيث تصل درجة حرارة يوليه إلى ٤٠,٥° م بينما تصل إلى درجة التجمد من سبتمبر بل وتصل إلى ٢٧٠° م في الشتاء المتوسط. (٢٧٨)

هذه أمثلة لتحدي الإنسان للطبيعة. فهل يمكن أن يكون ذلك حيث الظروف المترولوجية مواتية له؟

هل تحديه للطبيعة يرجع إلى المناخ أو إلى تكوينه؟ هل هذا راجع إلى عوامل كمية يمكن قياسها بمعرفة درجات الحرارة وما إليها مما يبعد عنه بالتلاؤم أو الأقلمة مع البيئة؟ لقد أخذ أخيراً أحد الجغرافيين– بحق– على الأستاذ برن Brunhes مؤلف "الجغرافيا البشرة" عدم اهتمامه بالجغرافيا الطبيعية(٢٧٩). فهناك أنيميا قطبية كما توجد أنيميا استوائية وليس جميع أفراد الجنس البشري عرضة لها بالتساوي أليس هذا مما يمنع تكاثر السلالة لا يرجع إلى مجرد البرودة؟

---

(٢٧٨)سيون (١٩٦) ومابعده.
(٢٧٩) (١١) ١٩٠١ ص ٤٦٠

أن الرجل الأبيض لا يستطيع أن يستقر في الأقاليم القطبية حتى ولو أمد نفسه بالطعام الطازج الكافي إذ أن قلة الضوء تفقده حيويته بطريقة شرحها الدكتور كوك في مجلة بلجيكا.

المناخ إذن هو أساس المشكلة ولكن يجب أن يدرس من حيث علاقته بالناس الذين يتعرضون له وليس أدل على هذا من الخرائط التي نشرها بيترمان "[٢٨٠]" Petermann[٢٨١] في مجلة Mittlungen عن الجغرافيا الطبيعية فمنها يتضح أن خرائط الأمراض الاستوائية تتفق غالباً مع تقارن عدة حقائق بيولوجية أو مع أقاليم مناخية حيوية. ففي الغابات الاستوائية تقترن الملاريا الوبائية مع الأنيميا والدسونتاريا الاستوائية. فهل هذا يدل على حتمية مناخية بالمعنى الضيق أم بالمعنى الواسع. حتمية ظروف مناخية عميقة الجذور أو بمعنى آخر حتمية جغرافية.

وإننا لا نقدم إجابتنا على هذا السؤال. بل إجابة فيدال دي لابلاش الذي قضى شطراً طويلاً من حياته يدرس الجغرافيا. وانتهى في ختام سلسلة مقالات عن توزيع السكان على الكرة الأرضية بأن يقول "حقاً أن كل ما يتعلق بالجنس البشري يحمل طابع الصدفة". [٢٨٢]

وكم كان في ملاحظته هذه التي ظل محتفظاً بها (فالتقديرات الجغرافية ليست كتقديرات الفلاح الذي يحسب حساب جودة المحصول بالنسبة لجودة التربة وخصبها) فكم من مساحة يهجرها

([٢٨٠])السنة 67 مارس 1921
([٢٨١])Wutschke, J. Dte Geographlische Verbreilung von kraukheilen.
([٢٨٢])فيدال 97

الإنسان بينما هي صالحة للاستغلال وكم من مناطق مجدبة يصر الإنسان على اتيطانها بالرغم من فقرها. هذه أراضي السودان الخصبة المتنوعة التربة التي تتبع الأقاليم الطبيعية الخصبة بعضها بعضها أثر بعضها (كل مائة ميل تقريبًا) غنية بمواردها الطبيعية واحتمالاتها المشجعة، ومع ذلك فهي مهملة يتناثر فيها قليل من السكان وهذا هو وادي نهر المسيسيبي الجميل، بتربته الخصبة المثمرة في الجنوب وتربة البراري أعلاه، صالحة للزراعة قد هجرها الإنسان قرناً كاملة ولا يسكنها إلا عدد ضئيل من السكان. تلك مساحة غنية من الأرض. ومن المؤكد أنها تؤتي ثمرها لو استغلت.. ولكن تلك هي لغة الاقتصاد كاقتصادي. وليست لغة (الإنسان) كإنسان فالخصب والأثمار آراء تصلح للحديث عن النبات والاقتصاد ونخطيء خطأ كبيراً لو حملناها معاني إنسانية.

أن كل من يدرس توزيع الحيوان، بل الإنسان على سطح الكرة الأرضية يجب أن يتحاشى اعتناق حقائق لم تتمثل بعد. ومن باب أولى استنتاج نتائج تتوفر لديه بعد وسائل التحقق منها، وقد بين كروبتوكين هذا جيداً في صفحات كتابه (المساعدة المشتركة) Mutual aid[٢٨٣] إذ قال "لا يقرر عدد الحيوانات الذين يمكن أن نطعمهم منطقة ما أكبر كمية من الطعام يمكن أن تنتج هذه المنطقة، بل على العكس أقل كمية من الطعام" وقد وضح أن الخيل والماشية في سهوب ما وراء بايكال لا تتزايد زيادة تذكر عن عدد معين بالرغم من التناسل المستمر كما أن عدد القطعان، لم يصل قد إلى الحد الكبير الذي يمكن أن تطعمه البيئة

(٢٨٣)كربتوكين (١٣٠) ص ٧١ - ٧٥

"فهناك طعام– على مدار السنة– يكفي لخمسة أو ستة أضعاف الحيوانات التي ترعى فعلاً، وبالرغم من هذا فعددها لا يزيد زيادة تذكر" ومن الخير للباحث أن يقرأ تحليله الدقيق لأسباب ذلك، فهي تقدم الدليل على ضعف مناقشة أمثال هذه الموضوعات من مجرد الإحصاءات أو خرائط التوزيع البسيطة أو الرسوم البيانية وتلقي درساً في الحذر والحيطة وليس في الجغرافيا الحيوانية بل البشرية أيضاً.

ويستمر كربتوكين في بحثه عندما بين أن هناك قرى في جنوب شرقي الروسيا يتوفر لدى أهلها الطعام الكافي، وتبلغ نسبة المواليد ٦٥ في الألف ومع ذلك فإن عدد سكانها يظل ثابتًا [٢٨٤] والسبب في ذلك عدم وجود نظام تصريف صحي وأن ثلث الأطفال يموتون قبل أن يبلغوا الشهر السادس من عمرهم وأنه لا يبلغ سن العشرين إلا ١٧ أو ١٨ من كل مائة طفل.

تلك الحالة المؤسفة ترجع إلى وجود عدد كبير من العوامل الهدامة التي يقابها الكائن الحي. فعدد كبير من الحشرات والطيور والحيوانات تقع فريسة تغيرات مناخية أو فريسة المرض ومن يعمر بعد ذلك يخرج من المحنة ضعيفاً هزيلاً فاقد الحيوية ضعيف المقاومة. وربما احتالت الطبيعة واحتاطت لتلك الظروف بأن حالت دون تكاثر السكان في الجهات الغير ملائمة للإنسان مثل الصحراء الكبرى– كما لاحظ إميل جوتييه [٢٨٥] Emil Gautier فقبائل الطوارق القوية النشيطة عددها

(٢٨٤) نفس المرجع ص ٧٣

(٢٨٥) جوتييه ١٨٢ ص ١٧٧

ثابت لا يزيد فهذه القبائل التي تعيش على الكفاف في حالة فطرية تكاد تكون من العرايا الذي لا يفترقون كثيراً عن ابن آوى الذي يشاركهم بيئتهم المجدبة. دفعت ثمن بقائه بما فرضه على أفرادها من تحديد دقيق للنسل. حتى لا تتعرض لخطر المجاعة أو المرض إذا تكاثرت، هذه الحالة عند الطوارق التي لا يملك أفرادها أكثر من إناء الطبخ وغيره من الأدوات البسيطة في خيامهم.

وهكذا نجد أمامنا مشكلة واحدة كبيرة. وهي مشكلة بسيطة نسبياً تبدو كأنها رياضية: عدد السكان الكلي وعدد السكان النسبي ومساحة الإقليم وعلاقة كل منهما بالآخر.

لو أننا عالجنا المشكلة– لا من جانبها الرياضي بل من جانبها الإنساني من ناحية علاقتها بالحضارات التاريخية الإنسانية– أننا عنئذ لا نملك إلا أن نعتنق نظرية "ويكوف" Waikof في بحثه عن توزيع السكان على الأرض[٢٨٦] وهي أن العامل الأساسي في توزيع السكان على الأرض لا يرجع إلى المزايا أو العقبات التي تقدمها البيئة الطبيعية. بقدر ما يرجع إلى الإنسان نفسه وطبيعته. ونستطيع أن نعتنق تلك النظرية مقدماً دون أن نكلف أنفسنا مشقة إثباتها وتوضيحها، على اعتبار أنها نظرية معقولة.. ولكن دون توضيح هذه النظرية بعض الصعاب وتلك هي مهمتنا التالية في هذا البحث.

([٢٨٦])ويكوف في (١٣) جزء ٥٢ – ١٩٠٦.

الفصل الثالث

الإنسان في الطبيعة فرد أو جماعة؟

يجب ألا نفقد ما اصطلحنا عليه من تعبيرات خاصة بمشكلتنا. وهذه المشكلة إذا حللناها إلى عناصرها الأولى نجد أنها تتعلق بمسألتين هامتين: الإقليم الطبيعي، وعلاقة الإنسان به- إن كل مشكلة تدور حول العلاقات المتبادلة بين الإقليم الطبيعي والإنسان ومدى هذه العلاقة المبتادلة.

لقد عرفنا الأقاليم الطبيعية وقد حددناها إلى وحدات مناخية نباتية فهلا ينبغي لنا أن نعرف البشر ونعرف نشاطهم؟ ليس فقط كأفراد في شعوب بل من حيث علاقتهم بالأقاليم المناخية النباتية التي درسناها وقسمناها- وعلينا أن نعرف مركز البشر داخل تلك الأقاليم الطبيعية. والسؤال الآن: من هم البشر؟

دعنا نذكر أننا رفضنا المجردات الغامضة والعموميات المائعة ولم نقبل كلمة "الأرض"، كذلك سنعرض فكرة "الإنسان"، مثل هذا الإنسان المجرد لا وجود له ولا قيمة له لدى الجغرافي، فالبشر يتفاوتون في مدى تقدمهم وهناك الشعوب البدائية والشعوب الراقية التي تساهم

في النشاط الاقتصادي- ونحن سنتحدث عن مجتمعات وليس عن إنسان بل وليس أيضاً عن الإنسان بالمعنى الجغرافي وهذا الاتجاه الذي سنتجهه، اتجاه سليم بالنسبة للماضي كذلك.

١) الفكرة القديمة: من الأسرة إلى الأمة

الإنسان حيوان سياسي. ولكن هذه هي قضية أرسطو، التي ما فتئ المفكرون يرددونها منذ زمن قديم حتى الآن ولكن مثل هذه الفكرة كانت غامضة لا دلالة محدودة لها بالنسبة للجغرافيا على الأقل- حتى وقت قريب.

ولا سبيل لأن ننكر الحقيقة الواقعة لأنه من الصعب أن ننكرها وهي أن أفراد النوع البشري أعضاء طبيعيون في مجتمعات منظمة تنظيماً سياسياً. وتنتمي إلى مجموعات كبرى من الأمم التي تتفاوت في درجة نضوجها. فهناك إذن جغرافيا سياسية غير تلك التي كانت موجودة منذ سنين. وكانت لا تعني سوى خليط من الحقائق المتيسرة حول الإدارة، وبعض الإحصاءات التفصيلية. ولكن من هذه البداءة تفرعت وجهات نظر عديدة كان من الصعب التوفيق بينها بسهولة. أخرجها ودافع عنها أجيال متعاقبة من النظريين اندمج آخرها في المدرسة الفرنسية المجردة التي ظهرت في القرن الثامن عشر، تلك المدرسة التي رضيت عن اعتبار الإنسان شيئاً مجرداً بسيطاً، والتي أقامت نظاماً هرمياً لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

وكان في قاعدة الهرم الإنسان البدائي. إنسان منعزل؟ أناني قليل الحيلة لا يسعى إلا لإقامة أوده. قاسي بالنسبة لأقرانه ولا سيما بالنسبة للضعفاء، هذا هو الإنسان الذي تحدث عنه روسو في "رسالة عن عدم المساواة بين البشر(٢٨٧)"هذا هو الإنسان بما يتصف به من غرائز طبيعية مجرداً عن كل الملكات التي اكتسبها خلال أجيال عديدة من التقدم والرقي. هذا الإنسان إذا جردته من كل الصفات المكتسبة ونظرت إليه كما أخرجته يد الطبيعة لن نجد سوى حيواناً ضعيفاً أضعف من بعض الحيوانات الأخرى، وأقل نشاطاً من بعضها الآخر، لكنه أحسنها تنظيماً. إنني أتخيله قابعاً تحت شجرة بلوط. يطفيء ظمأه بأن يعب الماء ويجد فيها مآرب أخرى(٢٨٨) هذه قطعة من أدب روسو الرائع ولكن من يستطيع الآن أن يرو آراءه، وهو مطمئن؟

هذا الإنسان الطبيعي الإنسان الأول- الإنسان كما أوجدته الطبيعة- يعيش وحيداً إذ لم يكن هناك شيء يسمى مجتمع ذلك الوقت. وعندما بدأ يتكون المجتمع كان لغرض تزاوجي. أي اجتماع ذكر وأنثى ثم الأولاد- وكان هذا المجتمع كما تصوره روسو في الفصل الثاني من "العقد الاجتماعي مجتمعاً قلقاً مضطرباً غير آمن" أن أقدم المجتمعات وأكثرها قرناً هو طبيعي- هو مجتمع الأسرة- حيث لا يرتبط الأطفال بوالدهم إلا وهم محتاجون لحمايته. وما أن تنقضي الحاجة إلى هذه الحماية حتى ينفضوا من حولها. وحتى يصبح الأب وقد ألقى عن

(٢٨٧)J. J. Rousseau, Discours Sur I'origine de les fondements de L'integalite parmi les nommes, lere partie.

عاتقه عبء العناية بأطفاله ويصبح الأطفال وقد تحرروا من واجب الولاء لوالدهم فيستقل بعضهم عن البعض الآخر. وإذا ظلوا بعد ذلك متحدين فإنما يرجع ذلك عن رضى واختيار وليس عن اضطرار وضرورة. فتبقى روابط الأسرة بالاتفاق ومن هذا نرى أن الأسرة هي النموذج الأول للمجتمع السياسي.

هذا هو رأي روسو. وإذا كان صاحبنا قديماً فما قولك في فوستيل دي كولانج الذي يصف الأسرة في كتاب المدينة العتيقة. وكيف تتكون وكيف تنمو فيقول "أن الأسرة في الأزمنة القديمة" كانت تتكون من رأس الأسرة وأطفالها وخدمها وومن يلحق بها من التبع[٢٨٩] وربما كانت تشمل عدداً كبيراً من الأفراد" يقول في موضع آخر أن "السلالة الآرية كانت تتكون من عدد لا حصر له من أمثال هذه الأسرة" وأنها تكونت في غضون قرون عديدة متعاقبة[٢٩٠] ويجب أن نتذكر أن معظم الجغرافيين– ولا سيما في فرنسا– كانوا في الأصل مؤرخين" ويقول نفس المؤلف فما يعد أن هذه الآلاف من الجماعات الصغيرة، كانت تعيش منعزلة لا يربط بعضها بالبعض الآخر سوى علاقات قليلة متبادلة. ولا يحتاج بعضها إلى البعض ولا تربطها رابطة دينية أو سياسية لكل منها إقليمها الخاص وحكومتها الداخلية الخاصة. وآلهتها الخاصة "ولذلك ظلت الأسرة والجنس Gens[٢٩١]" بالمعنى اللاتيني) صورة المجتمع

---

(٢٨٩)**Fustal de coulanges, la cite Antique – Etude sur la Cult, le Droit, les Institutions de la Grece et de Rome, Paris, 1935 B II, ch. X, la gens a Rome, " P. 130.**

(٢٩٠)نفس المرجع ٣ و١٢٣

(٢٩١)هذا هو عنوان الفقرة الثالثة للفصل العاشر من الكتاب الثاني المرجع السابق (ص ١١٩)

الوحيدة، ثم حدث اتحاد تدريجي بين الأسر نتج عنه ما يسمى باللغة الإغريقية Phratria وباللاتينية curia[٢٩٢] أي العشيرة، ومن ترابط هذه العشائر تكونت البطون ومن ترابط البطون نشأت القبائل[٢٩٣] وبعد ذلك اتحدت القبائل وتكونت من تنظيمها الامة آخر الأمر. هذا التطور بسيط ومنطقي ومقبول فلا سبيل لنكران نمو المجتمع البشري فهو لم ينم "كالدائرة تنزاح رويداً رويداً في كل اتجاه [٢٩٤] وقد وضح فوستيل ذلك بكل جلاء بطريقة تحليلية سليمة. وبين ان الأمة تكونت بطريقة شبه طريقة تكاثر الخلايا. ترابط مجتمعات ذات أصول واحدة. متشابهة في طريقة تكوينها ثم اتحد بعضها بالبعض الآخر وأخيراً تكونت المدينة عن طريق الاتحاد التضامني.

* * *

إننا نعلم أن كثيراً من العلماء المحدثين قد هاجموا هذه النظرية. ويكفي أن نذكر منهم إدوارد ماير في الجزء الأول من كتاب تاريخ العصور القديمة[٢٩٥]Geschichte des Altertums، ولكنها لا تزال عالقة في كثير من الأذهان.

---

(٢٩٢)نفس المرجع ٣ و١٢٣

(٢٩٣)نفس المرجع ٣ و١٣٥.

(٢٩٤) نفس المرجع ٣ و١٢٣

(٢٩٥)ترجمه إلى الفرنسية ماكسيم دافيد (٥٠) ص ١ أجزاء ٢ – ٤. (٣) من أمثال هؤلاء:
G. Richard, Nations elementaries de sociologie, Paris Delagrave, 3 ed. 1904.

أهم حقيقة اجتماعية لدى كثير من أساتذة بعض المدارس الاجتماعية هي الأسرة[٢٩٦] التي تكون أصول الروابط الاجتماعية- دون الروابط الاقتصادية أو الدينية- أو يجد، هؤلاء دعائم جدلهم في نظم الأسرة الإغريقية والرومانية القديمة عدا الأتباع وكان أفرادها أكثر ارتباطًا بعضهم بالبعض الآخر، من أفراد الأسرة الحالية. وكانت للأسرة أملاكها الخاصة كما كان لديها سلطات واسعة على أفرادها وعلى ممتلكاتهم فكانت بذلك أشبه ما تكون بالملكيات الصغيرة. [٢٩٧]

ومن ثم كان من السهل أن نتصور أن ارتباط أمثال هذه الأسر واتحادها كان ينتهي إلى تكوين الدول نفسها.

وتميل الإحصاءات إلى تأييد ذلك، ففي مجتمعات الأسر الحالية في دول غرب أوروبا يقل عدد الأسرة وينقص نقصاناً مستمراً. ولم يكن الحال كذلك من عهد قريب- أي قبل اتخاذ عادة تحديد النسل في منتصف القرن الثامن عشر[٢٩٨]- فقد كانت الأسر أكبر عدداً منها في الوقت الحاضر ويرى علماء الاجتماع- معتمدين على عدد كبير من الإحصاءات الغير موثوق بها- أن هذه حقيقة لا جدال فيها- ولكن ألا ينبغي أن تشير إلى حالات الخصب الفردية[٢٩٩] ولا سيما بعد أن

([٢٩٦])فوستيل المدينة العتيقة ٢ الفصل الثامن ص ٩٤ قارن أيضاً:

Schmoller, G. Principes d'Economie politique, Platon, Vol. II. P. 27 ET SEQ.

حيث وصف بعيد للأسر الأبوية الكبيرة.

([٢٩٧])**Mathorez, Histoire de la formation de la nation francaise: Les Etrangers en France Sous L'ancien regime, Paris. 1919 Vol. I p. 9 et seq.**

([٢٩٨])نفس المرجع ص 4 وما بعدها.

([٢٩٩])ارجع إلى كتابي فيليب الثاني عن تناقص عدد أفراد الأسرة.

نستطيع أن نصل إلى متوسطات موثوق بها عن عدد أفراد الأسرة في الأجيال المختلفة وماذا يجدي بحثنا أمام السراب القديم عن "الزمن الغابر السعيد" وبالرغم من هذا فهناك من استطاع مقارنة الأحوال في الأمم التي ظلت بعيدة عن تيارات المدينة الغربية وربطها بالأحوال في الأمم التي ظلت بعيدة عن تيارات المدنية الغربية وربطاه بالأحوال التي كانت تسود غرب أوروبا قبل القرن الثامن عشر في أكثر الأمم تحضراً في الوقت الحاضر تلك التي يسميها روسو أكثر الأمم فساداً يترواح متوسط عدد أفراد الواحدة من ٣,٥ – ٤,٥ (حسب تقديرات ساليفوني الدقيقة) كما أن هناك عدداً كبيراً من الأسر التي يقتصر عدد أفرادها على واحد فقط. أما في أيرلندة فقد يصل عدد أفراد الأسرة إلى خمسة كما يصل في بلغاريا إلى ستة أفراد.

والأسرة تعرف "بجميع الأفراد الذين يضمهم سقف واحد" (في الأصل يستدفئون من مدفئة واحدة– وهنا يشير المؤلف إلى تعدد معاني كلمة مدفأة أو نار ودلالتها عند المؤرخين وعند الإحصائيين) وهي تشمل الأسرة وخدمها وأتباعها الذين يشتركون في "مدفأة واحدة وفي ماعون واحد" حول رب الأسرة. وهذا يغير فكرتنا عن عدد أفراد الأسرة الفعليين في الماضي– ومقارنتهم بالحاضر ولا سيما بعد اختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية وكانت الأسرة القديمة بهذا الوضع مجتمعاً قائماً بذاته، يتبادل أفرادها المنفعة– ويقسمون العمل فيما بينهم وبذلك كانت

Philippe II et la France, comte, Paris 1919 P. 107.

أيضاً مجتمعاً اقتصادياً كاملاً كذلك: تلك هي النظرات التقليدية عن الأسرة ولكنها ليست مرضية تماماً.

٢) قدم التجمعات القومية

ليس من السهل أن نتأكد ما إذا كانت الأسرة سابقة من حيث الزمن لما هو أكبر منها من الجماعات المعقدة. ولكن ماذا نفهم من تعبير الأسرة؟ هل وجد شخص ما زوجين يعيشان منفردين حياة بسيطة "طبيعية" مجرد اتحاد رجل وامرأة؟ فتلك الوحدة البسيطة المثالية التي يظنها بعض الكتاب مع مثيلاتها– هي لبنات البناء الاجتماعي– بل الأصل الذي تكاثر وتكون منه البناء الاجتماعي؟

إذا رجعنا إلى التاريخ في أبعد عصوره قدماً– فلن تجد إلا مجتمعات منظمة من رجال ونساء– خاضعين لنظم وتقاليد معينة لهم حقوق معينة وعليهم واجبات بذاتها. فهل هذه الالتزامات "طبيعية" وهل هذه النظم ترجع إلى "الطبيعة"؟

لن نستطيع أن نجد الأسرة الطبيعية التي أشار إليها هؤلاء الكتاب إلا في النادر. وذلك لعدة أسباب منها أن تلك الأسر ليست متشابهة في كل مكان كما ينبغي أن تكون إذا كانت نظمهم قد أظهرتها "الطبيعة البشرية" المتشابهة في جميع البشر– ثم ما هو الشيء "الطبيعي" الذي يحملونه في ثنايا ضلوعهم هل الطبيعي أن يكون نظام الأسرة أبوياً– أي تخضع الأسرة لسلطان الأب. أم تخضع لسلطان الأم

وهل الطبيعي ما نجده في بعض الأسر من توقير كبار السن وتمييزهم أم ما نجده في بعضها الآخر من تقدير الشباب وتمييزهم اجتماعياً"؟

كيف نستطيع أن نفسر العلاقات بين الأطفال وبين والديهم إلا عن طريق الإشارة إلى الحقوق والواجبات وهي متعددة الأصول والنشأة؟ وكيف نفسر تعدد الأصول هذا الذي يفضح عن نفسه في كل مكان بنفس الأسلوب وينتهي إلى نفس النتائج داخل الجماعة الواحدة بينما يفصح عن نفسه بأسلوب آخر وينتهي إلى نتائج أخرى في جماعة أخرى؟

أين نجد هذين الزوجين البدائيين، رجلاً وامرأة "اتحدا طبقاً للطبيعة" ينجبان أطفالاً "طبقاً للطبيعة" أيضاً حيث يظل الأطفال تحت رعاية والديهم "طبقاً للطبيعة" ويكونون أسرة "طبيعية" وبذلك تكون أول "خلية" اجتماعية؟ ليس هذا سوى محض خيال ووهم من أوهام التأمل. أن النوع البشري قد استغرق وقتاً طويلاً ليوجد بينهم تلك الرابطة أو العلاقة السببية التي تبدو لنا في غاية السهولة بين الاتصال التزاوجي وبين الحمل والاولادة الذين تفصل أحدهما عن الآخر فترة زمنية معينة[٣٠٠]. ولكن عندما عرفت هذه العلاقة السببية، استغلت هذه المعرفة إلى أقصى حد في التنظيم الاجتماعي نفسه وتحليل "ماير" لهذه الظاهرة دقيق ومقنع وهو يبين لنا كيف أن الكثير من الجماعات البشرية يعتبرها كثير من الكتاب أسس النظم الاجتماعية والسياسية جميعاً، لم يرتبط بعضها

---

(٣٠٠)عن معاني كلمة "النار" المختلفة ارجع إلى Sagnac, Rev. Hist. Moderne et Contem P. oct. 15. 1904

بالبعض الآخر إلا ارتباطاً تقليدياً بحكم العادة وما تواضعت عليه من عرف وأنه لا يعتمد تكوينها على أسس القرابة إطلاقاً. وقد لاحظ كل الحالات المعاصرة والتاريخية حيث لا يعتبر العلاقة البيولوجية بين الوالدين والأطفال رابطاً أساسياً لتكوين الأسرة ولكن هذه الرابطة تقوم عوضاً عن ذلك على روابط رمزية، مثل التآخي في الدم أو التبني أو غنجاب الأطفال بطريق بديل للزواج.

وبالرغم من ذلك فإن الفكرة السائدة عن هذه الجماعات أنها ناشئة عن علاقات الرابطة البيولوجية بين الأطفال والوالدين وأنها جميعاً ترجع إلى جد واحد مشترك انحدرت من صلبه. أن ما يقوض تلك الفكرة الغامضة عن الإنسان الطبيعي البدائي، ما أثبتناه من أن الطفل في الأسرة عند بعض الجماعات البدائية ليس الابن "البيولوجي" لوالده وإن كان ابنه أمام القبيلة وعاداتها، "هذا هو رأي ماير" وهو يقص على هؤلاء ما يتوهمونه من أن جميع النظم في أنحاء العالم كلها قد نتجت على هذا الأساس الذي ثبت أنه غير ثابت في كل مكان.

ليست الأسرة شيئاً "بدائياً" أو بسيطاً حتى عند أقل الشعوب تقدماً. ولا يمكن تنظيمها إلا عن طريق تدخل قوة جماعية هي الدولة.

وليس معنى الدولة– كما يقول ماير– حكومة منظمة بل مجتمع من طبيعة السياسة أن يفرض التزامات معينة على أعضائه في مجالات ثلاثة– الحقوق– والعادات– والنظام الأخلاقي. ويعتمد في ذلك على استقلاله النسبي عن المجتمعات الأخرى التي تحيط به. هذا المجتمع

السياسي بمعناه الواسع موجود في كل مكان حيث يوجد بشر. فإلى هؤلاء البشر في جماعاتهم المختلفة يرجع تكوين المجتمع الذي ينظم العلاقات المختلفة لأفراده، علاقات الأسرة ومجتمعات القرية– هذه المجتمعات التي تسمى بالبدائية تقوم بهذه الوظائف جميعاً.

ولهذا تختلف المجتمعات وتتفرع في الشكل وفي النفوذ– من القبائل إلى البطون إلى العشائر إلى الأسر يشمل بعضها البعض الآخر. وتتبادل المنافع والمصالح. وليست الأسرة إذن "الأشكال السابقة للتنظيم السياسي أو السابة للتنظيم الاجتماعي وليست الذرات التي حدث من تجمعها وتكتلها الدولة السياسية ليست خطوة سابقة في التطور السياسي المعروف الآن الذي انتهى إلى تكوين الدولة" كما يقول فوستيل دي جولانج في كتابه "المدينة العتيقة" بل الذي حدث هو العكس فليست البطون أو العشائر أقسام فرعية للدولة أو القبيلة "ليست الدولة نتاج هذه الأقسام بل هي جميعاً– على العكس– نتاج الدولة" أي أن الدولة هي التي نظمت هذه الأقسام الفرعية جميعاً.

* * *

وأكثر من هذا فإذا كانت الأسرة نظاماً بسيطاً بدائياً فيجب أن نعترف بأحد أمرين– أما أن البشر جميعاً قد وهبوا صفات معينة فطرية غير متغيرة، وفي هذه الحالة يجب أن تترك أثرها على كل مجتمعات الأسر في جميع الازمنة وفي جميع الأمكنة ويجب أن نرجع إلى هذه الصفات الفطرية كل خصائص الأسر في العالم كله وهذا شيء مستحيل

لتناقض صفات المجتمعات الأسرية من الأسرة الأبوية إلى الأسرة الأموية ومن تباين تكوين الأسر وحقوق وواجبات أفرادها كما لاحظ علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع. وأما أن مثل هذه الصفات والخصائص الفطرية غير موجودة إطلاقاً، وهذا أيضاً غير صحيح. إذ كيف يمكن أن نتجاهل شهوات الأفراد وغرائزهم التي شكلت المجتمعات البشرية أشكالاً عديدة لا حصر لها؟

في الواقع أن البناء الاجتماعي لا يعتمد على رغبات الأفراد وأهوائهم حتى في الشعوب البدائية بل أنها جميعاً تمتاز بالاستقرار والتجانس في الحضارة التي تتصف بها (داخل القبيلة الواحدة) بالرغم من تباينها واختلاف نظمها في الاماكن المختلفة– أو هذا على الأقل الذي استطعنا أن نصل إليه في هذا الموضوع الغامض.

فمن المعروف تماماً أن صناعات المجتمعات قبل التاريخ كانت تنتشر في جهات واسعة، فالصناعة المجدلينية مثلاً كانت تمتد من شمال أسبانيا إلى روسيا عبر فرنسا وبليجكا ووسط ألمانيا والمجر والنمسا وبولندا. ونحن لا نستطيع أن نتأكد من عناصر هذه الحضارة في جميع هذه الأنحاء. وكان دي مورجان محقاً عندما حذر الباحثين من خطر التعميم(٣٠١) وإطلاق الأحكام العامة. إلا أنه لدينا من المعلومات ما يشير إلى حلين لهذه المشكلة أحدهما أنه في زمن متقدم كانت هناك مجتمعات بشرية وجماعات بشرية عديدة منتشرة انتشاراً كبيراً. والآخر

(٣٠١)دي مورجان (١٧٥) ص ٣١ – ٣٢، ٧٠ – ٧٣.. إلخ.

أنه كانت هناك علاقات منظمة سريعة قد نشأت بين هذه المجتمعات والجماعات البشرية.

كما أن الدراسات اللغوية تنتهي بنا إلى نفس النتيجة وإن كان ذلك عن طريق آخر، فقد تصور المؤرخ كاميل جوليان Camille Julian في كتابه تاريخ الغال Histoire de la Gauleوفي محاضراته في كلية فرنسا عصراً قبل تاريخي كانت قد تكونت فيه أمة منظمة– وليس مجرد قبائل تهيم على وجهها عل غير هدى. أمة تتسع وتسيطر وتمد نفوذها في كل اتجاه من وطن معين. ومن أمثال هذه الأمة الأصلية الأمة الهندية أورروبية أو الأمة الكتلية إيطالية والأمة الليجورية ولم يتردد هذا المؤرخ في استعمال كلمة أمة لهذا الزمن السحيق. تلك الكلمة التي قصرها المؤرخون على العصور التالية للفتح الروماني في أوروبا(٣٠٢) وليست المسألة قاصرة على جماعات بشرية ترجع إلى سلالة بشرية واحدة بالمعنى البيولوجي. بل أنه قال من عهد بعيد ان الرابطة التي تربط أفراد هذه الأمم "ليست رابطة السلالة أو العنصر المشترك(٣٠٣) ولكنها رابطة قد أوجدها الإنسان بإرادته والدليل على ذلك رابطة الدين المشترك (٣٠٤) إذ أن رابطة الديانة القومية كان يقصد بها أولاً تكوين الأمة ثم المحافظة على كيانها. كما أن اللغة نفسها رابطة أقوى وأشد.

---

(٣٠٢)عن فكرة الأمة انظر المجلة السياسية والبرلمانية ٢٥ يناير ١٩١٣ ص ٧

(٣٠٣) قارن فيفر: تطور اللغات والتاريخ (١٨) جزء ٢٧، ١٩١٣ ص ٥٦

(٣٠٤)جوليان، سبق ذكره ص ٢٥

وهناك عالم لغوي يتحدث كما يتحدث اللغويون يستخدم نفس كلمة الأمة [٣٠٥] فبينما نجد الآن عدداً كبيراً من اللغات يتحدثها شعوب عديدة. تتفرع بدورها إلى شعوب فرعية- وتحدث لهجات متفرعة من لغات مشتركة الأصل فإنه مما لا شك فيه أن هذه اللغات جميعاً كانت ترجع- في عصر سابق للتاريخ- إلى لغة واحدة وأن تعدد اللغات هذا دليل على تفرع الجماعة البشرية الأصلية وانتشار تلك الفروع في كل اتجاه.

ويقول ميليه Millet أنه "في عصور سابقة كانت التعبيرات اللغوية المتعددة في الوقت الحاضر ليست إلا تعبيراً واحداً- وكلما عدنا إلى الماضي كلما ازدادت اللغات الحالية- المشتركة الأصل- قرباً بعضها من البعض الآخر. وهذا دليل على وحدتها القديمة [٣٠٦].

ولا بد من وجود سياسة معينة أو على الأقل وحدة حضارية معينة لكي تسمح لوحدة اللغة [٣٠٧] "أن الاتحاد في اللغة يدل على وجود اتحاد النظم السياسية أو الحضارية بين الشعوب التي تتحدث هذه اللغة الواحدة.. "لا بد أن تشعر الأمة بوحدتها قبل أن تخلق الوحدة اللغوية وليس هناك ما يدل على وجود سلالة هندية أوروبية واحدة- ولكن لا بد وأنه كانت هناك في زمن ما في مكان (لا مقر لها على وجه الدقة) أمة هندية أوروبية) هذه ضرورة منطقية يجب أن نواجهها مهما كانت حلول

---

(٣٠٥)فيفر سبق ذكره ص ٥٨

(٣٠٦)Millet. Les Langues dans L' Europe nouvelle, Paris 1918, P. 5

(٣٠٧)نفس المرجع.

المشاكل الفرعية العديدة التي تنجم أمامنا مثل أصل الجرمان أو التعبيرات البدائية الجرمانية- تلك المسائل التي أثارها فيست Feist[٣٠٨] فحتى لو اعترفنا بأن اللغة الألمانية ليست لغة هندية أوروبية في الأصل- فإن تغير تلك التعبيرات البدائية في الألف الأولى السابقة للمسيح كنتيجة للغزو الهندي أوروبي الذي يعترف به فيست نفسه يثبت أهمية اتصال الجماعات البشرية بعضها بالبعض الآخر وأثر الهجرات البشرية في العصور الغابرة. [٣٠٩]

وهكذا نجد علم اللغات- فيما يختص بالتاريخ القديم- يعتمد على علم الآثار- وأن المؤرخين كانوا على حق عندما طلبوا منا ألا ندرس "البشر" بل ندرس مجتمعات سياسية كبرى ومجتمعات بشرية وجماعات عظيمة واسعة الانتشار- في مساحات وأرجاء شاسعة تصبغها بحضارات واحدة متجانسة. وما ينبغي لنا أن ندهش لهذا أو لاتساع مجالات البحث وعلينا أن ننظر مثلاً إلى الإسكيمو التي تمتد من ألاسكا حتى الشواطيء الشرقية لجزيرة جرينلند في مسافة ٥٠٠٠ ميل. ولننظر إلى شعوب المحيط الهادي التي تمتد من جزر إيستر إلى سامو ومن جزر نيوزيلندة إلى جزر هاواي أي مساحة تفوق مساحة أوروبا ثلاث مرات. وحيث لا توجد سوى لغة واحدة في الواقع إذ أن أي تاهايتي يستطيع أن

([٣٠٨])Millet, Introduction a l'etude comparative des langues indo-europeennes. Paris 1912. 3 ed. P 405

([٣٠٩])Feist, S. Kultur, Ausbreilung u Herkuft der indol Germanen Berlin, weidmann, 1913.

يفهم ويتحدث لهجات نيوزيلندة أو جزر المدكويساز أو جزر الهاواي في ساعات قليلة.

أن جغرافية ما قبل التاريخ تلقي الضوء- إلى حد كبير- على وجود مثل هذه المجتمعات الواسعة الانتشار.

٣) الأقاليم المتجانسة الكبرى والتجمعات القديمة الكبرى

يرجع تكوين هذه الجماعات الكبرى المتشابهة إلى تشبه بيئاتها النسبي- ويجب أن نتصور العالم القديم أكثر بساطة وأقل تعقيداً في المظهر العام، عنه في الوقت الحاضر. فلم تكن هناك زراعة قد حولت مراعيه أو سهوبه إلى حقول بعد. ولم تكن غاباته قد أزيل منها جزء كبير كذلك، ولم يكن قد تأثر بأقلمة عدد كبير من النباتات والحيوانات التي قامت بها الجماعات الأحدث عهداً- فهل نستطيع أن نستنتج من ذلك أن هذه المساحات الشاسعة المتاجنسة كانت تدعو سكانها إلى أسلوب واحد مشترك من الحياة وحضارة واحدة مشتركة تدعوهم إلى المحافظة على كيانهم بأسلوب متشابه؟

ربما يعترض على ذلك بأن نشاط الإنسان لم يقتصر على مجرد إدخال لتنويع على المظهر العام لهذه الأرض. والواقع أن الأمر جداً مختلف عن هذا فإن بعض الجماعات المتدينة تميل إلى جعل زراعة الأرض متجانسة في أقاليم واسعة ويقول فيدال دي لابلاش عن هذا الأمر "أن الأوروبي الحديث عامل لا يكل في إدخال عنصر التجانس في

أقاليم واسعة من الكرة الأرضية إن لم يكن الكرة كلها[310]. وإذا نظرنا إلى هذه المساحات الواسعة من أمريكا الشمالية حيث تقوم الزراعة الواسعة الآلية لمحصول رئيسي واحد، وإلى الزراعة الكثيفة في الصين حيث الغابات قد أزيلت وحل محلها القمح في الشمال والأرز في الجنوب ثم نفكر في تلك الثورات الحضارية الفجائية العنيفة التي أدخلت الصناعة في كثير من أنحاء العالم، ثم نفكر في العقبات العديدة- من حيث تعدد أنواع النباتات الطبيعية والأقاليم النباتية الكبرى في هذه المناطق التي استشهدنا بها- والتي كان من شأنها أن تعرقل إدخال حضارة زراعية واحدة متجانسة فيها- أمكن أن نبرر قول فيدال دي لابلاش هذا. هذا من العالم النباتي فقط، أما العالم الحيواني فقد سار أيضاً في نفس الطريق.

هناك اتجاه- على التحقيق- بين البشر المحدثين الذين هم سادة القوى الصناعية وعبيدها في الوقت نفسه نحو التبسيط الذي يجب أن يتم على وجه ما. فللإنسان حرية الاختيار ولكنه في الوقت نفسه يجد هذا الاختيار صعبًا ولا يلبث أن يضيق به. ولنضرب لذلك مثلاً واحداً من مئات الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها. مثل الغابات الاستوائية التي لم يستطع استغلالها بعد والسبب في ذلك وفرة أشجارها وثمارها وفرة عظيمة جعلته يضيق بها وييأس من استغلالها[311] — ها نحن أولاء بإزاء ثروة نباتية كبيرة ولكن هذه الثروة كانت السبب في تعطيل استغلالها

([310])فيدال (٩٥) ص ١٠٣
([311])رافينو (١١) ١٩٠١ ص ٧٤ - ٧٥

تجارياً. ولنقارن هذه الثروة النباتية ببساطة الغابات في اسكنديناوة وتجانسها حيث لا نجد سوى الصنوبر والشربين. والشربين والصنوبر– ولا شيء غير ذلك، مما يمكن أن يعقد الصورة العامة– ومما لا يدعو إلا إلى عمل واحد يتجه إليه الإنسان بكليته دون أدنى تفكير أو تردد. وقد لاحظ أحد علماء النبات الرحالة الذي كان على دراية تامة بنباتات الإقليم السوداني[٣١٢] ثروة هذا الإقليم النباتية– وخشى عليها من الرغبة التجارية في التجانس النباتي التي يميل إليها الذهن الأوروبي، فقال "أنه يجب ألا نسمح بهذا التجانس في هذا الإقليم الشاسع بل الأفضل أن نشجع كل إقليم صغير على إنتاج ما يمتاز به، مما لا يتوفر في الأقاليم الصغيرة الأخرى [٣١٣].

وهذه اللهفة ذات دلالة خاصة ولها ما يبررها "ولا سيما أمام الاتجاه الأوروبي نحو التبسيط والتجانس– ولكن هل نجح الإنسان المتمدين الحديث في هذا؟ كلا– فإن جهوده الكبرى التي يتوسل إليها بالآلات الميكانيكية والطرق العلمية الحديثة لخلق هذا التشابه العام لا تؤدي إلا إلى تجانس سطحي فقط، غير مستقر لا يلبث أن يتحطم. وهو يختلف عن هذا التشابه الطبيعي الكبير الذي كان يسود الأقاليم الطبيعية الكبرى في الماضي.

* * *

([٣١٢])أوجست شيفالييه.
([٣١٣])ذكره مارك (١١) ١٩١٠ ص ٤٥

هناك وجهان لكل مجود بشري، فالفراعنة الذين استفادوا من غزواتهم في البلاد الأجنبية بأن جلبوا إلى مصر نباتات لم يكن لها بها عهد، وبذلك استحقوا الثناء والمجد المخلدين في جدران معابدهم وهؤلاء الذين حملوا تلك النباتات بعد دراسة منظمة لأجل استخدامها في الطعام والغذاء والتجميل كما بين جوريه Ch. Joret في كتاب عن الشرق القديم(٣١٤) كل هؤلاء خلقوا التنويع والتجانس في وقت واحد في مصر القديمة حيث أنهم جعلوا من مصر جزءاً من غرب آسيا التي استفادوا من نباتاتها. وأوجدوا شبهاً حقيقياً بينها. وبعبارة أخرى غيروا مظهر "مصر الطبيعية" وجعلوها تشبه جاراتها الآسيوية في الوقت التي احتفظت فيه بمميزاتها الأفريقية الخاصة.

وقد فعل البطالمة نفس الشيء في الأعصر التالية عندما استعاروا أشجار الفكاهة التي كانت تنمو من عهد سحيق في غرب آسيا، مثل اللوز والخوخ والتوت- وبذلك ساعدوا على خلق بيئة بحر متوسط جديدة حيث تلعب هذه الأشجار دوراً رئيسياً. ولكنهم في الوقت نفسه أضعفوا مميزات بلادهم الأصلية التي ظلت جاهلة أساليب الزراعة الإغريقية. وهناك مثل آخر، سكان أوروبا في العصور الوسطى كانوا يضطرون إلى زراعة كل ما يحتاجون إليه في أوطانهم الصغيرة، وفي مقاطعاتهم العديدة كل على حدة حتى يستغنوا عن التبادل مع التجار بالمقاطعات والأوطان الأخرى، فضلاً عن التجار القادمين من أوطان بعيدة. هؤلاء الذين اضطروا إلى إدخال الكروم إلى أندروا وقرى هوت

---

(٣١٤)سور (٢٣٠) ص ٢١٩

كرداني Haute – Cerdagne[٣١٥] بغض النظر عن عدم ملائمة المناخ ملاءمة تامة، أو إلى جبال مورفان Morvan[٣١٦] أونورمانديا[٣١٧] أو بيكاردي[٣١٨] أو حتى الفلاندرز[٣١٩] وغيرها من مئات المقاطعات، أن هؤلاء جميعاً خلقوا نوعاً جديداً من التجانس في فرنسا، وكذلك الحال عند الفلاحين في الجزائر الذين تعتمد رفاهية بلادهم على إنتاج الزيتون والتين والكروم –اضطروا اضطراراً إلى زراعة القمح حيث أنهم كانوا "سيتضورون جوعاً– في فترة ما –إن لم يقوموا بزراعته بأنفسهم، كل هؤلاء غيروا من مظهر الأقليم النباتي الطبيعي– في أجزاء عديدة من سطح هذا الكوكب"، ولكن ما هي النتيجة التي ستخرج بها من إيراد هذه الحقائق؟ وهل معنى هذا أن نيأس من الوصول إلى توازن بين المناخين؟

لقد كانت عصور الحضارات البشرية الأولى غير بعيدة العهد بالعصور الجيولوجية السابقة، أي تلك الفترات التي كان فيها المناخ يختلف عما هو عليه الآن في الوقت الحاضر، وكان المظهر العام في النباتات متشابهاً في مساحات واسعة من الأرض، كما كانت الحال بالنسبة لغابات أوروبا، أما الآن فقد تغير الحال، في الشمال الغابات الصنوبرية ثم النفضية أما في الجنوب فقد اختفت الغابات من إقليم

([٣١٥])ليفينفيل (٢٢٥)
([٣١٦])سيون (٢٢٩) ص ١٤٩
([٣١٧]) ديما نجون (٢٢٤) ص ٢٥٤
([٣١٨])بلانشارد (٢١٧) ص ٣٧
([٣١٩])Nemann et Partsch physikolische Geographie von Greicheniana p. 357 s.q.

البحر المتوسط، فقد اختفت من بلاد اليونان أولاً ثم من شمال إيطاليا بعد أن كانت الغابات تغطي جبالها وسهولها، فقد كانت أشجار الزان والقسطل والبلوط تغطي سهل "البو" قبل الحكم الروماني بكثير كما ثبت من نتائج الحفائر وهذا مثل من آلاف الأمثلة، لقد كانت القاعدة هي التشابه في الغطاء النباتي أما الآن فقد حل محل هذا مجرد تشابه في المظهر الطبيعي لأقاليم البحر المتوسط كما تبدو في الوقت الحاضر، وهذا المثل يبين حالة إقليم صغير وما حدث فيه من تغير يرجع إلى عهد حديث فقط.

ويجب ألا نغفل عن طول الفترات قبل التاريخية أو أهميتها الكبرى أو عما تركته من تراث عظيم لنا فمثلاً لم يسد الزيتون حوض البحر المتوسط فجأة وكذلك لم تفعل الكروم بعد ذلك ولم يحل زيت الزيتون كغذاء محل الدهن الحيواني أو الزبد فجأة ولم يحل النبيذ محل الجعة فجأة كذلك أو بعبارة أخرى لم تخلق حضارات جديدة فجأة دون تمهيد طويل، ولم تنبثق تلك الحضارة في طرفة عين لكي تسود كل حدود إقليم البحر الأبيض المتوسط المناخية، ولم يحتفظ الشماليون بالدهن الحيواني واستعمال الزبد في الغذاء إلا أنهم كانوا عاجزين عن زراعة الزيتون والكروم في بلادهم الباردة المعرضة للصقيع في الشتاء[٣٢٠].

وتذكر الأساطير القديمة أن ارستايوس البطل الرحالة هو الذي قام بنقل هذه النباتات جميعاً إلى البحر المتوسط ومن ثم انتقلت إلى أوروبا

---

[٣٢٠] Besnier, rat, Oleum في (169) 4، 1، 1868.

Olea Europea ولاشك أننا غير متأكدين من التواريخ المضبوطة التي تم فيها استئناس تلك النباتات المزروعة واستنباتها —كما أننا نعتقد أن هيهن[٣٢١] قد غالى في أهمية دين الإغريق للشرق، وفي نقل الإغريق وسكان البحر المتوسط عن بقية أوروبا، ربما كانت الكروم والزيتون وأشجار التين شائعة في بلاد اليونان أو كانت تنمو في حالة طبيعية قبل زمن هوميروس، وربما كان فضل الشرق على الإغريق راجعاً إلى زمن أقدم من هذا بكثير أثناء الحضارة الأيجية الكريتية[٣٢٢] وأن إدخال النباتاتالمزروعة في شمال أوروبا بدأ قبل الغزو الروماني، ولكن من الواقع أيضاً أنه يجب أن نعود إلى زمن أكثر قدماً من هذا إذا أردنا أن نتصور منظر إيطاليا قبل أن تحل أي شجرة كرم أو زيتون أو لوز أو برتقال أو ليمون.

ونستطيع أن نقول أن أوروبا فيما عدا جنوبها الشرقي الذي تأثر بالحضارة الأيجية الكريتية كانت تتكون من أقاليم نباتية أقل تنوعاً وأقل غنى وأقل تبايناً في نباتاتها وأشجارها منها في الأزمنة التاريخية، ومن ذلك الحين كانت المناظر الطبيعية النباتية فيها متجانسة تبعث على الملل مما جعل الجماعات البشرية تسلك أساليب متشابهة من الحياة أو النظم الحضارية، ويجب علينا ألا نغفل عن هذه الحقيقة أو الملاحظة عندما ندرس الحضارات في قارة أوروبا وفي غيرها من المساحات الشاسعة، ويلاحظ فريزر إن حقاً أو باطلاً —من دراساته الدقيقة للقبائل

---

[٣٢١](١١٤).
[٣٢٢]شريدر (١١٤).

تشابهاً غريباً في الطقوس والعادات ربما كان شبيهاً بذلك التشابه الذي لاحظه رجال الآثار في حضارات أوروبا قبل التاريخية وحضارات أوروبا قبل التاريخية وحضارات غرب أسيا قبل التاريخية.

كل هذه الملاحظات من التاريخ القديم ومن حضارات ما قبل التاريخ ومن الجماعات البدائية المعاصرة، كلها تشير إلى هذه الفكرة العميقة —وهي أننا لسنا بإزاء إنسان بدائي بل بإزاء جماعات بشرية بدائية.

٤) الإنسان البدائي في الطبيعة —المطالب والعادات

لماذا إذن يتمسك كثير من الكتاب الأذكياء بنظرية يعرضونها في شكل منطقي محكم عن الرجل البدائي وحاجاته، وهي نظرية أقل ما نقوله عنها —أنها لا تتفق مطلقاً مع الحقائق المعروفة التي ثبت صحتها؟ لماذا يظل عدد كبير من الكتابات الحديثة يحاول أن يرفع الثوب الخلق عن كتابات روسو؟ هل من الصعب أن نعرف سلوك الرجل البدائي على حقيقته؟

أن هذه الكتابات تصوره لنا وقد أرسل إلى هذا العالم —وقد امتلأ حرية وقوة حتى انتشى بهما مخلوقاً تملأ نفسه العواطف القوية المنطبقة— ونحن بإزاء أمرين معه، رغباته من ناحية والطبيعة من ناحية أخرى، تلك الطبيعة التي تمثل مخزناً كبيراًتتفتح أمامه غابات الموارد الطبيعية النباتية والحيوانية سهلة مطواعة كلها تستطيع أن تشبع جوعه

وتروي ظمأه وتكسو عريه وتأويه وتمنحه الدفء باختصار تلبي كل مطالبه وتسد كل حاجاته الضرورية أو حاجاته الطبيعية[٣٢٣]، كما يقاللنا ولاشك أن هذه الحاجات طبيعية، ولكن كيف تسد هذه الحاجات وبأي أسلوب؟

أن غرضنا الآن هو أن نبين إلى أي حد يبدو الرجل البدائي عبداً للطبيعة في تقيده للعادات، وتشمل حركة الانطواء تحت عرف معين يخضع له الرجل المتمدين، فالبدائي مخلوق مكون من حزمة عادات والعادة هي التي تتحكم في كل تصرفاته، فهي مثلاً تتحكم في هجرات الاسكيمو في شرقي جرينلنده –بعضهم يهاجر إلى الشمال– وبعضهم يهاجر إلى الجنوب[٣٢٤]، والعادة أيضاً تفسر الأساليب الضيقة التي يسلكها البدائي في إشباع حاجاته البسيطة، ولنذكر حاجة أولية واحدة وهي الطعام.

ولقد كانت القبائل في العصر الهومري –كما يحب فيدال دي لابلاش أن يقول– تنقسم حسب فكتور بيرارد–طبقاً لنوع الطعام السائد بينها فكانوا أما آكلين للحم أو آكلين للسمك أو آكلين نباتيين.

ولاشك أن طعامهم كان زيتياً –وكان كذلك لأنه لم يكن متروكاً لكل فرد أن يأكل ما يريد، ولكن اختيار الطعام كان خاضعاً للرقابة الاجتماعية– بل والضغط الاجتماعي، وإلا فكيف نفسر إهمال بعض القبائل في تربية الماشية وجهلها وقتاً طويلاً قيمة اللبن الغذائية؟ وكيف

---

[٣٢٣]برين (٦٧) ص١١.

[٣٢٤] بوشا في (١٦) ١٩٠٦ جزء ١٧ ص١٨١.

نفسر إهمال بعض القبائل أنواعاً معينة من الطعام إهمالاً غريباً وأكثر من هذا غزوفها عن تجربة ألوان جديدة من الطعام؟

منذ زمن غير بعيد – كان أهل مدغشقر لا يأكلون لحم البقر ويقول دوروري أنه رأى بعض الماشية لا تقوى على السير فبعضها يقعده العجز والشيخوخة عن السير والأخرى يقعدها الأفراط في السمنة "وتذكر القصص الملاجيسية الشعبية قصة الملك رالامبو الذي رأى في أحد الأيام بالقرب من انتمائنا ناريقو عجلاً جداً "تكاد تزهق رحه السمنة" فخطر بباله أن يستسيغ لحمه طعاماً –فاقترب من وراء ظهرهبحذر خشية أن يصيبه زفير الثور باذي وطعنه طعنة نجلاء وشوى لحمه وكان لشوائه رائحة مغرية ولكنهخشي أن يكون لحمه ضاراً– ولم يقربه حتى أطعم منه أحد عبيده وتلك قصة شعبية ذاتمغزى.

لقد كان رالامبو من القوة والسلطة بحيث يقوم بتجربة طعام جديد، ولكن عامة الشعب ما كان لهم أن يقدموا على مثل هذه التجربة –فعالم البدائيين تطوف به الأرواح التي تسكن نباتاته وأشجاره وكل الغطاء النباتي عامة.

وقد استطاع فريزر أن يسجل عدداً كبيراً من العادات والتقاليد التي تبين الرابطة القوية–في اعتقاد البدائيين[٣٢٥] بين حياة الإنسان وحياة النباتات وكيف اقنع هذا البدائي نفسه بأن هلاكه رهين هلاك هذه النباتات، ويقوي هذه المعتقدات اعتقاده في الأرواح –وهذا يفسر لماذا

[٣٢٥] جونييه (مدغشقر) ص٣٥٨ -٣٥٩.

يحجم الهيداستو من هنود أمريكا الشمالية الحمر عن قطع الأشجار الضخمة- وهم يسدون حاجاتهم من الأخشاب الكبيرة- بقطع الأشجار الضخمة التي تكون قد سقطت فعلاً[٣٢٦]، وفي نفس الحال تظهر لدى الوطنيين بالنسبة للأشجار ذات الثمر النافع كغذاء، كأشجار الكاكاو في غرب إفريقيا فقطعها يعتبر جناية كجناية القتل -هذه هي الفكرة البدائية التي تسيطر على البدائيين.

وليست فكرة "المنفعة" التي يتمسك بها المفكرون الغربيون - والتي يحاولون أن يفسروا بها كل المظاهر الاجتماعية والاقتصادية، ويقول منيود عند حديثه عن وجود رجال متخصصين لحراسة النباتات المفيدة لدى قبائل السودان (مثل الموسى) أن استغلال الأشجار لدى هذه القبائل غير المتمدينة ليس استغلالاً أعجمياً[٣٢٧]، ولاشكفيها ولكن ليست الفائدة أو المنفعة هي التي تحمي الأشجار ولكنه الدين -فهناك أشجار عديدة لا حصر لها- تحيط بها القداسة لدى كثير من الشعوب في جهات عديدة من العالم، وبذلك تتمتع بالصيانة والبقاء، ومن الغريب أن بعض القبائل إذا اضطرت إلى قطع الأشجار تلتمس الأعذار لهذا العمل، وبذلك تلقي باللائمة على غيرها عند قطع الأشجار.

ومن هنا لا نعجب إذا كانت "الآراء" تتدخل كثيراً في ضبط غذاء الإنسان وأن العرف الاجتماعي طالما يقف دونه وما يأكله، وفي هذه النقطة أيضاً نجد أن المعلومات والحقائق التي جمعها فريزر لها قيمتها

---

[٣٢٦] نفس المرجع ص٥.

[٣٢٧] منيوه (١٨٣) جزء ١ ص٢٦٥.

في الإيحاء بالأسباب الاجتماعية وفي الاقناع بها، فهناك مثلاً الاحتفالات الخاصة لدى بدء استهلاك محاصيل القمح الجديدة في أوروبا(٣٢٨)، ومحاصيل الأرز في جزر الهند الشرقية-والهند- والهند الصينية ومحاصيل اليام على ضفاف نهر النيجر -وتقديم الفواكه الجديدة لدى الكافير والذولو وهنود أمريكا الشمالية الحمر- ويقول فريزر(٣٢٩) أن الهندي الأحمر لا يقرب محاصيل الفواكه الجديدة أو الحبوب الجديدة قبل الاحتفال التقليدي بذلك، ويختار النجم عند الكورج بجنوب الهند الرجل الذي يحصد أول حزمة من سنابل الأرز الجديدة ولا يسمح لبقية الأفراد في القبيلة العمل في حصد الأرز إلا بعد احتفال تقليدي مهيب، ولا تزال بقايا هذه العادات موجودة حتى الآن في فرنسا أليس الفلاحون الفرنسيون يقومون باحتفالات خاصة عند بدء جمع محصول الكرم وعند الانتهاء منه؟وربما يقال أن المنفعة هي التي تسيطر على الفلاحين الفرنسيين؟ ولكن قطعاً لم يكن الأمر كذلك عند فلاحي شرقي فرنسا أو فرانش كونتيه مثلاًعندما يحتفلون "بقتل القطة" في ميعاد الجمع للكرم، ولابد أن أصل هذه العادة يرجع إلى عهد بعيد جداً، وقد وصف فريزر هذه العادة وصفاً دقيقاً.

لقد تحدثت حتى الآن عن القيود الاجتماعية والدرجة التي تشل حرية الإنسان فيما يختص بالعالم النباتي والآن فلننظر إلى علم الحيوانات وإلى تلك الحقائق الغريبة التي تكتنف سلوك الإنسان البدائي

(٣٢٨) فريزر (١٧١) جزء٢ فصل٣ ص٧٥ وما بعدها.
(٣٢٩) نفس المرجع ص٨٨.

نحوه والتي تلقي ضوءاً باهراً على العلاقات بين الإنسان والبيئة –ونحن نعرف قصة الدببة والاينو[٣٣٠]، فالاينو يعيشون على الدببة فهم يأكلون لحمها طازجاً أو مجففاً أو مملحاً وهم يكتسون بجلدها ويدفعون ديونهم بفرائها ولكنهم عندما يقتلون دباً يقيمون احتفالاً مهيباً ويضعون جماجم دببهم التي يقتلونها في مكان الشرف من خيامهم، وفوق هذا يحتفلون احتفالاً تسوده الهيبة والروعة كل عام مقدماً لأرواح الدببة، ولا ينفردون وحدهم في هذا فالجلياك وهم لدى قبائل التونجوس في سيبريا الشرقية يعيشون على لحم الدببة ولكنهم يحيطون ذلك بالكثير من التقاليد محترسين ألا يخرقونها وإلا أصابهم الشرر من لحمه كما يعتقدون– وعليهم أن يخدعوا الدب حياً بما يقدمونه له من ضروب الاحترام والاجلال وعندما يقتلونه عليهم أن يقدسوا روحه التي غادرت جسمه.

وبالرغم من أنهم يأكلون لحمه كما يأكله الاينو بتقديس كبير إلا أنهم لا يرحموا الدب المسكين ويتركونه لحال سبيله ولكن الرجل البدائي يختلف عن الاينوفي سلوكه نحو الحيوان، أنه لا يقتلها لأنه يخشى أرواحها، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك فيما يختص بسلوكه نحو التماسيح[٣٣١] والنمور[٣٣٢] والثعابين[٣٣٣] ولكنه إذا اضطر لقتل حيوان ما، فهو يلتمس المعاذير لاقدامه على هذه الخطيئة الكبرى، وكلما كان

---

[٣٣٠] فريزر (١٧١) جزء٢ ص١٤١ وما بعدها.
[٣٣١] نفس المرجع ص١٥٩.
[٣٣٢] نفس المرجع ص١٦٥.
[٣٣٣] نفس المرجع ص١٦٧.

الحيوان أكثر توحشاً أو كلما كان لحمه أطيب مذاقاً، كلما ازدادت معاذير الإنسان نحو قتله.

أما الحيوان الضعيف الذي لا قيمة فيه والذي لا يؤكل لحمه —فهو الذي يقتل دون أدنى اعتبار.

هذه بعض الحقائق العامة المنتشرة بين القناصين وبين صيادي السمك في أمريكا، كما هي في أسيا أو إفريقيا أو في المناطق القطبية، والبدائي لا يقرب طعاماً دون أن يسبق اختياره إياه تفكير، وهو يعيش في مجتمع يسوده المحرمات والقيود والمحظورات، حتى ولو تنوع الطعام، فلابد من مراعاة أصول معينة خاصة بتناوله(٣٣٤)، فالاسكيمو المتوسطون محرم عليهم أن يجمعوا بين صيد البر وصيد البحر في طعام واحد، ومحرم عليهم أن يجمعوا تحت سقف واحد صيد البر أو صيد البحر من أسماك أو حيتان وفي جزر سليمان محرم على من طعم لحم خنزير أو سمك أو قواقع أن يدخل حديقة خضروات، وفي بعض الجهات الخرى يبلغ الحرص بالناس على أن لا يجمعوا بين أكثر من طعام لدرجة أن حتم عليهم أن يتطهروا كلما أرادوا أن ينتقلوا من طعام إلى آخر، والشباب المحارب عند الماساي وهم قبيلة رعوية في شرقي إفريقيا عليهم أن يأكلوا اللحم يوماً واللبن يوماً آخر، ويتطهرون باستمرار عندما ينتقلون من طعام إلى طعام.

---

(٣٣٤) نفس المرجع ص٧٠ وما بعدها.

والآن فنلخص ما اسلفنا –أن الرجال الاقتصاديين يرون أن كل العمليات الاقتصادية وما إليها تقوم على الفائدة والربح، وأنها جميعاً نتيجة سلسلة طويلة من التقديرات والعمليات الحسابية والمقارنات بين الحاجة التي يشعر بها الانسان وبين الثمن الذي يدفعه لسدها– ولذلك كثيراً ما كانت الوقائع الاقتصادية تفتعل أفعالاً بالطريقة التجريبية الاقتصادية التي كانت تعالج بها أمور حاجيات الإنسان ومطالبه –تلك الوسيلة التي تعتمد على اتجاه عام لدى مدينتنا الحديثة نحو اختصار كل نشاط بشري وقصره على عوامل مجردة قليلة مثل "الحاجة" إلا أنه كان هناك بعض الأذهان النيرة– مثل ذهن كارل بوشر[٣٣٥]، وغيره من الكتاب الذي رأى من زمن طويل– أن الطبيعة الاقتصادية "تختلف من رجل إلى آخر، فهي مسألة متعلقة بالتربية والعادة، وهي ليست واحدة بين كل البشر وليست واحدة بين كل طبقات المجتمع– ولسنا في حاجة إلى أن نذكر القاريء بالفرق بين أفراد الطبقات الدنيا والتي تقبل –إذا اتيحت لها الفرصة– نحو الشراء –وبين أفراد الطبقة الوسطى أو التجار الذين لا يقبلون على الشراء إلا بعد تدبر وتقدير– ولاريب أن المقابلة بين الرغبة وبين الثمن الذي يدفع لإشباعها ليست واحدة بين أفراد كل من الطبقتين وعلى الجغرافيين أن يلاحظوا هذا وألا ينساقوا وراء رجال الاقتصاد في طريق خطر.

ويجب عليهم أولاً وقبل كل شيء ألا يدعو "الإنسان" يذوب أو يضيع في "الطبيعة" حيث يصور في جنة أرضية جميلة دانية القطوف

---

[٣٣٥] بوشر (١٦٨) ص٢.

تمده بكل ما يحتاجه لحياته –وما عليه إلا أان يمد يده كي يسد مطالبة من عالم النبات والفواكه– وما تذخر به من أسماك وحيوان مستأنس ولبن وعسل .. إلخ.

"الإنسان" –"الإنسان المجرد" ذلك النوع الجغرافي الذي يجب عليه أن يطعم عليه ويقدر على أن يلتهم كل شيء دون تمييز –والذي يستفيد بكل ما تقدمه له البيئة من إمكانيات– هذا المخلوق لا وجود له– عند أصحاب النظريات ويقنعون بالحبوب أو الأسماك، بالرغم من أنهم رعاة[٣٣٦] والمائدة شهية حافلة بكل أصناف الطعام –لدى النظريين– ولكن الواقع غير ذلك، وقد لاحظ جاكمونت أن السيبوي في الهند لا يشتركون معاً في نوع الطعام نفسه.

حينما يوجد "إنسان" و"موارد طبيعية" توجد أيضاً "أفكار ومثل" تتدخل باستمرار بين استغلال الانسان للموارد الطبيعية وكثيراًما تتجرد المثل والأفكار عن القيم النفعية –وهذه الأفكار لا تتحكم فقطفي نوع الطعام الذي يقبل عليه الإنسان– بل في نوع الملبس الذي يلبسه والمسكن الذي يشيده بل في حياته المادية كلها، "ففي ساحل مالابار لا يزال بعض الناس يفضلون العري على أن يمس جلودهم كساء[٣٣٧] ولماذا نذهب بعيداً وهذا هو مؤلف ميشليه تاريخ القرن التاسع عشر– الذي لا يقرأه أحد رغم أنه لا يزال حافلاً بالآراء المفيدة، أن هذا المؤرخ

---

[٣٣٦] عن هذه النقطة قارن هاهن١١٣ فقرة 5 Die Milch und die Enistehun g der uirtschaftlichen Verwert ung der Milon p. lq' sq.

[٣٣٧]بوجلبيه "نظام الطوائف" جزء (17) ص190.

يعلق على أهمية الكحول واللحم والمكانة التي احتلاها في أصناف الطعام "بقوله هل هذا لمجرد تفوقهما في المذاق؟ لا بل لما يشيعانه في نفس الإنسان من سرور عندما يشعر بأنه قوي- قادر على أن يأتي بالمعجزات.

ولنعود إلى الماضي حيث نجد أن القيود الاجتماعية قد اختلطت بالقيود الدينية، إذ يحول دون رغبات الإنسان وحاجاته وبين ما هو موجود في الطبيعة مما يمكن أن يستغل —الكثير من المعتقدات والعادات والتقاليد، بل أن أصل الزراعة واستئناس الحيوان ونشأتهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالدين والسحر، بل أن الطقوس التي كانت ذات طبيعة نفعية- كانت أول أمرها "لعبقرية الإنسان الصانعة"[٣٣٨]، ونحن هنا أبعد ما نكون عن نطاق الفردية.

وقد كان دينكر الانثروبولوجي على حق في كتابه عن السلالات والشعوب عندما قسم كل ما هو متعلق بالطعام والغذاء على أساس صفات "اجتماعية"، فلسنا بإزاء فرد وطبيعة بل مجموعة اجتماعية، ونحن لا نعالج كما قلنا مراراً مسألة متعلقة "بالإنسان" ولكن المجتمع الإنساني وطبقاته المنظمة.

وكذلك من الصعب أن نفصل "الحيوان" أو "النبات" فصلاً تجريدياً ولابد أن نحل المجتمع محل الفرد، فيما يختص بهذ المسألة أيضاً، فالمجتمع الإنساني بإزاء مجتمع حيواني ومجتمع نباتي ولكن هذه مسألة

[٣٣٨]رايتاخ، الخرافات والأديان جزء ٢-١٩٠٦ المقدمة.

فوق طاقتنا أن نوغل فيها ويكفي أن نقول أن البشر لم يضعفوا بإزاء مجتمعات حيوانية أو نباتية بل بالعكس ازدادوا قوة وخصوصاً فيما يختص بالنبات الذي يعيش في مجتمعات خاصة، تمتاز بالتوازن التام، وصلت إليها خلال عملية التطور.

والإنسان بين هذه العناصر هو العامل المرجح، هو القدر الضئيل الذي يرجح كفة على أخرى، وأي خاطر يتراءى له قد يؤدي إلى نتائج عديدة، بل إلى سلسلة من النتائج بعضها يتوقف على الآخر مما يكون له أبعد الأثر في المجتمع النباتي، فمثلاً هناك بعض الجماعات الزنجية الضعيفة التي تعيش في الغابات وتقطع الأشجار وتقوم بتنظيف الأرض كما يحدث في الآف البقع في حوض الكونغو، وتعيش في هذه البقعة عام أو اثنين أو ثلاثة على أكثر تقدير، ثم تغادرها، وما أن تغادرها حتى تبدأ الأشجار في النمو مرة أخرى، ولكنها لا تعود سيرتها الأولى في النمو مطلقاً، إذ أن الإنسان أفسد التوازن بين الأنواع النباتية التي تحتاج إلى الظل، والأنواع التي ترغب في الضوء، وبذلك تنمو غابة ثانوية محل الغابة البدائية الأولى، وأن هي إلا خطوة في سلسلة طويلة من التدهور الشجري الذي يسير في قانون ثابت لا يتغير.

فلولا ترابط الأنواع النباتية المختلفة ومعيشتها في مجتمعات معينة بعضها يعتمد على الآخر في نموه وفي حاجياته، لما أمكن للإنسان الضال في الغابة أن يحدث هذه السلسلة الكبيرة من التغييرات في هذا المجتمع النباتي.

الفهرس

الباب الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الاديان في السينما

هذا الكتاب

سوف تظل العقيدة محور الاهتمام الأول لدى الانسان في كل زمان ومكان ، وفي عصر السينما شاهد الناس علي الشاشات الكثير ما يخص عقائدهم ، وبالنسبة لمصر فإن الاسلام هو المحور الأساسي في أكثر القصص التي نراها ، سواء في الأفلام التاريخية ، أو في القصص النمطية التي ينتصر فيها الخير على الشر .

هذا كتاب عن السينما والدين في مصر ، كيف صورت السينما تدين الناس ، ومكانة رجال الدين ، وكيف نمارس الشعائر من انسان لآخر ، وبالطبع العلاقات بين المسلمين وأصحاب العقائد الأخرى تحت نفس السماء، ومكانة الآنبياء ، والرموز الدينية التي فوق الجدران تعبر عن علاقة الانسان بعقيدته . .